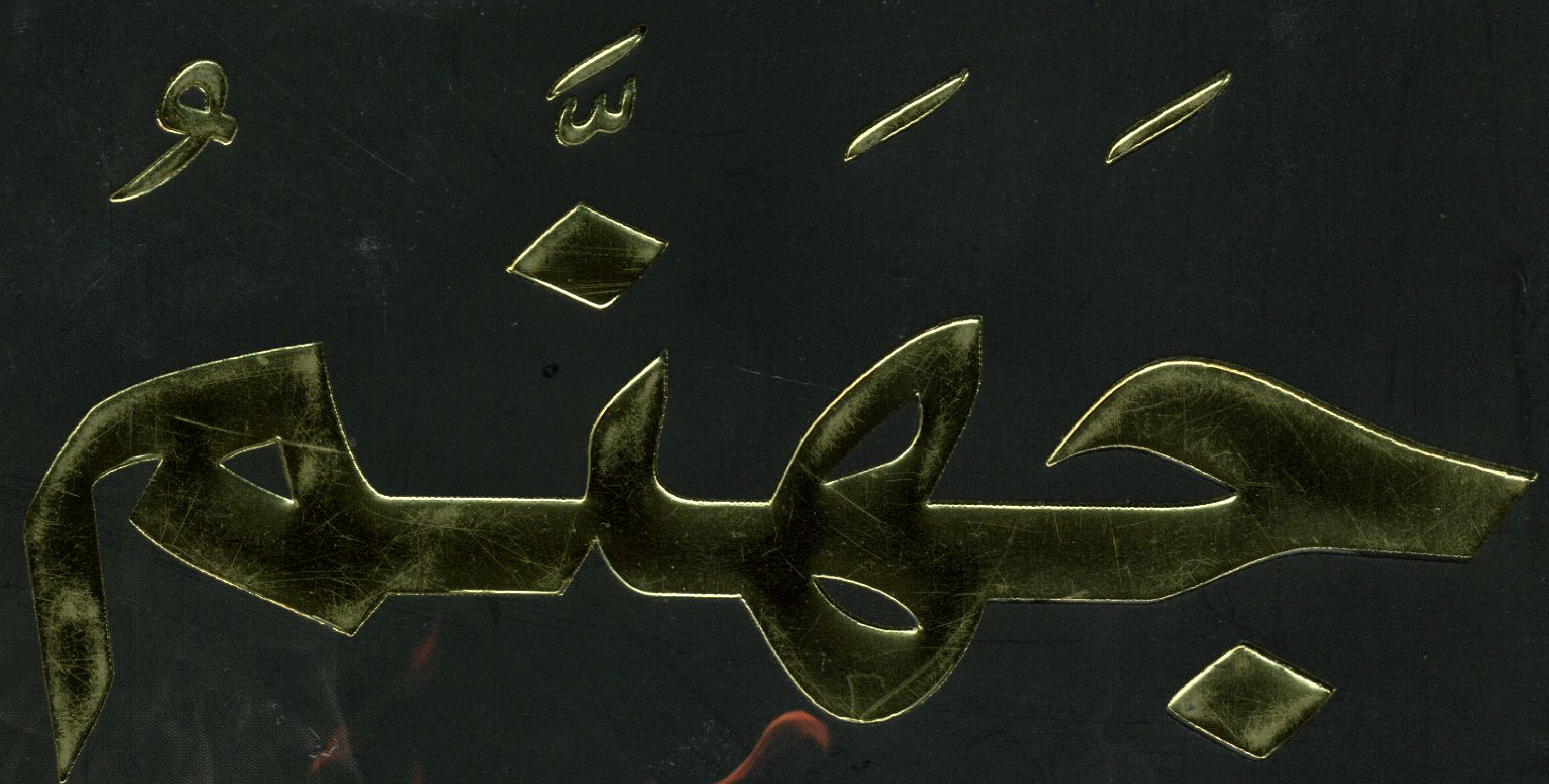




﴿إِنَّ عذابها كَانَ غرامًا﴾

الفرقان: ٦٥



النارُ وأهوالُها في الدِّياناتِ السَّماويةِ

النار وأهوالها

فى الديانات السماوية

اسم الكتاب : النار وأهوالها
اسم المؤلف : منصور عبدالحكيم
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠١٠/٢١٣٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 565 -5
التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف
الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف
الإشراف العام: أ. أسعد بكري كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى - أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى - ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠١٠



سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢
لبنان - تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ - تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ - ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com- darelkitab-nassif@hotmail:com
www.darketab.com - info@darketab.com

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

النار وأهوالها

فى الديانات السماوية

◆

منصور عبد الحكيم

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشـــق - القــاهــرة



﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ
لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ
عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

(الفرقان: ٦٣ ـ ٦٥)

المقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وله الشكر وهو على كل شىء قدر.

خلق الجنة لعباده المتقين المؤمنين وخلق النار لعباده الكافرين فكانت جزاءً وفاقاً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله خاتم الأنبياء والمرسلين خير من بلغ عن ربه عز وجل صلى الله عليه وسلم.

ثم أما بعد..

فقد خلق الله الجنة والنار وجعلهما للآخرة، للحياة الأبدية فى الآخرة وليستا للدنيا الفانية.

فكانت الجنة لمن أطاعه ورضى عنه من عباده فى الدنيا.

وجعل النار جهنم لمن عصاه وكفر به وحارب أولياءه ورسله وأنبياءه.

وقد تكلمنا قبل ذلك عن الجنة والنار من خلال حديثنا عن ملائكة الله المقربين مالك ورضوان خازنى الجنة والنار عليهما السلام، والحديث فى هذا الإصدار عن جهنم وبُعد أولياء الله وعباد الله عنهما وكيفية الاستعاذة منها والخوف من الوقوع فى أى عمل يؤدى إليها وبالتالى كيفية النجاة منها وكذلك يستعرض الكتاب ما جاء عن جهنم عند اليهود فى كتبهم والنصارى وغيرهما من الأمم الأخرى الغابرة والحالية.

وكل ما نريد إيضاحه وتسليط الضوء عليه هو التعريف بجهنم التى هى عذاب الله الأخروى وما كتب عنها فى الديانات الأخرى القديمة وعند الفلاسفة

والشعراء. فالكِتاب رؤية شاملة ودراسة مقارنة لجهنم ومفهومها عند كل الناس.

وما ذكر عنها فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة حتى يكون هذا الكتاب شاملاً موسوعيّاً عن جهنم أعاذنا الله تعالى منها.

نسأل الله العظيم الكريم أن يوفقنا إلى إخراج هذا العمل على الوجه الذى يرضيه ويرتضيه وأن يجعلنا من عتقائه من النار إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وأن يتقبل منا هذا العمل وسائر الأعمال الصالحة الأخرى.

إنه ولى ذلك والقادر عليه وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

منصور عبد الحكيم

Mansor -- 2455 @ yahoo. com



﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

(الفرقان: ٦٥)

- أهم صفات عباد الرحمن.
- جهنم وعباد الرحمن.
- المؤمن في عبادته لربه بين الخوف والرجاء.

أهم صفات عباد الرحمن

لا شك أن عباد الرحمن هم أفضل خلق الله وقد جاء ذكرهم ووصفهم فى آيات بينات فى سورة الفرقان حيث قال الحق جل وعلا فيهم:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧).

فهؤلاء الخلق الذين هم فى صفاتهم أقرب إلى الملائكة الذين قد لا يعصون الله أبداً ولا يعرفون الخطأ، وجب علينا التأمل فى تلك الصفات لهؤلاء حتى نقتدى بهم وكيف أنهم وصفوا عذاب جهنم بأن عذابها كان غراماً وهو معنى يوضح مدى رقة هؤلاء العباد الرحماء.

لقد بينت هذه الآيات الكريمة صفات عباد الرحمن وأخلاقهم، وتعاملهم مع ربهم، وتعاملهم مع الناس، وبينت عقيدتهم وتصرفهم فى أموالهم، وتلقيهم لآيات الله حين يذكرون بها.

فكان أول وصف لله لهم فى هيأتهم ومشيتهم فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ بمدحهم الله بهذه الهيئة النابعة عن التواضع لله رب العالمين، وذلك التواضع من الآداب العالية فى جميع الملل لا يختلف عليه أحد.

وجاء ذكر ذلك أيضاً فى وصايا لقمان لابنه كما ذكرها القرآن الكريم فى سورة لقمان:

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٧ ـ ١٩).

وقال: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الإسراء: ٣٧).

فهذه إهانة من الله تبارك وتعالى للمستكبرين يقول له: من أنت حتى تتطاول على الناس؟! فإنك لن تبلغ الجبال طولاً، يعنى هذه إهانة لعله يتواضع لله.

ولهذا كان عباد الرحمن يمشون هوناً متواضعين لله رب العالمين، يمشون بسكينة ووقار غير متصنع وإنما تواضعاً لله وخفضاً للجناح للمؤمنين يتواضعون لله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.

لكمال أخلاقهم وشرف نفوسهم لا يجارون السفهاء فى الكلام القبيح وفى الكلام السفيه والوقح، وإنما يربؤون بأنفهسم ويشرفونها من الانحدار مع السفهاء الجهلاء إلى قول الجهل والفحش.

وإنما يقولون: ﴿سَلامًا﴾ أى سلاماً يسلمون فيه من الإثم وخرم المروءات

والشرف لأن التنازل مع السفهاء قد يخدش فى كرامة النبلاء، فيتنزهون عن البذاء والفحش فى الكلام ولو فُحِش عليهم، ولو أسيئ إليهم ولو سُبوا فإنهم يقابلون ذلك بالأخلاق العالية من الصبر والحلم والكلام الطيب، حتى إن بعض الناس يسبه بعض الناس فيقول: السلام عليكم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾

(القصص: ٥٥).

هكذا أورث التواضع لله فى المشى أخلاق النبلاء من البشر وهم فى ذلك قد تشبهوا بالملائكة ودفعوا السيئة أو السوء من القول بالحسن من القول وهو قمة الإيمان الحقيقى.

فلا يكن لئيماً مع اللئام، بل اثبت واحلم واصبر ورد السيئة بالحسنة قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤ - ٣٥).

فإن أردت أن تكون من أولياء الله وأصفيائه فلابد أن تتحلى بتلك الصفات.

فالإسلام دين تطبيق وعمل وليس دين نظريات: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر).

فالإسلام دين العمل والتطبيق فإذا خاطبك شياطين الإنس فقل لهم كلاماً طيباً حكيماً تسلم فيه من الوقوع فى الإثم والطيش والفحش.

وعباد الرحمن لابد أن يكونوا طائعين له فيؤدون الصلاة وكل ما فرض عليهم من عبادات ولهذا كان من وصفهم فى الآيات الكريمة التى ذكرناها ﴿الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

فهم لا يحافظون على الصلاة المفروضة فقط بل يقيمون الليل سجداً وقياماً وهى أفعال الصلاة وهى شرف لهم ولكل مؤمن بالله فقد ذكرت الآية الأولى

التعامل مع الله ومع عباده وهذه فى التعامل مع رب العالمين يحبون الله ويعظمونه ويرجون رحمته ويخشون عذابه سبحانه وتعالى.

هكذا تكون عبادتهم لله تعالى فيزيدون على الفرائض بالنوافل يقومون الليل، لكن ليس الليل كله، كما علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فإن شريعتنا دين الوسط ليس فيها رهبانية وليس فيها الجفاء وإنما هى دين الوسط، ولهذا لما تشتد بعض الصحابة وقال بعضهم: أقوم ولا أنام وقال بعضهم أصوم ولا أفطر وقال بعضهم لا أتزوج النساء غضب رسول الله ﷺ وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»(١).

وكان رسول الله ﷺ يصلى الليل ولا يزيد على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة.

وكان عبدالله بن عمرو ممن يصوم النهار ويقوم الليل فبلغ ذلك رسول الله فأنكر عليه ﷺ:

فعن ابن عمرو بن العاص قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألم أنبأ أنك تقوم الليل وتصوم النهار»؟

فقلت: نعم.

فقال: صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر أو كصوم الدهر.

قلت: إنى أجد بى - يعنى قوة -.

قال: فصم صوم داود عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقَى»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»(٣).

فأرشد عبدالله بن عمرو إلى أن يقوم قيام داود ويصوم صيامه لأنه لا أفضل من قيامه ولا من صيامه، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، كان مجاهداً وكان من صفاته

---

(١) ، (٢)، (٣) متفق عليه.

الشجاعة، كان يجمع بين العبادة وبين الشجاعة عليه الصلاة والسلام.

هكذا أرشده النبى ﷺ ومن خلفه باقى المؤمنين، وقد طبق ذلك على نسائه حيث روى أنه دخل فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: «ما هذا الحبل»؟

قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت.

فقال النبى ﷺ: «لا، حلوه ليصلِّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد»(١).

وقال ﷺ: «إذانعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه»(٢).

لأن عدم النوم يؤدى إلى خلل فى عقل الإنسان قد يفقد وعيه فيقول مالا يريد، فدين الله وسط ليس فيه شدة ولأن الصلاة هى عماد الدين فقد حرص عليها عباد الرحمن وزكاهم ربهم بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ يصلون صلاة الخاشعين وسجود الخاشعين وركوع الخاشعين المخبتين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ سجود الخاشعين وركوعهم وأثنى الله عليهم فى آيات: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ (الفتح: ٢٩).

وصفهم الله تبارك وتعالى بهذه الصفات بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لتلك الآيات من أواخر سورة الفرقان التى ذكرناها:

هذه صفات عباد الرحمن ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فإما هؤلاء

---

(١) ، (٢) متفق عليه وزينب هى زوجته ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها.

فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً فقال: ما بالك أأنت مريض؟

قال: لا يا أمير المؤمنين فـ

علاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة.

وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنت تسعون، وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا».

عن الحسن البصرى فى قوله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الآية، قال: إن المؤمنين قوم ذلل، ذُلَّتْ منهم ـ والله ـ الأسماع والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم والله أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة، ولكن أبكاهم الخوف من النار، إنه من لم يتعزَّ بعزاء الله، تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب، فقد قَلَّ علمه وحضر عذابه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ أى إذا سفه عليهم الجهال بالقول السىء لما يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد، عن النعمان بن مقرن المزنى قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلاً عنده، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا

قلت له وعليك السلام، قال: لا بل عليك وأنت أحق به». إسناده حسن ولم يخرجوه.

وقال مجاهد ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ يعنى قالوا سداداً، وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول وقال الحسن البصرى: ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ حلماء لا يجهلون إن جُهل عليهم حلموا يصابحون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أى فى طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ● وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وقوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٩).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى ملازماً دائماً كما قال الشاعر:

إن يعـــذب يكن غـــرامـــاً وإن يعط جـــزيلاً، فـــإنه لا يبـــالى

ولهذا قال الحسن فى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه، فليس بغرام، وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض، وكذا قال سليمان التيمى.

وقال محمد بن كعب ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعنى ما نعموا فى الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٦٦) أى بئس المنزل منظراً وبئس المقام مقاماً.

وقال ابن أبى حاتم عند قوله ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ عن مالك بن الحارث قال: إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له: مكانك حتى تتحف، قال: فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب، قال: فيميز الجلد على حدة والشعر على حدة، والعصب على حدة والعروق على حدة.

وقال أيضاً: عن عُبَيْد بن عُمَيْر قال: إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال

البخت وعقارب أمثال البغال الدلم، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشافههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتنى بعبدى هذا، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول الله ائتنى به، فإنه فى مكان كذا وكذا، فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول له: يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك؟

فيقول: يارب شر مكان وشر مقيل.

فيقول الله عز وجل: ردوا عبدى.

فيقول: يارب كنت أرجو إذ أخرجتنى منها ألا تردنى فيها.

فيقول الله عز وجل: دعوا عبدى[1].

وهنا يأتى دور الدعاء الذى هو العبادة كما قال ﷺ ولهذا دعا عباد الرحمن ربهم لأنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالجنة وبالنار، وكان رسول الله ﷺ إذا تحدث عن الجنة والنار فكأنما هى رأى العين وعلى عباد الرحمن أن يقوى إيمانه بتلاوة القرآن وتدبره واتباع هدى رسول الله ﷺ ويقوى يقينه كأنما يرى النار.

فعباد الرحمن يؤمنون بهذه النار ويعرفون شدتها وخزى أهلها فيستعيذون بالله منها ويلجأون إليه مستجيرين مستغيثين ضارعين خائفين وجلين: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ عذاب الكفار غرام ملازم لهم أبد الآبدين، لو يريدون أن يستريحوا منه لحظة لا يجدون ذلك، ولا يموتون فيها ولا يحيون حياة سليمة فيلازمهم العذاب بسبب كفرهم بالله وشركهم به وارتكابهم معاصيه.

---

(١) تفسير ابن كثير.

فعباد الرحمن يعملون الأعمال الصالحات ويجتنبون القبائح والسيئات وعلى رأسها الكفر ولا يكتفون بذلك بل يضرعون إلى الله أن ينجيهم من النار لأن المرء لا يضمن لنفسه الجنة، فيلجأ إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء أن يقيه عذاب النار.

ولهذا علمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى كل صلاة نصليها فريضة أو نافلة أن نستعيذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال، فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال»(١).

فهم يدركون الحقيقة ويعلمونها ولهذا أرادوا النجاة وعرفوا السبيل إلى ذلك باللجوء إلى خالق النار وخالقهم الله عز وجل.

فمن شدة حذرهم والبعد عن الغرور والإعجاب بالنفس وبالعمل كانوا يخافون على أنفسهم النفاق **﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩).**

فهم لا يركنون إلى أعمالهم لقوله ﷺ: «لن يُدخل أحدا عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة(٢).

فالمؤمن يجمع بين الخوف والرجاء لا ييأس من روح الله ولا يأمن من مكر الله ولذلك فهو يراقب نفسه ويخاف أن ينحرف وأن ينكص على عقيبه، بل يخاف على نفسه النفاق ويخاف على نفسه الرِّدة ويدعو ربه أن يثبته فيقول «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا»، ولهذا قال عباد الرحمن: **﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾** وهذا حال المؤمنين أنهم بين الخوف والرجاء، فهذا عمر ﷺ يقول عند موته: «والله لو أن لى طِلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه»(٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في المسند.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه.

وعمر رضي الله عنه من المبشرين بالجنة فى حياة النبى ﷺ حيث شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ومع ذلك كان يخاف خوفاً شديداً على نفسه، ومن الدنيا وكان يقول لأبى موسى: «يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه برد لنا وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس.

فقال أبو موسى: لا والله، قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك.

فقال عمر: لكنى أنا والذى نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافاً رأساً برأس[1].

ولهذافإن عباد الرحمن قد وصفوا جهنم وخوفهم منها فى دعائهم بقولهم: «إنها ساءت مستقرّاً ومقاماً».

فهى بئس المقر وبئس المقام، قبحت وشنعت ومن بئس حال أهلها لا تستطيع وصفهم من البلاء الذى ينزل بهم والهلاك والشرور والدمار.

ويكفى أن تعلم أن وقودها الناس والحجارة كما قال تعالى: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ **(التحريم: ٦)**.

فنار الآخرة ليست مثل نار الدنيا التى هى جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم كما قال النبى ﷺ: «ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال: فإنها فضلت عليه بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها»[2].

وقوله أيضاً: «واشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضى بعضاً، فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير»[3].

(١) رواه البخارى في صحيحه. (٢)، (٣) متفق عليه.

هى نار عميقة الغور وهى دركات والعياذ بالله دركات والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار لخبثهم لأنهم أخبث من الكفار فهم يخفون الكفر ويعلنون الإيمان الكاذب.

والنفاق يوجد فى هذه الأمة منذ عهد الرسول ومستمر فى كل العصور. ومن صفات عباد الرحمن عدم الإسراف وعدم البخل أيضاً، قال تعالى:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

والمال نعمة من الله تبارك وتعالى والعبد مسئول عن هذا المال من أين اكتسبه وفيم أنفقه، ولهذا يجب عليه التصرف فيه باعتدال وبحكمة وبتوسط فلا تبذير وإسراف ولا تقتير، والإسراف مجاوزة الحد يتجاوز الحد فى الإنفاق فيسرف فى مأكله وفى مشربه ويتجاوز الحد المطلوب أما الذى يضع المال فى الحرام والمعاصى فيكون من أخبث أنواع الإسراف «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين».

ولهذا قال تعالى عن إنفاق عباد الرحمن ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ لم يبخلوا أن يضعوا المال فى مواضعه لم يبخل، يعنى يؤدى الزكاة ويصل الأرحام وينفق على الفقراء والمساكين كما مدح الله تبارك وتعالى من يبذل الأموال فى هذه الأبواب، فيضع الأموال فى مواضعها فلا إسراف ولا تقتير ولا بخل.

فلا يتصفون بصفات المسرفين والسفهاء المبذرين، ولا يتصفون بصفة البخلاء الجبناء لأن البخل والجبن متلازمان والعياذ بالله فهم فى غاية الشرف وغاية الاعتدال فى كل مقام فى مقام العبودية معتدلون وفى الأخلاق معتدلون، وفى الأموال وتصرفاتهم معتدلون، لأنهم تأدبوا بمنهج الله وبدينه الحق، وعرفوا مقاصد الإسلام فلا إسراف ولا تقتير.

وهذا من رعاية المال الذى هو من الضرورات التى يأمر الإسلام بالمحافظة عليها ومن عصب الحياة فلا يضيع المؤمن الأموال فى سبيل الشيطان ولا يبخل فى أن يبذل المال فى سبيل الله.

فالمسلم مأجور فى كل ما ينفقه حتى اللقمة يضعها فى فم امرأته فإذا احتسبه يريد به وجه الله والقيام بالواجب الذى شرعه الله فهو فى ميزان حسناته

فهؤلاء عباد الرحمن ليس للشيطان عليهم سبيل، فلا يخدعهم فيدعهم للإسراف ولا يخوفهم بالفقر كما قال تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

فالشيطان يقول للمنفق فى سبيل الله: لا تنفق لا تضيع مالك، لماذا تفعل هكذا؟ إذا أنفقت تصبح فقيراً!! وقد يفحش الإنسان على من يستحق المال فيسلقه بالكلام الفاحش فقد يحتقر المسكنين ويزدريه وهذا ما يريد الشيطان من أوليائه.

ومن صفات عباد الرحمن أيضاً أنهم لا يشركون بالله شركاً ظاهراً أو شركاً خفيّاً باطناً، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعنى لا يشركون بالله لا يتخذون مع الله أنداداً فلا يستغيثون بغير الله، ولا ينذرون لغير الله، ولا يذبحون لغير الله ولا يتوكلون على غير الله ولا يرغبون إلى غير الله ولا يخافون إلا الله خوف العبادة.

والخوف الطبيعى ليس شركاً كأن تخاف من الحية وتخاف من عدو هذا ليس شركاً.

والخوف الطبيعى الذى تنفيه لا يضر ولا يخدش فى العقيدة لكن لا تبالغ فيه.

وعباد الرحمن لا يتخذون مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله ويستغيثون بهم ويلجأون إليهم عند الشدائد فهم براء من الشرك كله من كل أصناف الشرك فليس عندهم شىء من أنواع الشرك بالله لا صغير ولا كبير.

ومن صفات عباد الرحمن المذكورة فى آيات سورة الفرقان أنهم لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون أيضاً فتلك جرائم كبرى فى حق الإنسان أيا كانت صفته ودينه قال تعالى فى سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

ومن يستحل قتل مؤمن فقد كفر وغضب الله عليه وأخلده فى النار والخلود هنا إن كان مستحلاً لدم المسلم فهو خلود الكافرين لأنه يكفر باستحلاله قتل

النفس أو النفوس، وإن كان غير مستحل فالخلود الدوام الطويل يعذبه الله عذاباً طويلاً، لكن فى النهاية إن كان غير مستحل يخرجه الله بالتوحيد كما هو مذهب أهل السنة والجماعة فى أن أهل الكبائر ومنها قتل النفس لا يخلدون فى النار ولكن قاتل النفس عليه وعيد شديد والعياذ بالله إلا بالحق يعنى الشارع أباح قتل النفوس بالحق والله أعلم.

قال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزانى والمفارق لدينه التارك للجماعة[(١)].

الثيب الزانى وهو المتزوج المحصن، إذا زنا وقد تزوج وأحصن فيكون جزاؤه الرجم فيقتل ويباح دمه بهذا الذنب العظيم.

وكذلك من صفاتهم أنهم لا يفعلون جريمة الزنا.

والزنا من الكبائر العظيمة وانتهاك أعراض الناس والعياذ بالله فلا يزنى لا بمسلمة ولا بكافرة.

ولكن زناه بالمسلمة أشد وزناه بزوجة جاره أشد وأشد، ولهذا سأل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن أعظم الذنوب فقال ﷺ: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قلت: إن ذلك لعظيم قلت: ثم أى؟

قال: «وإن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك»

قلت ثم أى؟

قال: «أن تزانى حليلة جارك»[(٢)].

لأن الجار له حق عظيم لقوله ﷺ: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه»[(٣)].

والزنا كذلك من أكبر الجرائم والذنوب: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢). الذى يرتكب هذه الجرائم يلقى إثماً: عذاباً شديداً ونكالاً ـ والعياذ بالله ـ إن كان كافراً

(١) ، (٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه.

فمخلد أبد الآبدين، وإن كان قد تقحم هذه الكبائر غير الشرك فهذا يواجه جزاءه إلا أن يتجاوز الله عنه.

وأهل الكبائر تحت مشيئة الله، ومنهم أقوام قطعاً يدخلون النار ويعذبون ما شاء الله بقدر ذنوبهم ثم يأذن الله فى الشفاعة لهم، لكن الآن من يصبر على حر الشمس فى يوم شديد الحر ومن يتحمله فما بالك بنار جهنم؟

فالله تبارك وتعالى ذكر الوعيد: «يلق أثاماً» العذاب والنكال الشديد.

وبعضهم يفسر الآثام بواد فى جهنم واد خطير فى جهنم وهو من النكال الذى يلقاه الكفار وقد يلقى هذا النكال المجرمون العتاة - والعياذ بالله - على تفاوت بين الكفار وبين العصاة ولكن من يطيق هذا العذاب، عذاب جهنم؟

فالمؤمن الصادق لا يصر على المعصية والفاحشة بل يهرع إلى الله فوراً نادماً تائباً توبة نصوحاً فمن يقع منا فى معصية صغيرة أو كبيرة وكلنا خطاءون وخير الخطائين التوابون قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ **(التحريم: ٨).**

ورسول الله عليه الصلاة والسلام الذى غفر الله له ذنبه ما تقدم وما تأخر يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية مائة مرة بل فى المجلس الواحد يعد مائة مرة أستغفر الله وأتوب إليه، فعن ابن عمر قال: «إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة «رب اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم»[(١)].

والتوبة لها شروط ذكرها أهل العلم منها:

١ - أن تندم على ما فعلت أشد الندم وتستحى من الله وتخجل منه وتجد من وخز الضمير ما لا يتصوره إلا التائب الصادق.

٢ - وأن تقلع عن الذنب وتبادر إلى الإقلاع عن ذلك الذنب.

٣ - وأن تعزم عزماً أكيداً على ألا تعود إلى هذا الذنب الذى وقعت فيه

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الألبانى وانظر تفسير ابن كثير.

وزعمت أنك تبت منه.

قال تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» وهذا من فضل الله تعالى.

وقد ذكر أهل العلم فى تفسير تبديل السيئات بالحسنات قولين:

القول الأول: أن يوفقهم الله تبارك وتعالى للأعمال الصالحة والحسنات فبعد أن كان يشرك بالله ويقتل النفس ويزنى ويسرق وكذا وكذا يوفقه الله للأعمال الصالحة إلى التوحيد إلى الاستقامة إلى عمل جميع الخيرات

هذا معنى القول الأول: «يبدل الله سيئاتهم حسنات».

والقول الثانى: أن السيئات هذه التى مارسها يجعلها الله فى الآخرة حسنات، ولذلك وردت فى ذلك آثار وأحاديث لها شواهد من السنة ومن آثار السلف ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنى لا علم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها.

فنعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا كذا وكذا وعملت يوم كذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا.

قال الراوى: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[1].

فالله يقبل توبة التائبين، ويفرح بتوبة التائبين سبحانه وتعالى،ولأنه أرحم الراحمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، ويفرح بالتوبة أشد الفرح، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ

(١) رواه مسلم وأحمد.

من شدة الفرح[1].

وأضاف الحق جل وعلا إلى صفات عباده المتقين الذى هم عباد الرحمن فى سورة الفرقان أنهم لا يشهدون الزور واللغو فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢).

لا يشهدون الزور، فسر شهود الزور بمعنى حضوره، وفسر بعبادة الأوثان والأصنام، فسر بالكفر والبغى والمعاصى وغيرها، وفسر بعدم حضور الغناء، وفسر بعدم شهود مجالس السوء، مثل شرب الخمر وغيره من المعاصى والقمار وما شاكل ذلك، ولعل الآية تتناول هذه الأشياء كلها، فسر أيضاً بشهادة الزور وهى الكذب على الغير وبهته بما ليس فيه، فهم ليسوا من هذا النمط، ولا من هذا النوع الذى يقذفون الناس بما ليس فيهم، أى أن شهادة الزور أن تقول فى غيرك الباطل، هذه شهادة الزور والرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر شهادة الزور من أكبر الكبائر، فالمعاصى فيها كبائر، وكبائر الكبائر ومنها شهادة الزور، قد تؤدى شهادة الزور إلى سفك الدماء، إلى هتك الأعراض، لها مضار وعواقب وخيمة جداً، لهذا اعتبرها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: ٣٠).

سواء شهادة الزور أو قول الزور بالكفر والشرك أو البغى والعدوان والغيبة والنميمة وغير ذلك.

فقد قرن سبحانه وتعالى شهادة الزور بالنهى عن عبادة الأوثان لشدة خطره، وفى حديث أبى بكر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟! قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور»[2].

وقد نفى الحق جل وعلا تلك المنكرات والكبائر عن عباد الرحمن ولأنهم شرفاء كرماء نبلاء فلا يتعاطون شيئاً من ألوان الزور أبداً.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٢) متفق عليه.

ولأنهم لا يشهدون الزور فإنهم كذلك لا يجلسون مجالس اللغو ويمرون عليها مرور الكرام، فلا يسمعون السفه والطيش والسب والشتم واللغو الفارغ يمرون مر الكرام كأنهم لم يسمعوا: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ إذا مر على لعب ولهو أو كذا يمر مر الكرام، إن كان يستطيع إنكاره غيره، بيده إن استطاع.

ويتبع ذلك نتيجة حتمية وهى خشوع قلوبهم للموعظة إذا ذكروا بآيات الله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ **(الفرقان: ٧٣).**

أما الكافر وأهل البدع والهوى إذا سمعوا آيات الله تتلى عليه يصرون مستكبرين.

وجاءت نفس الصفة لعباد الرحمن فى سورة الأنفال إجمالاً وتوضيحاً وإضافة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ **(الأنفال: ٢ ـ ٤).**

وفى صفاتهم فى سورة الفرقان كما ذكرنا دعاؤهم النجاة من جهنم، وهذا فى الآخرة وكذلك يأتى دعاؤهم هذه لأنفسهم فى الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ **(الفرقان: ٧٤).**

هم على هذه الصفات الكاملة الجميلة وعلى هذه الأخلاق العالية ويطلبون هذا لغيرهم، يريدون الخير أن يعم وأن يبدأ هذا الخير بأسرتهم فهو لا يرضيه ولا تقر عينه أن يرى أسرته واقعة فى الانحراف وفى المعاصى، بل يطلب من الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لا تقر أعين هؤلاء المؤمنين عباد الرحمن إلا بمن يطيع الله تبارك وتعالى، ويستقيم على دينه عقيدة ومنهجاً، قرة عينه فى ما يرضى الله تبارك وتعالى، فيطلب من الله سبحانه وتعالى أن يقر عينه بإيمان واستقامة أقاربه وأسرته، ومع ذلك يدعو إلى

الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٣ ـ ٣٤).

فهو يدعو إلى الله تبارك وتعالى ولا أحسن من الداعى إلى الله ولا يدعو إلا عباد الرحمن الصادقين المخلصين.

وهذه من صفات عباد الرحمن المؤمنين لا يقرون المنكرات، ويحاولون إزالتها بقدر ما يستطيعون.

قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

وقال أيضاً: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٢).

فكثير من الناس قد يمر بالمنكر فلا يحرك فيه ساكناً وقد يحب أهل المنكر ويشاركهم فهذا يقال فيه: ليس وراء ذلك مثقال ذرة من إيمان والعياذ بالله.

وكان جزاء هؤلاء العباد المؤمنين ما كان يرجونه ويتمنونه ويدعون ربهم من أجله وهى الجنة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ (الفرقان: ٧٥).

والغرفة هنا مفرد ولكن يراد به الجنس يعنى الغرف، وفى ما قبلها: ﴿وجعلنا للمتقين إماماً﴾ يعنى داعية، يعنى إماماً للمتقين، فسرها البخارى قال: اجعلنا أئمة

---

(١)، (٢) رواه مسلم وأحمد.

نقتدى بغيرنا ويقتدى بنا غيرنا.

يقتدي بمن سلف من الأئمة فيدعو الله أن يجله قدوة وإماماً، إماماً يعنى أئمة، لأنهم هم جماعة «وجعلنا للمتقين إماماً» يعنى أئمة فالمؤمن من يدعو، يتمنى أن يرزقه الله العلم النافع والعمل الصالح وأن يكون من عباد الله الصادقين المخلصين الذين وصفهم الله بهذه الصفات، ويتمنى أن يكون إماماً فى الخير لا فى الشر، أن يكون قدوة حسنة للناس ينشر فيهم العقائد الصحيحة والمناهج الصحيحة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويتحمل الأذى فى سبيل الله تبارك وتعالي لأن الأنبياء أئمة الناس وهداتهم وقادتهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الله ويجاهدون فى سبيل الله، ويلقون من الأذى ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

ولأهل الجنة غرف فعن أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى أفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

قال: بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين[(١)].

ويأمر ملائكته بأخذهم إلى تلك الجنة، قال تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

(الزمر: ٧٣ ـ ٧٤).

لقد رسمت سورة الفرقان لوحة لعباد الرحمن، وليس عباد الشيطان أو عباد الدرهم والدينار، فهناك من عَبَّد نفسه للكأس والطاس؛ ومن عبد نفسه للشهوات، وهناك عبيد كثيرون لأشياء شتى، وجميعهم لا قيمة لهم ولا وزن وهم حطب جهنم والعياذ بالله وإنما المعول عليهم هم عباد الرحمن، الذين تبرأوا من عبادة أى صنم

(١) متفق عليه.

أو طاغوت من الطواغيت.

وذكر الشيخ القرضاوى أن التعبير عنهم بعباد الرحمن دليل على الرحمة الواسعة التى وسعت كل شىء فهم عبيد للرحمن الذى لم يعرف قدره المشركون الذين قالوا: «وما الرحمن»؟ لما قيل لهم اسجدوا للرحمن، فعرض الله تعالى صفات العباد الذين يعرفون قدر الرحمن، وهى صفات تميزهم عن غيرهم، وهى صفات إنسانية وربانية، والمتتبع لها يجدها تعرض أخلاقاً فردية وأخرى اجتماعية، ويجدها تعرض وصف حالهم بالنهار ووصف حالهم بالليل، ووصف حالهم فى أنفسهم ووصف حالهم مع غيرهم.

وقال إن أول وصف لعباد الرحمن إنهم يمشون على الأرض هوناً وهى صفة لها دلالة كبيرة، ولذا بدأ القرآن بها ولم يبدأ بأنهم صوامون قوامون وغير ذلك، وهى تعبير عن شخصية الإنسان، فكل إنسان تعرفه من مشيته، فالشخص المغرور المتكبر المختال فى نفسه والمستعلى على غيره يظهر ذلك فى مشيته، والشخص الوقور المتواضع المعتز بالله وبإيمانه، وليس المعتز بدنيا ولا بمال ولا جاه أو أولاد، تراه فى مشيته هيناً ليناً متواضعاً، وقد قال تعالى فى وصايا الحكمة التى جاء على لسان لقمان لابنه وهو يعظه **﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾** (لقمان: ١٨).

وقال تعالى أيضاً: **﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾** (الإسراء: ٣٧)، وقد قال الشاعر:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ... فكم تحتها قوم همو منك أرفع

وتساءل: لماذا يمشى البعض على الأرض مرحاً وبطرا، وقد رأيت منذ أن قدمت إلى قطر قبل حوالى ٤٥ سنة عدة مقابر امتلأت وأغلقت، وهى فترة وجيزة فما بالكم بالقبور من قوم عاد وقد كان ﷺ يمشى متواضعاً لكن بقوة وكأنه منحدر من جبل.

وبين الشيخ القرضاوى أن عباد الرحمن أول خلق يظهر منهم ويعرفون به هو

أنهم يمشون على الأرض بتواضع، والثانى أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما لا يقابلون السيئة بالسيئة، فالأعمار عندهم أغلى من أن تضيع فى المهاترات مع الناس، ولذلك فإن عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، معرضين عن أهل الجهل، وهذا حالهم فى نهارهم مع الخلق، أما حالهم فى الليل مع الله تعالى فقد أوضحه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ موضحاً أن عباد الرحمن لا يقابلون السيئة بالسيئة بل يعفون ويصفحون، وفى الليل هم مع الله، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، ولأن أفضل حالات العبد مع ربه عندما يكون فى الصلاة، وأفضل حالاته فى الصلاة حالة السجود «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وواصل فضيلته فى عرض الصورة المشرقة لعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، ويعرضون عن الجاهلين ويبيتون لربهم سجداً وقياماً، ومع ذلك فهم يخافون ويدعون ربهم ربنا اصرف عنا عذاب جهنم وهذا شأن المؤمنين مع ربهم، فهم لا تغرهم الطاعة، ولا يقولون نحن وصلنا، بل المؤمن يعمل الصالحات ويقول أخاف ألا تقبل منى، وهناك من يعمل السيئات ويقول أطمع أن تغفر لى، وعباد الرحمن دائماً هم يخافون من عذاب النار، ويخافون أن تمسهم النار أو تلفح وجوههم، وقد عرفوا أنه ليس المهم أن يعمل المؤمن بل المهم أن يُقْبَل، فالقبول مسألة أساسية لدى المؤمن.

ولفت إلى أن الدعاء بـ اصرف عنا يعطى دلالة كبيرة وكأن النار تلاحقهم وتجرى وراءهم، فهم يرجون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم لأن عذابها كان غراماً أى لازماً ودائماً لأصحابها، وقد ساءت مستقراً ومقاماً، لأنها لا تكتفى بالعذاب المادى والحسى فقط بل تتعداه إلى العذاب المعنوى، وهو الحجب عن رؤية الله تعالى: «كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» وهى إهانة شديدة لأهل جهنم والعياذ بالله.

وأضاف القرضاوى إن عباد الرحمن قد يكونون من الذين يملكون الأموال، وهم يتصرفون فيها وفى إنفاقها بالحكمة والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان

بين ذلك قواماً فالوسطية والاعتدال شأن حياتهم، فلا تبذير ولا تقتير ولا إسراف.

وبين القرضاوى الفرق بين التبذير والإسراف فقال إن التبذير هو الإنفاق فى الحرام والإسراف هو التوسع فى الإنفاق الحلال، وقد نهانا الله عن الإسراف ليلفتنا إلى أناس ربما لا يجدون ما يسدون به رمقهم فضلاً عن البيت الذى يسكنه أو الدواء الذى يلزمه.

وفى ملمح آخر للصورة التى عليها عباد الرحمن، قال فضيلته أن حال عباد الرحمن فى النواحى السلبية وتجنب المعاصى يوضحه لنا قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾** (الفرقان: ٦٨)، فهم يجتنبون الكبائر من المعاصى وأكبر الكبائر هو الشرك بالله عز وجل، ويليه قتل الأنفس التى حرم الله، وبعد ذلك الزنا، وذلك إشارة إلى الاعتداء على الدين ثم النفس ثم العرض، **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** (الفرقان: ٦٨، ٦٩، ٧٠).

وقال إن الله سبحانه وتعالى أعطى أهل الإيمان ممحاة يمحون بها ما وقع منهم من المعاصى، وهى التوبة النصوح التى تغسل الإنسان من الذنب كما يغسل الماء الجسم من الدرن، **﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾** (الفرقان: ٧١).

وأضاف أن من أخلاق عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، أى لا يؤدون شهادة الزور التى هى من أكبر الكبائر أو أنهم لا يحضرون مشاهد الزور مثل مشاهد اللهو ومشاهد القمار والميسر وغيرها، وقال بعض المفسرين لا يحضرون أعياد المشركين، أو مشاهد الغناء والرقص، أو مجالس الاستهزاء بكتاب الله، أو الخوض فى أعراض الناس، وهم لذلك إذا مروا باللغو مروا كراماً فالمؤمن لا يضيع وقته فى اللغو.

وبين فضيلته أن قلوب عباد الرحمن حية، تستجيب لآيات الله وتتأثر بها: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان:٧٣) فعقولهم وقلوبهم تتأثر بالقرآن وتخشع للرحمن، وهم يملكون أجهزة حساسة وسليمة وواعية تستقبل إشارات القرآن وتستجيب لها.

وبيَّن الشيخ القرضاوى أن عباد الرحمن لا يقصرون همهم على أنفسهم وأن تكون عبادتهم صالحة خالصة، بل يريدون صلاح غيرهم، وأول من يريدون إصلاحهم وصلاحهم تلك هى بيوتهم وذرياتهم، ولذلك هم حراص كل الحرص على هداية أزواجهم وذرياتهم حتى تقر أعينهم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)، فعباد الرحمن لا تقر أعينهم بأزواجهم وأبنائهم إلا إذا كانوا على الطاعة والعبادة، وبعد أن يضمنوا صلاح بيوتهم يطلبون من الله تعالى أن يجعلهم رؤوساً فى الخير والصلاح ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ، وختم الله سبحانه هذه الآيات ببيان جزائهم فى الآخرة ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ (الفرقان: ٧٥).

ولأن عباد الرحمن هم عباد قلوبهم وجلة وقد استشعروا خطر جهنم وعذابها وإن لم يدخلوها، إلا أنهم قد سمعوا ما ذكر الله عز وجل عن عذابها وأهلها وما قاله وفسره رسوله ﷺ حتى كأنهم عاينوها بهذا العلم وكأنهم رأوها رأى العين فقد توجهوا بهذا الدعاء الذى ينم على مدى شعورهم المرهف فقالوا:

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥).

فهو قول كما ذكرنا يناسب أحوالهم، فكلمة «غَرَامًا» لها علاقة بالمحبة والتعلق، وقد ذكر ابن قيم الجوزية مراتب المحبة فقال: أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

عباد الرحمن وجهنم

قال تعالى فى سورة الفرقان عن عباد الرحمن قولهم ودعاؤهم:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

(الفرقان: ٦٥).

وهذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يفعلون الخيرات، طمعاً فى الثواب، وخوفاً من العقاب، وكلمة (غَرَام) يقولها البعض بمعنى الحب والعشق والهيام أما معناها: اللزوم، أى لازم لهم لا ينفك عنهم فى النار أبداً لأن العاقبة إما جنة أبداً، أو نار أبداً.

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أى: لازماً دائماً، ليس مرة واحدة وإنما مستمر، ومنه كلمة الغريم، وهو الذى يلازم المدين ليأخذ منه دينه.

وكلمة ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم، وأن بينها وبينهم لدداً، بدليل أنها ستقول: «هل من مزيد».

ثم تذكر الآيات سبب هذه الآية: «إنها ساءت مستقرّاً ومقاماً».

ساء الشىء أى: قبح، وضده حسن لذلك قال تعالى عن الجنة فى مقابل هذه الآية: «حسنت مستقرّاً ومقاماً».

وهكذا السوء يلازمه القبح، والحسن يلازمه الحسن.

وقال: «مستقرّاً ومقاماً» حيت لا يظنون أن النار فترة وتنتهى، ثم يخرجون منها، فهى مستقرهم الدائم، ومقامهم الذى لا يفارقونه.

أو أن الحق ـ سبحانه وتعالى أراد بهذا نوعين من الناس: مؤمن أسرف فى بعض السيئات ولم يتب، أو لم يتقبل الله منه توبته فهو فى النار لحين، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت أما المقام فهو الطويل.

والثانية: «الإرادة» وهى ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

والثالثة: «الصبابة» وهى انصباب القلب للمحبوب، بحث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء.

الرابعة: «الغرام» وهو الحب اللازم للقلب، يلازمه كملازمة الغريم لغريمه،

ومنه سمى عذاب النار غراماً للزومه أهله، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

الخامسة: «الوداد» وهو صفو المحبة وخالصها.

والسادسة: «الشغف» وهو وصول الحب إلى شغاف القلب فاستولى عليه قال تعالى «قد شغفها حبّاً».

والسابعة: «العشق» وهو الحب المفرط الذى يخاف منه على صاحبه.

والثامنة «التتيم» وهو التعبد والتذلل، وبينه وبين «اليتم» تلاق فى الاشتقاق وتناسب فى المعنى فإن «المتيم» المنفرد بحبه وشجوه، كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه.

والتاسعة: «التعبد» وهو فوق التتيم، فالعبد هو من ملك المحبوب رقه فلم يُبق لله شىء من نفسه البتة، وحقيقة العبودية هو حب تام مع ذل تام.

والعاشرة «مرتبة الخلة» وهى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، وهى المرتبة التى انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة السلام.

قال ﷺ «إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» والخلة منصب لا يقبل القسمة، وهذا هو السر الذى لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، لأنه لما سأل الولد تعلقت به شعبة من قلبه، فأمره الله بذبح ولده، ولما عزم إبراهيم على ذلك، حصل مقصود الأمر، ولم يبق فى إزهاق نفس الولد مصلحة.

والغرام حسب قول ابن القيم يأتى فى المرحلة الرابعة من مراتب المحبة التى هى أشمل وأكبر من الغرام، ولهذا شغلت جهنم وسيطرت على عقول عباد الرحمن حتى إنهم فى كل صلواتهم يدعون ربهم أن يقيهم وينقذهم ويبعدهم عن عذاب جهنم كما علمهم ذلك رسولنا ﷺ.

روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».

وفى رواية عند مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «قولوا: اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات».

قال مسلم بن الحجاج: بلغنى أن طاوساً قال لابنه: أدعوت بها فى صلاتك؟ فقال: لا، قال: «أعد صلاتك»، لأن طاوساً رواه عن ثلاثة، أو أربعة، أو كما قال.

وقد اختلف العلماء فى حكم هذه الاستعاذة فذهب جمهورهم إلى استحبابها، وذهبت طائفة منهم إلى وجوبها قال النووى ـ رحمه الله فى شرح صحيح مسلم:

وإن طاوساً رحمه الله تعالى أمر ابنه حين لم يدع بهذا الدعاء فيها بإعادة الصلاة، هذا كله يدل على تأكيد هذا الدعاء، والتعوذ، والحث الشديد عليه، وظاهر كلام طاوس رحمه الله تعالى أنه حمل الأمر به على الوجوب، فأوجب إعادة الصلاة لفواته.

وجمهور العلماء على أنه مستحب وليس بواجب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله فى «مجموع الفتاوى»:

بل قد ذهب طائفة من السلف، والخلف، إلى أن الدعاء فى آخرها واجب، وأوجبوا الدعاء الذى أمر به النبى ﷺ آخر الصلاة بقوله: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» رواه مسلم، وغيره، وكان طاووس يأمر من لم يدع به أن يعيد الصلاة، وهو قول بعض أصحاب أحمد.

وقال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله «الشرح الممتع»:

وفى التعوذ من هذه الأربع قولان:

القول الأول: أنه واجب، وهو رواية عن الإمام أحمد، لما يلى:

١ ـ لأمر النبى ﷺ بها.

٢ ـ ولشدة خطرها، وعظمها.

والقول الثانى: أنه سنة، وبه قال جمهور العلماء.

ولا شك أنه لا ينبغى الإخلال بها، فإن أخل بها: فهو على خطر من أمرين:

١ ـ الإثم.

٢ ـ ألا تصح صلاته، ولهذا كان بعض السلف يأمر من لم يتعوذ منها بإعادة الصلاة.

والأرجح هو قول الجمهور، ويحمل فعل طاوس رحمه الله ـ إن صح عنه ـ على توكيد هذا الاستحباب، حيث إن أمره بالإعادة كان لابنه فى سياق تعليمه، لا لعامة المصلين، وهو احتمال ذكره أبو العباس القرطبى، وارتضاه جمع من الأئمة، حيث قال:

ويحتمل: أن يكون ذلك إنما أمره بالإعادة تغليظاً عليه، لئلاً يتهاون بتلك الدعوات، فيتركها، فيحرم فائدتها، وثوابها والله أعلم.

لأن الأصل كما قال العلماء فى الأدعية فى الصلاة وغيرها إنما على سبيل الاستحباب وليس على سبيل الوجوب. نخلص من هذا كله أن عباد الرحمن قد أدركوا حقيقة الأمر فتوجهوا إلى ربهم بهذا الدعاء الجميل.

■■■

عباد الرحمن فى عبادتهم لربهم
بين الخوف والرجاء

المسلم والمؤمن الموحد بالله عز وجل يعبد ربه عز وجل يرجو رضاه ويطلب جنته ويخافه ويخشاه ويطلب منه النجاة من عذابه وناره فى الآخرة والدنيا وهذا هو الخوف والرجاء لهذا كان قول عباد الرحمن لربهم:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

(الفرقان: ٦٥).

المؤمن الموحد، حبه لله تعالى مقرون بالإجلال والتعظيم وهو حب المملوك لمالكه، حب العبد لسيده، حب المخلوق المقهور الضعيف لله الواحد القهار.

ولذلك فإن المحبين الصادقين هم فى هذا المقام فى مقام المحبة هم فى مقام موزون بين الرجاء والخوف.

فرجاؤهم معلق برحمة الله تعالى ولا يخافون إلا الله هم أشد الناس خوفا من الله تعالى، وقد جمع الله تعالى أركان هذا المقام الإيمانى الإحسانى الرفيع فى وصفه للملائكة المقربين والأنبياء المرسلين والصالحين العابدين فقال جل جلاله:
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: ٥٧)

لكى يبقى المسلم مطمئناً ومتيقظاً، يحدوه الأمل والرجاء فى رحمة الله ومغفرته فهو يخشى ويخاف من الله سبحانه، وهذا هو المنهج الوسط العدل وتلك هى المنزلة العظيمة لعباد الرحمن.

فالرجاء منزلة عظيمة من منازل العبودية وهى عبادة قلبية تتضمن ذلاً

وخضوعاً، أصلها المعرفة بجود الله وكرمه وعفوه وحلمه، ولازمها الأخذ بأسباب الوصول إلى مرضاته، مع حسن ظن وعمل وتوبة وندم.

والخوف كذلك منزلة عظيمة من منازل العبودية وهو من عبادات القلوب التى لا تكون إلا لله سبحانه، وصرفها لغيره شرك أكبر إذ أنه من تمام الاعتراف بملكه وسلطانه، ونفاذ مشيئته فى خلقه.

من الأسباب الباعثة على الخوف من الله والرجاء له سبحانه وتعالى تدبر كلام الله تعالى وقد بين الله سبحانه هذا المنهج القويم حينما ذكر الترهيب والترغيب فقال ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (سورة الحجر ٤٩-٥٠)

وهذا هو الذى كان عليه النبى ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان من الأسباب الباعثة على الخوف من الله والرجاء عنده سبحانه تحقيق الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، فمن أسمائه سبحانه: الحليم والغفور والغفار والعفو وكذا التواب والكريم ومن أسمائه جل جلاله القوى، المتين، القادر، والمقتدر، والقدير، القاهر، والقهار، وكذا اسمه العزيز والجبار والعليم.

وهذه الأسماء وغيرها تدعو المسلم أن يكون خائفاً عالماً اطلاعه عليه ومراقبته له، راجياً ما عند الله سبحانه إن هو أطاعه وتقرب إليه وإن هو تاب وأناب إليه.

وقد عذب الله سبحانه امرأة حبست هرة- قطة - فلم تطعمها وتجاوز عن امرأة بَغِيٍّ سقت كلباً رحمة به.

ومن الأسباب الباعثة على الخوف من الله والرجاء له سبحانه التفكر فى أمر الذنوب والمعاصى وخاصة الكبائر منها، فمن تاب وأناب فربنا جل جلاله غفور رحيم يحب التوابين ويغفر الذنب العظيم، قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٩٩) وقال ﷺ[1] (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل، ليتوب مسىء

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، وطلوع الشمس من مغربها من آواخر العلامات الكبرى للساعة.
أى أن باب التوبة مفتوح حتى قرب الساعة.

النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)

لكن من أصر على المعاصى وخاصة الكبائر منها فقد توعده الله بالعذاب:

فقال ﷺ فى تارك الصلاة (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)(١) وقال ﷺ فى آكل الربا (لعن الله آكل الربا وموكله)(٢) سواء كان أكل الربا وموكله مسلم أو غيره، وقال ﷺ فى شارب الخمر (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه)(٣) فكلهم عصوا الله فاستحقوا العذاب، وقال ﷺ فى تصديق الكاهن والمنجم: قال (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)(٤).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: من استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزاؤها، وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج فى قلبه من الخوف مالا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

فالخوف والرجاء لعباد الرحمن مثل جناحى الطائر لا يستغنى عنهم وقد قال الله عنهم: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء ٩٠)**

ومن الأسباب الباعثة على الخوف من الله والرجاء له سبحانه التفكر فى الخاتمة والحساب فيما أعد الله سبحانه لأهل طاعته من النعيم المقيم الأبدى وما أعد الله لأهل معصيته إن هو عذبهم من العذاب الذى لا يطيقه بشر.

فقال تبارك وتعالى فى الجنة وأهلها ونعيمها: **﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ**

(١) رواه الترمذى وأحمد النسائى بسند صحيح

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (٣) رواه أبوداود (٤) رواه أحمد فى المسند

الْعَظِيمُ﴾ (سورة الدخان: ٥١-٥٦)

وقال فى النار وأهلها وعذابها: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ⑲ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ⑳ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ㉑ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (سورة الحج: ١٩-٢٢).

فالمسلم الذى يعبد الله من أجل الجنة وخوفا من النار لا يعد هذا نقصا فى دينه فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه فيقول: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥) فالرسول يخاف من عذاب الله وكثيرا ما كان يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار، فالنجاة من النار والفوز بالجنة هو الأمل الأكبر ولمثله يعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

وقديماً استنكر الكافرون أن يكون رسل الله من البشر يأكلون ويشربون ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ (سورة الفرقان: ٧) واستنكروا عليهم أن يكون لهم زوجات وذرية.

فقال لهم الله عز وجل فى القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨) ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم إلا بالرهبنة وتحريم الزواج وقالوا إن السمو فى الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين، وعليه بعد ذلك فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانيّاً محضاً وكذلك العذاب المرصد للأشقياء.

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة، ولما كان مضمونه احترام الحقيقة المجردة، فإنه رفض كل تلك المقدمات والنتائج، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائناً مميزاً يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية

فى شخصيته، بها جميعاً يسمو أو يهبط، وبها جميعاً يثاب أو يعاقب ولهذا قال ﷺ لمن حرم الزواج على نفسه من أصحابه إن من سنته أنه يتزوج النساء وأنه من رغب عن سنتى فليس منى.

وقد ظن البعض أن من التقوى وحب الله ألا تعبده من أجل جنته والخوف من ناره وحقروا عبادة الرغبة والرهبة، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبا لجنته، أو تدع عصيانه خوفا من ناره، حتى نوهم الناس أن الأمل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين.

والنجاة من النار هدف المؤمن لمثله يعمل العاملون، فكيف يجئ أحد من الناس، رجلاً أو امرأة، ليقول: بل هو أمل تافه؟ قال تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّه إِن كدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات: ٥٦-٦١) وقال أيضا: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ١٨-٢٦).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥)

وقال أيضاً: ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠) ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يرفض عبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنة، وأنه حين يعبد الله فإنما يعبد ابتغاء الحب والعشق لله عز وجل.

من العبودية أن تستبشر بفضل الله، وأن تُوجل من عقوبته، وأن تعرف

قدرك وتلزم حدك.

فقد أعطى الله اصفياءه وأنبياءه أجورهن فى الدنيا والأخرة أيضاً فقال تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٧) وقال عن عباده المؤمنين ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٤)

وقال أيضاً: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ (الحديد: ١٩).

وهؤلاء هم خير البشر من الأنبياء والصالحين والشهداء فهل هناك من هم أفضل منهم يأتى من يقول إنهم يعبدونه لا خوفا من نار ولا طمعاً فى جنه؟

ولنتذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى فاطمة بنت قيس وهى من الصحابيات العابدات فى زمانها لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت؟ فالخوف والرجاء هما جناحا المؤمن للوصول إلى مرضاة الله ودخول جنته.

■■■

2

جهنم عند أهل الكتاب

- جهنم فى المسيحية تحيطها الأسرار والغموض.
- الجحيم فى العهد القديم عند اليهود
- جهنم فى العهد الجديد
- الجحيم الأخروى عند اليهود رمزى وعند المسيحيين فى القبر

جهنم فى المسيحية
تحيطها الأسرار والغموض

الجنة والنار فى العقيدة المسيحية يغلب عليها الجانب الروحى فى النعيم والعذاب ويتضح هذا من خلال استقراء نصوص العهد الجديد الذى هو عبارة عن الأناجيل الأربعة المعتمدة.

وجهنم فى الأناجيل تعنى الهاوية التى هى أرض اللعنات والرجس وسكان العذاب الأبدى والخطاة، وتعنى أيضاً القبر الذى هو مكان استراحة الموتى.

ولكى نفهم حقيقة جهنم فى العهد القديم علينا التعرف على مفرداته تلك الكلمة ومرادفتها كما فسرها مفسرو الكتاب المقدس الذى يعنى عند أهل الكتاب العهد القديم والعهد الجديد.

جاء فى قاموس الكتاب المقدس أن كلمة «الهاوية» معناها فى الأصل مكان الأموات وهى ترجمة كلمة «شئول» العبرانية وشئول هذه اسم موضع مجهول آمن الساميون، على مختلف شعوبهم، بوجوده واعتبروه عالماً قائماً بذاته وقد أعطى الكتاب المقدس بعض صفات الهاوية، فهى تحت الأرض.

عد ١٦:٣٠-٣٢ وحز ١٧:٣١ وعا ٢:٩)[١].

ولها أبواب (اش ١٠:٣٨) وهى مظلمة (٢صم٢٢:٦ ومز ٥:٦ و١١:٨٨).

إليها تذهب أرواح جميع الموتى بدون استثناء (تك ٣٥:٣٧ ومز ١٧:٣١ واش ١٠:٣٨)[٢].

---

(١) عد: سفر العدد فى العهد القديم، حز: سفر حزقيال، وعا: سفر عاموس.

(٢) اش: سفر أشياء، ٢صم: سفر صموئيل٢، مز: المزامير، تك: سفر التكوين، عب: سفر العبرانيين فى العهد الجديد، أى: سفر أيوب، أم: سفر الأمثال - انظر جدول الاختصارات المستعملة لأسفار الكتاب المقدس.

فيها يجرى العقاب وفيها يعطى الثواب (اصم ٢٨ : ٨=١٩ وعب ١١ :١٩).

وهى مفتوحة الأبواب مكشوفة أمام الله (أى ٢٦ :٦ وام ١٥ :١٦).

والله يسود عليها (مز ١٣٩ :٨) ويعنى هذا أنهم آمنوا برعاية الله لأرواح الأموات وهم فى الهاوية ومعرفته لمصائرهم وآمنوا أيضاً عليها بالحياة الآخرة (أى ١٩ :٢٥-٢٧ ومز ١٦ : ٨-١٠ و٤٩ : ١٤و١٥ ودا ١٢ : ٢و٣)(١).

وهناك صفات أخرى للهاوية فهى عميقة (تث ٣ :١٢ وام ٩ :١٨) وتبتلع (ام ١ :١٢)، وقاسية (نش ٨ :٦) وعديمة الحكمة والعمل (جا ٩ :١٠).

وقد أعطيت فى العهد الجديد الهاوية معنى جهنم، أى أرض اللعنات والرجاسات، وسكان العذاب الأبدى (مت ١٨ :٨ و٩ ومر ٩ :٤٣) وكان العقاب للخطاة (رؤ ٩ :١ و١١ :٧ و٢٠ :٣) والهاوية كرمز لكل أنواع العقاب، فمثلاً بلدة كفر ناحوم دعا المسيح عليها بأنها ستهبط وتخسر مجدها (مت ١٠ :٢٣ ولو ١٠ :١٥)(٢).

وكلمة هاوية مترجمة من الكلمة العبرانية SHEOL ومن اليونانية HADES (هاديس)، وقد فهم العبرانيون الكلمة تارة كأنها قبر أو موت، ومعنى الكلمتين فى اللغة العبرية واليونانية سواء SHEOL أو HADES ينسبوا إلى القبر أو مقبرة أو دفن، المكان الذى يذهب إليه كل البشر وفى العهد القديم جاء فيه سفر التكوين: كتب موسى عن يعقوب عندما فقد يوسف أنه أبى أن يتعزى وقال إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (تكوين ٣٧ :٣٥)

وأيضاً عن بنيامين «قال لا ينزل ابنى معكم، لأن اخاه قد مات وهو وحده باق، فإن أصابته أذية فى الطريق التى تذهبون فيها تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية» (تكوين ٤٢ :٣٨).

ومن الواضح إن الحزن الذى يمر فيه، قد يأخذ به إلى القبر؛ ولكن هناك عدة

---

(١) دا : سفر دانيال، تث: سفر التثنية، جا : سفر الجامعة، نش: نشيد الإنشاد.

(٢) مت: إنجيل متى، رؤ: سفر الرؤيا.

أمثال عما تعنيه كلمة الهاوية، مثل: «حبال الهاوية أحاطت بى، شرك الموت أصابنى» (٢ صموئيل ٦:٢٢) وتضرع أيوب لله قائلا: «ليتك توارينى فى الهاوية وتخفينى إلى أن ينصرف غضبك وتعين لى أجلا فتذكرنى» (أيوب ١٣:١٤).

وكذلك سليمان قال أيضاً: «لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون. أما الموتى فلا يعلمون شيئا وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نسى، ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم إلى الأبد فى كل ما عمل تحت الشمس.. كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها» (جامعة: ٩:٥-١٠, ٦).

وقال نبى الله داود ﷺ: «لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية، لن تدع تقيك يرى فسادا» (مزامير ١٦:١٠).

وفى أعمال الرسل عن لسان بطرس: «لأن داود يقول فيه كنت أرى الرب أمامى فى كل حين أنه عن يمينى لكى لا أتجزع لذلك سر قلبى وتهلل لسانى حتى جسدى أيضاً سيسكن على رجاء، لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ولا تدع قدومك يرى فسادا، عرفتنى سبل الحياة وستملأنى سرورا مع وجهك.

أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهارا عن رئيس الآباء داود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم، فإذ كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صلبة يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تترك نفسه فى الهاوية ولا رأى جسده فساد» (أعمال ٢:٢٥-٢١).

وفى سفر الرؤيا أيضاً: «سلم البحر الأموات الذين فيه وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله، وطرح الموت والهاوية فى بحيرة النار، هذا هو الموت الثانى» (رؤيا ٢٠:١٣..١٤) وقال يسوع: «لا تتعجبوا من هذا، فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوحنا ٥:٢٨-٢٩).

وقال يوحنا المعمدان عن المسيح «الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ» (لوقا ٣:١٧).

ويسوع قال أيضاً لتلاميذه «إن أعثرتك رجلك فاقطعها، خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم، فى النار التى لا تطفأ.

حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ، وإن عثرتك عينك فاقلعها. خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح فى جهنم الموت، حيث دودهم لا يموت والنار لاتطفأ لأن كل واحد يملح بنار وكل ذبيحة تملح بملح» (مرقس ٩:٤٥-٤٩).

وأيضاً «يرسل الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الاثم، ويطرحونهم فى أتون النار، هاك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣:٤١-٤٢).

جهنم أو بحيرة النار أو أتون النار أو النار التى لا تطفأ، تدل رمزيا إلى ما يسمى فى الكتاب المقدس بالموت الثانى، وهى الدينونة بعدم الوجود الأبدى، إلى هذا أشار يسوع حيث قال: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم» (متى ١٠:٢٨).

وقال بولس أيضاً: «إذ هو عادل عند الله إن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقا، وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته فى نار لهيب، معطيا نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح، الذين سيعاقبون بهلاك ابدى من وجه الرب ومن مجد قوته» (٢ تسالونيكى ١:٦..٩).

تحمل الهلاك الأبدى هو شىء مختلف تماما عن تحمل العقاب الأبدى.

هذا الهلاك هو إذا الموت بلا قيامة بسبب شر الإنسان نفسه وهو مختلف عن الموت الذى قال عنه بولس بسبب آدم من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت

الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجمع» (رومية ٥:١٢).

ويضيف «فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا، بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين» (عبرانيين ١٠:٢٦-٢٧).

وجاء فى سفر الرؤيا: «ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة ودين الأموات مما هو مكتوب فى الأسفار بحسب أعمالهم، وسلم البحر الأموات الذين فيه وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله، وطرح الموت والهاوية فى بحيرة النار.

هذا هو الموت الثانى.

وكل من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة طرح فى بحيرة النار» (رؤيا ٢٠:١٢-١٥).

وجاء أيضاً: «قال الجالس على العرش هاأنا أصنع كل شىء جديدا، وقال لى أكتب فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة، ثم قال لى قد تم أنا هو الألف والياء البداية والنهاية أنا أعطى العطشان من ينبوع ماء الحياة مجانا، من يغلب يرث كل شىء وأكون له إلها وهو يكون لى ابنا، وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذى هو الموت الثانى» (رؤيا ٢١:٥-٨).

وقال بطرس عن هلاك قوم لوط فى سدوم وعمورة: «وإذ رمد مدينتى سدوم وعمورة حكم عليهما بالانقلاب واضعا عبرة للعتيدين أن يفجروا » (٢ بطس ٢:٦) هلكت هاتان المدينتان بالنار، لكن لم تبق مشتعلة إلى الأبد، بل اختفوا إلى الأبد بسبب شر سكانهم، عبرة لما سوف يحصل للأشرار من بعدهم.

وكتب بولس: «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين

مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات» (أفسس ٦:١٢).

بحسب الكتاب المقدس نفهم أن الشيطان وجنوده الذين يطلق عليهم ملائكة ليسوا موجودين فى مكان يسمى بجهنم، هل هم فى السموات وسوف يطردون منها فى يوم الدينونة حسب اعتقادهم.

وفى هذا الأمر قال يوحنا: «وحدثت حرب فى السماء ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته، ولم يقروا فلم يوجد مكانهم بعد ذلك فى السماء فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذى يضل العالم كله طرح إلى الأرض وطرحت معه ملائكته» (رؤيا ١٢:٧-٩).

بين كل الأشياء والأشخاص الذين سوف يطرحوا رمزيا فى جهنم أو بحيرة النار سوف يطرحون هم أيضا، لأن يوحنا قال فى ذلك موضحاً: «إبليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبى الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين» (رؤيا ٣:١٠).

أما كلمة «هنوم» المرادفة لكلمة جهنم والمذكورة فى أسفار العهد القديم وهو اسم الوادى الذى يمر إلى الجنوب والغرب من مدينة القدس: وادى هنوم (يش ١٨:١٥ ونح ١١:٣٠ أو وادى ابن هنوم (يش ١٥:٨و١٨:١٦)، أو وادى بنى هنوم (٢مل ٢٣:١٠) وكان لهذا الوادى أهمية كبيرة[1].

فقد كان الحد الفاصل بين نصيبى كل من يهوذا وبنيامين.

وعلى الحرف الجنوبى المشرف عليه بنى سليمان مرتفعة لكموش إله موآب (امل ١١:٧) وفى الوادى أجاز احاز ومنسى أولادهما بالنار (٢مل ١٦:٣ و٢ أخبار ٢٨:٣ و٣٣:٦)[2].

(٢،١) يش: سفر يشوع، ٢مل: سفر الملوك ٢، ٢ أخبار: سفر أخبار الأيام الثانى، مر: إنجيل مرقس، بط: سفر بطرس، أر: سفر أرميا راجع مصطلحات الكتاب المقدس.

وأبطل يوشيا عبادة مولك حيث كان الرجل يعبر ابنه أو ابنته فى النار فى الوادى حينما نجس الوادى والمرتفعات بعظام الأموات وبكسر التماثيل (٢مل ٢٣:١٠-١٤ و٢ أخبار ٣٤: ٤و٥).

ثم جعل الوادى مزيلة القدس ومكان الضباب بلوعتها وهكذا استمر احتقار المكان حتى سمى اليهود مكان الهلاك على اسمه ومن هنا ولدت كلمة جهنم، أى وادى هنوم (مت ٢٢:٥ و١٠ :٢٨ و١٥:٢٣) حيث البكاء وصرير الأسنان، وحيث النار الأبدية والعقاب الدائم للخطاة (مت ٤٦:٢٥ ومر ٤٣:٩-٤٤ و٢ بط ٤:٢).

ويسمى وادى هنوم اليوم وادى الربابة، ويسمى الجزء الشرقى منه توفة، وقد أطلق عليه أرميا اسم وادى القتل (ار ٣١:٧و٣٢و١٩:٦ و٢ مل ١٠:٢٣).

أما ابن هنوم فهو وادٍ يقع فى الجنوب والغرب من مدينة القدس.. وينحدر من باب الخليل إلى بئر أيوب ويفصل جبل صهيون عن تل أبى ثورن ويلتقى مع وادى قدرون فى جنوب القدس، وبذلك يحيط هو ووادى قدرون بمدينة القدس من الجهات الثلاث الشرق والغرب والجنوب وقد أطلق اليهود عليه (وادى جهنم) لأنه موضع لعذاب المخطئين فى اعتقادهم.

تشير جهنم إذا إلى هلاك بلا رجوع أو بالحرى أبدى، مفهوم النار الأبدية تعطى صورة لهذا الهلاك، لا تمثل عذابا أبدياً بل هلاك أو دمار نهائى محفوظ للأشرار إلى أبد الآبدين.

وفى المفهوم المسيحى لنصوص يوحنا وأنجيله فإن فكرة العذاب الأبدى يناقض صفات الله، لأن يوحنا كتب: «ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (ايوحنا ٨:٤). النار الأبدية هى صورة الهلاك التام، أى الموت بلا احتمال لرجوع الله لا يُسر بموت أحد، حتى ولو كان شريرا، فكيف يمكن أن يكون مسرورا بتعذيبه إلى مدة أبدية؟

وفى سفر حزقيال «قل لهم حى أنا يقول السيد الرب لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة فلماذا

تموتون يابيت إسرائيل» (حزقيال ٣٣:١١).

أما كلمة الجحيم فهى فى قاموس الكتاب المقدس يعنى أيضاً الهاوية مقر الموتى، وهى كما ذكرنا ترجمة للكلمة العبرية شئول واليونانية تقاديس، وقد صور الكتاب كتاب الأسفار المقدسة الجحيم كأنه مكان تحت الأرض وله أبواب وهو مكان مظلم مخيف سكانه يشعرون فيه بالخوف وهم متبلدون، وفى هذا المكان القصاص العصاة والثواب للأطهار ولا يمكن العودة منه إلى الأرض.

ويوجد معنى ثان مأخوذ من اللفظ اليونانى «جيئيه» وهو مأخوذ من الكلمة العبرية جيهنوم أو وادى «هنوم» حيث كان يحرق الأطفال لمولك وهو رمز للخطية والويل حتى صار الاسم إشارة لمكان القصاص، وقد أشار إليه بطرس فى رسالته الثانية بالطرح فى جهنم.

وكلمة هنوم فى قاموس الكتاب المقدس (هنوم من كلمة جهنم):

(وادى ومزبلة القدس، ومن هنا ولدت كلمة جهنم، حيث البكاء وصرير الإنسان، وحيث النار والعقاب الدائم للخطاة).

وجاء فى كتاب (كفارة المسيح) للقس (عوض سمعان):

(كلمة جهنم مشتقة من كلمة «جى هنوم» أو وادى هنوم الذى كانت تحرق فيه الضحايا البشرية كل يوم قربانا للوثن مولك، وكانت من لا تصيبه النار من هذه الضحايا يصبح مسرحا للدود، فاتخذ الوحى اسم «جى هنوم» الذى يعرفه الناس وأطلقه على مكان عذاب الأشرار البدنى الذى لا يعرفونه، وجهنم هى الهاوى» (ص٤٢).

والمسيحيون غير متفقون على كون الهاوية هى جهنم، وهم مختلفون حول مفهوم الهاوية، فهل الهاوية هى جهنم؟ أم هى الموت الثانى؟ أم هى المطهر؟

والسبب فى هذا الخلاف هو الغموض والتناقض فى شرح النصوص التى أشارت إلى الهاوية وجهنم ففى كتاب (مدخل إلى الإيمان المسيحى) يقول (جوزيف راتسنجر):

«ونزل إلى الجحيم.. نصوص صعبة على الفهم، بحيث تدفع إلى تفسيرات متباينة، فإذا محونا كليا ونهائيا، هذا الإثبات، فإننا نكسب ظاهريا، تخلصنا من

مسألة غريبة، يصعب علينا أن ندرجها فى طبقة من طبقات تفكيرنا دون أن نخون مصداقيتنا خيانة عظمى».

وفى كتاب (من حقائق الإيمان الأساسية) للكاتب (ناشد حنا):

«حالة الأرواح بعد مفارقتها الأجساد: أوضح الرب له المجد فى كلامه عن الغنى ولعازر أن أرواح المؤمنين عند رقاد أجسادهم تحملها الملائكة إلى مكان سعيد، فيه تتعزى وتتنعم مع أرواح المؤمنين السابقين، وأن أرواح الأشرار تنزل إلى الهاوية حيث تتعذب فى اللهيب.

وقد أوضح لنا الرب له المجد أن مكان نعيم أرواح الأبرار اسمه الفردوس، أما أرواح الأشرار فإنها تذهب إلى هاوية العذاب التى يطلق عليها بطرس «السجن»، ثم الطرح فى بحيرة النار حيث يعذب الأشرار بأرواحهم وأجسادهم إلى أبد الآبدين.. المقر الدائم للأشرار هو بحيرة النار».

وفى كتاب (كفارة المسيح) يقول القس (عوض سمعان):

«إن الموت الأبدى هو المعبر عنه فى الكتاب المقدس بالموت الثانى، أو العذاب الأبدى، وهو قصاص لا نهاية لمدته، لأن الخطيئة كما مر بنا هى جريمة ضد الله الذى لا نهاية لمجده، ولا حد لسموه، لذلك قال الوحى عن الأشرار أن نصيبهم هو «البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذى هو الموت الثانى» وهذه البحيرة هى جهنم التى لا تطفأ نارها ولا يموت دودها، والنار هنا ليست طبعا نارا مادية لأن المادة هى خصائص الأرض وغيرها من الأجرام.. كما أن الدود الوارد ذكره مع جهنم ليس دودا بالمعنى الحرفى، إذ المراد به وخزات الضمير وتأنيباته اللاذعة».

ويوضح حقيقة جهنم فيقول:

«إن الخطاة مهما قَلَّت خطاياهم قد أساءوا إلى الله، كما أبعدوا أنفسهم عن التوافق معه، ولذلك لا جدال أنهم جميعا سيقضون أبدية بعيداً عنه، والبعد عن الله مهما كان شأنه هو جهنم بعينها، لأنه لا إلا بالوجود فى حضرة الله هناء والتوافق معه، إن الضمير سيكون مصدرا من مصادر العذاب الأبدى».

أى أن عذابهم يكون معنويّاً لا ماديّاً كما فسر ذلك ناشد يوحنا.

وجاء فى كتاب (فرح الإيمان بهجة الحياة) للأب (فرنسوا فاريون اليسوعى).

«إن الانزعاج الذى يشعر به المسيحيون أمام ما يطلق عليه التعليم المسيحى اسم جهنم بلغ فى أيامنا حدا بعيدا، حتى إن الكلام عليه انقطع فى الواقع، أو كاد ينقطع، قد يكون السكوت أفضل من تعليق يخشى أن يغذى وجوها قديمة مستعصية من سوء التفاهم، أن رفض جهنم بلا قيد ولا شرط فى آخر الأمر إن لم نقل إلى رفض الله والإنسان، فعلى الأقل إلى تشويه الله والإنسان والمحبة».

ويتابع قوله:

«فى اللغة المسيحية نتكلم على مثوى الأموات وعلى جهنم، فنقول إن المسيح نزل إلى مثوى الأموات من جهة، وأن الهالك يزل إلى جهنم من جهة أخرى، كل من مثوى الأموات وجهنم هو مملكة الموت.. أرضا تحت أرضنا، مكان ظلام وتراب ووحل ينزل إليه الأموات عراة، ولا يصعد منه أحد، وينضم فيه الإنسان إلى آبائه ويحيا فيه حياة الظل الكئيبة المحدودة، حياة لا يحسد عليها على الإطلاق، بسبب غياب الله».

ثم يجيب الأب (فرنسوا فاريون اليسوعى) عن حقيقة مفهوم جهنم فيقول:

«جهنم الوحشة المطلقة مأساة حياتنا هى أن الإنسان يشعر فى عمق أعماق نفسه، بأنه وحيد لكنه لا يستطيع احتمال هذه الوحشة، كان الموت جهنم فلم يعد جهنم، فإن الحياة أصبحت فى قلب الموت، أصبحت جهنم بعد الآن شيئا آخر إنها موت ثانٍ لا الموت الذى نعرفه».

ثم بعد ذلك يعرض لصور جهنم فى الكتاب المقدس من نار وكبريت ودود.. وكأنها صور صبيانية ويحث المسيحيين على التعامل معها بذكاء وعمق.

ومما جاء فى نصوص العهد الجديد عن الجحيم وجهنم:

«تعالوا يامباركى أبى، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأنى جعت فأطعمتمونى عطشت فسقيتمونى كنت غريبا فآويتمونى، عريانا فسكوتمونى،

مريضاً فزرتمونى، محبوسا فأتيتم إلى، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يارب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريبا فآويناك، أو عريانا فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوسا فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر جعلت، فلم تطعمونى عطشت فلم تسقونى، كنت غريباً فلم تآوونى، عرياناً فلم تكسونى، مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى.

حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يارب، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبى لم تفعلوا، فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى والأبرار إلى حياة أبدية» (إنجيل متى ٢٥:٣٤-٤٦).

«أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (إنجيل متى ١٦:١٨).

«كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه: رقا، يكون مستوجب المجمع، ومن قال: ياأحمق، يكون مستوجب نار جهنم» (إنجيل متى ٥:٢٢).

«إن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى فى جهنم النار ولك عينان» (إنجيل متى ١٨:٩).

«إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم» (إنجيل متى ٥:٢٩).

«إن أعثرتك عينك فاقلعها، خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح فى جهنم النار» (إنجيل مرقس ٩:٣٧).

«إن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أعضاؤك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم» (إنجيل متى ٥:٣٠).

«إن أعثرتك يدك فاقطعها، خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضى إلى جهنم، إلى النار التى لا تطفأ» (إنجيل مرقس ٩:٤٣).

«إن أعثرتك رجلك فاقطعها خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم فى النار التى لا تُطفأ» (إنجيل مرقس ٩:٤٥).

«لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم» (إنجيل متى ١٠:٢٨؛ إنجيل لوقا ١٢:٤, ٥).

«لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر، بل أريكم ممن تخافون: خافوا من الذى بعدما يقتل، له سلطان أن يلقى فى جهنم، نعم، أقول لكم: من هذا خافوا» (إنجيل لوقا ١٢: ٤, ٥).

أما إنجيل يوحنا جاء فيه: «وسيتلقى الأشرار العذابات فى النار والكبريت أمام الملائكة والقديسين وأمام الحمل، ويتصاعد دخان عذاباتهم إلى دهر الدهور لا يعرفون الراحة لا نهاراً ولا ليلاً» وأيضاً: هناك بحيرات من النار يشتعل فيها الكبريت».

وفى القرن الرابع تروى أعمال بيلاطس تفاصيل نزول المسيح إلى الجحيم، مازجة الأساطيرة اليونانية بالعناصر المسيحية، ويمثل الشيطان كسيد للمكان ولكن هاديس «ملك الموت فى العهد القديم» فيطلب الشيطان من هاديس أن يستقبل روح المسيح فيتردد هاديس لقوة روح المسيح ولأن المسيح انتزع من هاديس عدة أنفس وأعادها إلى الحياة وعندما يصل المسيح إلى الجحيم يأمر هاديس بإقفال الأبواب النحاسية فيذهب تعبه باطلاً لأن المسيح يدخل فيخلص الصالحين ويقبض على الشيطان ويسلمه إلى هاديس!!

ويمضى العهد الجديد لينوع من شكل العذابات فى الجحيم - وتتطور هذه الفكرة فيما بعد - حيث العذابات التالية:

١- الذين جدفوا على العدالة يعلقون فى الجحيم بألسنتهم.

٢- الذين ظلموا يغوصون فى بحر الوحول وعلى رؤوسهم الملائكة تعذبهم.

٣- النساء اللاتى تبرجن من أجل الزنا يعلقن بشعورهن فوق الحمأ المسنون المتقد.

٤- الرجال الذين شاركوا فى الزنا معلقين بأقدامهم ورؤوسهم غارقة فى الوحول وهم يصرخون ويقولون: «ما كنا لنعتقد أننا سنأتى إلى هذا الموضع»!

٥- القتلة وشركاؤهم فى مكان ضيق ممتلئ بالأفاعى الشرسة التى تقتص منهم فيتلوون من الألم وتسرح فوقهم ديدان شبيهة بالغيوم السوداء، ونفوس ضحاياهم تنظر إليهم وتسخر منهم وتقول: (ما اعدل حكمك، ياالله).

٦- النساء اللواتى ولدن سفاحاً وقتلن أولادهن يكن فى مكان ضيق يسيل فيه الصديد والنتن من أجساد المعذبين وأجسادهن غارقة فى الصديد والنتن حتى الأعناق وأطفالهن قبالتهن يبكون ونوافير اللهب تضرب النساء فى أعينهن.

٧- يحترق الذين آذوا اليتامى بنار من جليد.

٨- المرابون يلتهمون ألسنة أجسادهم.

٩- وألف نفس معلقة بدولاب من لهب يدور ألف دورة فى النهار ولا تتوقف إلا يوماً واحداً فى الأسبوع!

ونخلص أن الجحيم فى العهد القديم والجديد يعنى

أولاً: الهاوية مقر الموتى، وهى ترجمة للكلمة العبرية شئول والكلمة اليونانية هاديس وقد فهم العبرانيون هذه الكلمة تارة كأنها قبر أو موت، وقد صور كتاب الأسفار الجحيم كأنه مكان تحت الأرض (عد ١٦:٢٠-٣٣ وحز ٣١:١٠٤١-٧١ وعا ٢:٩) وله أبواب (اش ٣٨:١٠) وهو مكان مظلم مخيف سكانه يشعرون ولكنهم فى وجود بليد جامد (٢صم ٢٢:٦ ومز ٦:٥) تذهب إليه نفوس الجميع (تك ٣٧:٣٥) فيه القصاص وفيه الثواب، ولا يمكن العودة منه إلى الأرض (١صم ٢٨:٨-١٩ وتث ٦:١١) وهو مكان عريان أمام الله (أى ٢٦:٦).

ويقول المرنم إن الله هناك (مز ١٣٩:٨) وأن أرواح شعبه وحالتهم فى ذلك المكان كانت تحت عينيه الساهرة.

وهذا التعليم عن معرفة الله لشعبه بعد الموت وحضوره معهم ومحبته الدائمة لهم اشتمل على الغبطة للأبرار والويل للأشرار بعد الموت.

وأصبح لهم مقران: الأبرار يكونون مع الرب، والأشرار يبعدون عن وجهه، وهذا التعليم أيضاً لتعليم أيضاً ١٦ :٨-١١.. إلخ ودا ١٢:٢و٣ ويوجد أساس أيضاً لهذه التعاليم فى انتقال أخنوخ واختطاف إيليا أما المسيح فقد أوضح كل الغموض حول هذه التعاليم لأنه أنار الخلود (٢ تى ١٠:١ ويو ١:١٤-٣ وفيلبى ٢٣:١).

ثانياً: ويوجد معنى ثانٍ مأخوذ من اللفظ اليونانى جيئنه (متى ٢٢:٥ و٢٩ و٣٠ ومرقس ٤٧:٩ ولوقا ٥:١٢ ويعقوب ٦:٣)

وهذا بدوره مأخوذ من الكلمة العبرية جيهنوم أو وادى هنوم حيث كان يحرق الأطفال لمولك.

ومن هذا العمل كان يشارك إليه كرمز للخطية والويل حتى صار الاسم إشارة إلى مكان القصاص الابدى (متى ١٨ : ٨و٩ ومرقس ٩: ٤٣) وأشار إليه بطرس فى رسالته الثانية ٤:٢ بالطرح فى جهنم.

كما أن للكلمة جهنم اسماً آخر عند الرومان والإغريق وهو كلمة ترتاروس مقر الويل وهو أسفل الهاوية.

وأما نصوص العهد الجديد تبعاً لزمن تأليفها، نبدأ برسائل بولس، التى حررت بين سنتى ٥٠و٦٣ الميلاديتين حيث إن الأناجيل الأولى لم تدون إلا ابتداء من سنة ٧٠ ونجد أن كلمة جحيم لم تظهر فى كتابات بولس إلا مرة واحدة وبمعنى «العالم السفلى»: «لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة مما فى السماء وعلى الأرض وتحت الأرض» (رسالة إلى أهل فيليبى ٢، ١٠).

ولمح بولس بعض التلميحات إلى الدينونة الأخيرة ليقول إن كل إنسان سينال ثوابه، ولكنه دون أن يأتى على ذكر مصير الأشرار، ومكان عذابهم فى رسالته إلى الرومانيين (٥:٢-١٢) المحكوم عليهم بالهلاك.

وتكرر هذا الصمت عند بطرس فى رسالته الأولى المؤرخة سنة ٦٤م بإسهاب عن العالم الثانى، ولكنها لا تذكر كلمة واحدة عن الجحيم، والفقرة التى تتحدث فى رسالته الثانية عن الترتار (٤،٢) إنما هى إضافة مزيفة من القرن الثانى، ويلاحظ

التكتم ذاته فى أعمال الرسل المدونة حوالى سنة ٨٠ ميلادية.

والعبارة الوحيدة التى نجدها عند بولس (رومانيين ١٠و٧، وأهل أفسس ٤، ١٠-٨) وعند بطرس (١، ٣، ١٩-٢٠) تتحدث عن نزول مفترض قام به يسوع إلى مملكة الأموات ما بين الجمعة العظيمة وأحد الفصح.

وترد العبارة كل مرة بشكل غامض ولم ترد فيها كلمة جهنم وهى تعنى على الأرجح أن يسوع ذهب يخلص الموتى الصالحين الذين ماتوا قبل مجيئه.

ومع ذلك فإن عبارة «النزول إلى الجحيم» التى أصبحت رسمية فى حين أنها لم تظهر للمرة الأولى إلا سنة ٣٥٩م فى «الصياغة الرابعة لسيرميوم Sirmiuma من تأليف مارك دارتوز، وسيشتمل عليها «رمز الرسل» وهو مختصر الإيمان الذى تكون فى القرن الخامس فى غاليا وإسبانيا وأدخل إلى روما فى القرن العاشر[١].

لكننا نجد أن الأناجيل المعتمدة تتحدث بتفصيل أكثر عن الجحيم بخلاف كتابات بولس وتعاليمه، وهو يثير من جديد المسألة التى تحدث عنها مجدداً بعض شراح مخطوطات البحر الميت، من التضارب بين بولس والمسيح وأن مسيحية بولس غير دين المسيح وأن الأناجيل هى ثمرة تفكير جماعى داخل الجماعات المسيحية الأولى التى تميزت بروح أسينية، وجاء تدوينها بعد كارثة تدمير أورشليم سنة ٧٠م ليعزز الفكر الرؤيوى اليهودى الذى يظهر فى حالات النكسات والهزائم لليهود.

لكن الجحيم الإنجيلى هو دائماً تقريباً جهنم (Gehenne) وهو مكان مادى محسوس لكل الأرض وهو «وادى النحيب» أو (Gi-Hinnom)، المكان الملعون، موضع لإحدى العبادات الكنعانية القديمة، حيث كانت تقدم الذبائح للبعل مع بعض الضحايا البشرية، وقد أصبح هذا المكان، بعد العودة من النفى، محرقة فسيحة تحرق فيه باستمرار جيف الحيوانات والأقذار التى يلتهمها الدود والنيران أى أن جهنم أرضية.

من هنا تعبير إنجيل مرقس: «إذا شككتك عينك فاقلعها، فخير لك أن تدخل

---

(١) انظر تاريخ جهنم - جورج بنوا.

ملكوت الله وأنت أعور من أن تلقى بعينيك الاثنتين فى جهنم، حيث الدود لا يموت والنار لا تطفأ (٩:٤٧-٤٨).

ويصبح الدود والنار بسرعة العنصرين الأساسيين فى الجحيم.

وإنجيل متى هو الأكثر استفاضة فى ذكر العذاب: «هناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (١٢:٨) وهى عبارة تتكرر ست مرات؛ ويتحدث ثلاث مرات عن «الظلمة البرانية» وثلاثاً أخرى عن النار الأبدية.

ويذكر كذلك «أبواب الجحيم» و«جهنم النار» ويذكر لوقا من جهته قصة لعازار والغنى الشرير (١٦:١٩-٣١) وهى عبارة عن حوار تعليمى كما نرى فى الميتولوجيا المصرية: يذهب الغنى الشرير بعد موته إلى مكان العذاب حيث يتألم بسبب اللهيب ويسأل إبراهيمَ نقطة ماء فيرفض أن يعطيها له.

ويضيف لوقا إلى هذه القصة المعدة للترغيب فى اعتناق الدين الجديد، ملاحظات حول عدد الناجين القليل «اجهدوا فى أن تدخلوا من الباب الضيق، لأن الكثيرين سيحاولون الدخول ولن يستطيعوا».

أما كتابات يوحنا، ومنها الرؤيا، المدونة فى حدود سنة ٩٥م فتعتبر خاتمة تاريخية لأعمال العهد الجديد، وتصنف ضمن هذا الأدب الخاص الذى تكثر فيه الرموز والرؤى والأحلام التى تتحدث عن المستقبل البعيد ونهاية الأمان.

«وسيتلقى الأشرار العذابات فى النار والكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الحمل، ويتصاعد دخان عذاباتهم إلى دهر الدهور لا يعرفون الراحة لا نهاراً ولا ليلاً» (١٤:١٠-١١).

ويرى هناك «بحيرات من النار يشتعل فيها الكبريت».

والمقابلة بين الناجين والهالكين هى سمة ثابتة للنموذج الأسينى.

وتعاليم العهد الجديد التى تتحدث عن الجحيم فى مجملها غامضة ومشوشة

فالعهد الجديد يقتبس بعض العناصر من التقليد الرؤيوى ومن الأسينيين ومن جهنم الأرضية ومن الصدمة التى تلت سقوط أورشليم.

والجحيم لا يشغل سوى حيز صغير فى العهد الجديد مع الغموض حتى إنه ليس من إنجيلى يؤكد أن يهوذا الذى خان المسيح أنه من الهالكين، وهو عند البعض قد شنق نفسه وأنه ضحية سقطة بالنسبة إلى الآخرين، ومصيره على أى حال ظل مجهولاً.

فإذا كانت تلك النظرة ليهوذا الخائن للمسيح فما بالك بغيره من العصاة والكافرين، إنه الغموض الذى يحيط بالعقيدة المسيحية والذى يجعلها كثيرة الأسرار لا يعلم تفسيرها إلا رجال الدين المسيحى وهم لا يتفقون على أسس تلك العقيدة.

فالعقيدة المسيحية تؤمن بأن جهنم هى القبر يدخلها الأبرار والأشرار وليست مكاناً للحساب والتعذيب للعصاة والكافرين.

الكلمة «شؤول» فى اللغة العبرية تعنى (جهنم) أو (المكان ذو الغطاء).

(جهنم) هى الصيغة الإنجليزية لـ(شؤول) وفى الكتاب المقدس (المكان المغطى) أو (جهنم) هو القبر، وهنالك عدة نشرات للكتاب المقدس والتى نشرت مؤخرا، يجرى بها استعمال الكلمة (جهنم) على أنها (قبر) وهذا يقوض الإيمان الشائع على أن جهنم هو مكان لتعذيب الأشرار بالنار.

«ليخز الأشرار ليسكتوا فى الهاوية» (شؤول، مزامير ٣١:١٧) وهم لا يصرخون من الألم.

«إنما الله يفدى نفسه من يد الهاوية» (شؤول، مزامير ٤٩:١٥) أى أن نفس أو جسد داوود سوف يقوم من القبر، أو «جهنم».

والقول أن جهنم هو مكان للتعذيب ولا مهرب منه لا تتوافق مع القول بأن الصديق يذهب إلى جهنم «القبر» ويخرج منه ثانية كما فى سفر هوشع ١٣:١٤ يسند ذلك: «من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلصهم «شعب الله» وهذا مقتبس فى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥:٥٥ ويلائم الانبعاث عند عودة المسيح،

وكذلك فى التصور عن الانبعاث الثانى «وسلم الموت والهاوية الأموات الذى فيهما» (رؤيا يوحنا ١٣:٢٠).

وأقوال حنة فى صموئيل الأول ٢:٦ التى تعد قمة الوضوح فى معنى القيامة: «الرب يميت ويحيى» يهبط إلى الهاوية «شؤول» ويصعد»

بما أن «جهنم» هو القبر، فمن المتوقع أن الصديقين ينجون منه بواسطة الانبعاث والحياة الأبدية، والأمر المؤكد هو أن دخول «جهنم» أو القبر ثم الخروج منه بواسطة الانبعاث وذلك حسب عقيدتهم واعتقادهم وفهمهم للأناجيل.

وخير مثال على ذلك هو ما ذكر فى سفر أعمال الرسل عن المسيح: «أنه لم تترك نفسه أو الهاوية ولا رأى جسده فسادا» (أعمال الرسل ٢:٣١) لأنه قد بعث الموازاة بين «نفس» المسيح و«لحمه» أو جسده «لم تترك نفسه فى الهاوية» وهذا من وجهة نظرهم يرمز إلى أنه كان هناك إلى فترة ما، أى مدة ثلاثة أيام كان مدفونا فى القبر.

وكون المسيحى قد قضى بعضاً من الوقت هناك «جهنم» فهذا إثبات على أنه ليس المكان الذى يذهب إليه الأبرار.

وجاء فى أشعيا: «وجعل مع الأشرار قبره» (٥٣:٩) وهناك أمثلة عديدة على ذهاب الصالحين إلى جهنم أى القبر، وأشار يعقوب إلى ذلك «أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية، وبكى» لابنه يوسف (تكوين ٣٧:٣٥).

ونتيجة الخطيئة هو الدمار الكلى، وليس العذاب الأبدى (إنجيل متى ٢١:٤١، ٢٢:٧، إنجيل مرقس ١٢:٩، رسالة يعقوب ٤:١٢)، مثل الناس الذين أبيدوا بالطوفان (إنجيل لوقا ١٧:٢٧:٢٩)، وكما مات الإسرائيليون فى برية (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٠:١٠).

فى هذين المثالين قد أميت الخاطؤون ولم يعذبوا إلى الأبد، وهذا يعنى أن الأشرار لم يعاقبوا بالعذاب الأبدى.

فى رسالة بولس: «فالله لا يحاسب من جهل كلامه كما يحاسب الخاطئين»

(الرسالة إلى أهل رومية ٥:١٣) إنما يتركهم أمواتا، وأما الذين عملوا بكلام الرب فإنهم يبعثون عند عودة المسيح، وعقاب الأشرار هو الموت، وهو الحكم على الخاطئين، وهذا يعنى أنهم يبعثون أحياء ليحاكموا أمام المسيح الجالس على كرسى الدين، وبعدها يعاقبون بالموت الأبدى، وهذا يكون «الموت الثانى» والأبدى الذى ذكر فى رؤيا يوحنا ١١:٢، ٦:٢٠).

وهؤلاء عقابهم أبدى بالموت الأبدى وبلا نهاية: هنالك مثال على ذلك فى «فى العهد القديم» (التثنية ٤:١١) حيث يصف إبادة جيش فرعون فى البحر الأحمر حين أمر الرب بإبادة أبدية لكى لا يتعرضوا لشعب الرب ثانية.

كان هذا واضح عند المؤمنين الأوائل بالعهد القديم، بأن القيامة هى تأتى فى يوم الآخرة، وحينها يرجع الخاطؤون إلى القبر ثانية، كما فى سفر أيوب ٣٢, ٣٠, ٢١ «أنه ليوم البوار يمسك الشرير ليوم السخط.. هو إلى القبور يقاد».

وعن عودة المسيح والحساب للخاطئين أمامه جاء إنجيل لوقا ١٩:٢٧ أنه ليس منطقياً أن يعذب الناس إلى الأبد لأنهم أخطأوا مدة سبعين سنة، والرب لا يهنأ بعذاب الخاطئين لذلك فهو لن يعاقبهم بعذاب أبدى «حزقيال ٣٢, ٢٣, ١٨:٢٣, ١١:٣٣، رسالة بطرس الثانية ٣:٩).

رغم أن الكتاب المقدس يكرر استعمال النار الأبدية، لكى يصف غضب الرب من الأشرار، والذى ينتهى، بفناء كلى للخاطئ فى القبر، ولقد عوقبت سدوم بـ«النار الأبدية» (يهوذا: ٧).

لقد أبيدت بسبب شرور سكانها وأصبحت خرابا وأطلالها فى قعر البحر الميت، ولا يمكن أن تشتعل نار فيها الآن.

كذلك أورشليم، توعدها الرب بالنار الأبدية ونار الغضب الربانى وذلك لما ارتكبه شعب الله من أخطاء: «فإنى أشعل نارا فى أبوابها فتأكل قصور أورشليم ولا تنطفئ» (أرميا ١٧:٢٧).

وبما أن أورشليم هى عاصمة المملكة القادمة (شعياء ٤-٢:٢، مزامير ٢:٤٨) لم يقصد الرب أن نقرأ ونفهم ذلك بظاهر المعانى، أن البيوت الكبيرة فى أورشليم قد احترقت (الملوك الثانى ٢٥:٩)، ولكن النار لم تستمر إلى الأبد.

ثم عاقب الرب أرض آدوم بالنار التى «ليلا ونهارا لا تتطفئ: إلى الأبد يصعد دخانها من دور إلى دور نخرب.. والكركى والغراب يسكنان فيها.. ويطلع فى قصورها الشوك» (اشعياء ١٥-٣٤:٩) نلاحظ أن الحيوانات والنباتات كان لابد أن تتواجد فى خرائب آدوم، لذلك فإن النار الأبدية تعنى غضب الرب والقضاء النهائى على المكان وهذا هو مفهوم خاطئ يذكره أهل المسيحية ومن قبلهم اليهود.

■■■

الجحيم فى العهد القديم عند اليهود

العهد القديم هو الكتاب المقدس عند اليهود وهو يشمل أسفار التوراة وغيرها حيث يبدأ العهد القديم بسفر التكوين حتى سفر ملاخى ويتألف العهد القديم من ٣٩ سفراً عند بعض الطوائف اليهودية والمسيحية حيث أن الكنيسة الكاثوليكية تزيد على تلك الأسفار الـ٣٩ أسفارا أخرى هى: طوبيا، ويهوديت والحكمة ويشوع بن سيراخ وباروك والمكابين الأول والثانى.

أما الجزء الثانى من الكتاب المقدس فهو العهد الجديد الذى لا يعترف به اليهود وهو يتألف من سبعة وعشرين سفراً هم: إنجيل متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وأعمال الرسل، ورومية، وينتهى إلى سفر رؤيا يوحنا.

وقد أوضحت نصوص العهد القديم أن النفوس تذهب إلى العدم وقالوا أنها تذهب إلى «الشيول»(١) وهو مكان فى أسافل الأرض والفرق بينه وبين العدم بسيط.

وجاء فى التلمود وهو الكتاب المقدس الثانى عند اليهود أن الجحيم مؤلفة من سبعة منازل بعضها فوق بعض، فى كل منزل تزاد حرارتها ستة أضعاف عن المنزلة التى فوقها وأن هناك أهوالا فيها وقاعات مظلمة تعج فيها العقارب وأخرى يضطر فيها أصحاب النار لأكل بعضهم وأعضائهم.

وجاء فى المزمور ٦٣:فى هذا المكان المقفل بباب متين ترقد النفوس فى الغبار فاقدة الحركة والإحساس والوعى، ولا أمل لها بالقيامة، وهكذا فليس المرتجى ساراً بالنسبة للأحياء فكلهم يلاقى نفس المصير وهذا ما استنتجه «سفر الجامعة» محرراً من الوهم.

ونشأت فكرة الجحيم بوضوح فى عهد متأخر جداً فى سفر «إشيعا» حيث يقول

(١) الكلمة شؤول أو الشيول فى اللغة العبرية تعنى جهنم أو المكان ذو الغطاء أى القبر، وتعنى أيضاً مقر النفوس بعد موتها فى الدنيا.

(لأنه هو ذا «يهوه» الرب يأتى ومعه النار، وعجلاته كالزوبعة، ليصب غضباً متأججاً ووعيده لهيب النار، لأن الرب يدين الناس جميعاً بالنار» أشعيا (٦٦:١٥-١٦).

وأيضاً فى سفر أشعيا ٢٤ «وبخروجهم يرون جثث الذين تمردوا على لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ، ويكونون حثالة لكل بشرى».

وتطورت فكرة الجحيم فى عصر الأنبياء بكل وضوح فى فكرة المسؤولية الشخصية حيث كل إنسان مسئول عن خطاياه، ونتيجة للاحتكاك بالزاردشتية واحتلال «بختنصر» للهيكل تمازجت عقائدهم الأخروية وتصورات الجحيم بالتوراتيين.

وقد شارك التوراتيون فى تصورات الشعوب والأديان فى الإسكندرية حيث مثل هناك التيار الأبيقورى اليونانى الذى يقول: «لم أكن موجوداً، ثم ولدت، ثم عشت، ثم لم أعد موجوداً: هذا كل شىء، وإذا ادعى أحد عكس ذلك فهو كذاب».

وظلت أسفار التوراة مترددة فى تلك العصور فى إثبات الجحيم تارة ونفيها تارة والقول بالعدم بعد الموت، حيث يؤكد سفر ابن سيراخ فى القرن الثانى أن العقاب الوحيد للشرير يكون فى هذه الحياة بتطبيق العدالة فقط ليس هناك شىء نخافه بعد الموت!

لكن الأحداث السياسية التى حدثت للإسرائيليين حينما اضطهدهم الملك أنطيوخوس الرابع وحضره للعبادة اليهودية ونشر العرق الهيلانى فى فلسطين بالقوة جعل اليهود يدخلون فكرة جهنم والجحيم إلى كتبهم المقدسة وكانت شديدة الوحشية والعنف والديمومة، وظهر ذلك لأول مرة فى أدب «الوحى» أو الرؤيا فى (سفر دانيال) الذى حرر سنة ١٦٠ قبل الميلاد حيث يقول: «ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان، وفى ذلك الزمان ينجو شعبك، وكل من يوجد مدونا فى الكتاب، وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يوقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرعب الأبدى. (١-٢).

وقد ظل العقاب الإلهى الأخروى غائباً عن العهد القديم فى القرن الثالث قبل الميلاد كما ذكرنا فى سفر أشعيا رغم ذكره فى الديانات الأخرى فى ذلك الزمن

عند الشعوب غير اليهودية، ولهذا ذكر المؤرخون والمفسرون للكتاب المقدس أن سبب ظهور العقاب الأخروى فى العهد القديم هو تأثرها بالحضارات الأخرى ودياناتها.

ولكنه فى النهاية وحتى بعد القرن الثالث قبل الميلاد لا يتعدى كونه عذاباً مؤقتاً هدفه التطهير وليس الخلود فى العذاب أو الجحيم، وقد سجل القرآن الكريم هذا الفكر اليهودى فى قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (سورة البقرة ٨٠-٨١)

وقد أكدت نصوص العهد القديم هذا الفكر اليهودى عن الآخرة وعذاب النار.

واستناداً إلى أقدم أسفار التوراة يبدو كل شىء وكأنه ينتهى عند الموت، لأنه إذا كانت النفوس المفترض أن تذهب إلى الشيول وهو، كما جاء فى المزمور ٦٣، مكان موجود «فى أسافل الأرض» والفرق بينه وبين العدم بسيط.

وفى هذا المكان المقفل بباب متين ترقد النفوس فى الغبار، فاقدة الحركة والإحساس والوعى، ولا أمل لها بالقيامة، وهكذا فليس المرتجى ساراً بالنسبة إلى الأحياء: أخياراً وأشراراً لأنهم يلاقون مصيراً واحداً، وهذا ما يستنتجه سفر الجامعة محرراً من الوهم:

«وبعد.. يلاقون مصير الموتى فى الواقع، من يكون له الأفضلية؟ شىء واحد أكيد بالنسبة إلى جميع الناس:

وهو أن كلباً حيّاً أفضل من أسد ميت، لأن الأحياء يعرفون أنهم سيموتون.

ولكن الأموات لا يعرفون شيئاً على الإطلاق فلا أمل لهم بالثواب، لأن ذكراهم قد باتت فى طى النسيان، وحبهم وبغضهم وحسدهم قد تلاشت جميعاً.

ولن يكون لهم نصيب فى كل ما يجرى تحت الشمس (٩:٣-٦)

فعلى الأرض يعاقب الله الأشرار، أولاً بطريقة جماعية سامحاً بالاحتلال

الأجنبى والسبى والطاعون والمجاعة ومهاجمة الحيوانات المفترسة، وتحول العقاب، انطلاقاً من عصر الأنبياء، فى القرن الثامن ق.م، فردياً وظل أرضياً بحتاً.

لكن العدالة ظلت، فى الواقع متأصلة، وأصيب الأشرار بمصائب مختلفة، عملاً بشريعة «العين بالعين والسن بالسن». والخطايا المعاقب عليهما هى دينية طقسية واجتماعية، مثل: عبادة الأصنام، انتهاك المقدسات أو نصوص الشريعة الموسوية.

وجاء ذكر الجحيم فى سفر أشعيا وهو متأخر زمنياً كما ذكرنا فى تلك الفقرة لأنه هو ذا الرب يأتى ومعه النار، وعجلاته كالزوبعة، ليصب غضباً متأججاً ووعيده لهيب النار، لأن يهوه يدين الناس جميعاً بالنار (٦٦:١٥-١٦ سفر أشعيا).

وبخروجهم يرون جثث الناس الذين تمردوا على لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ، ويكونون حثالة لكل بشرى (٦٦، ٢٤) سفر أشعيا.

ويعتبر التفسير المعاصر أن لهذه العبارات معنى مادياً بحتاً ودنيوياً، إن جثث أعداء إسرائيل ستتهرا، وتأكلها الديدان، وهذه استعارة تعنى الفساد، أو ستلتهمها النيران فى وادى هنوم، خارج أورشليم.

والنار هى مادية رمزية معاً تعنى الغضب الإلهى الذى يهلك الكافرين.

ويسأل المزمور ٨٩ قائلاً: «إلى متى يايهوه سيتقد غضبك كالنار؟» وقد ذكرت كأداة تطهير فى الكتاب المقدس ٢٧١ مرة.

والفكرة التى تطورت فى عصر الأنبياء، بكل وضوح، هى فكرة المسئولية الشخصية حيث يقول حزقيال فى الفصل الثامن عشر: «إن الذى يخطئ هو الذى يموت، لا يتحمل الابن خطأ الأب ولا الأب خطأ الابن».

ثم فى سفر أيوب (نهاية القرن الخامس) قضية البار الذى تصيبه البلايا والشرير الذى ينعم بالنجاح وعند الموت يكون مصيرهما واحداً «يتمددان معاً على الغبار وتغطيهما الديدان».

وفى القرن التالى يتحدث النبى يوئيل عن إمكانية دينونة فى نهاية العالم، تسبق فصل الأخيار عن الأشرار فى سياق انقلابات كونية تستبق طريقة أسفار

الرؤيا. ولكنها ليست سوى رؤيا غامضة.

ثم تأتى مرحلة احتكاك اليهود بالعالم الهلنيستى ابتداءً من الفتح الإسكندرى سنة ٣٣١ ق.م، والاندماج فى عالم البطالسة والسلوقيين ويلاحظ كثرة الافتراضات فى جو من الرهبة الدينية والبحث عن الخلاص الذى يميز الشرق فى ذاك العصر، وكانت الديانات ذات الأسرار مثل عبادة سيبيل أو الأورفية التى انتشرت عند اليونانيين فى القرن ٨ ق.م واعدة بالسعادة الأبدية لاتباعها ومنذرة بالخوف من دينونة محتملة للآخرين.

وهكذا تردد اليهود فى قبول فكرة جهنم والعذاب الأخروى فى القرن الثالث قبل الميلاد.

وكان سفر الجامعة المتأثر شديد التأثر بالفلسفة اليونانية قد عبر عنت تشاؤمه بقوله: «كل يصاب بكل، وحادث واحد للصديق والمنافق، للصالح والطاهر وللنجس، للذابح ولغير الذابح، للصالح مثل الخاطئ، والذى يحلف كالذى يتقى الحلف».

ويؤكد سفر ابن سيراخ فى القرن الثانى أن العقاب الوحيد للشرير يكون فى هذه الحياة بتطبيق العدالة الثابتة. فليس من شىء نخافه بعد الموت: «سواء أعشت عشر سنوات أو مئة سنة أو ألف سنة فى الجحيم فليس فى الجحيم حساب على العمر» (٤١:٣-٤).

غير أن الأحداث السياسية تأتى لتحرك الفكرة وتثير الشكوك حول المفهوم التقليدى، مع اضطهاد الملك السلوقى أنطيوخوس الرابع (١٦٤-١٧٥) الذى يحظر الديانة اليهودية ويحاول هلينة (جعلها هلينية) فلسطين بالقوة.

ثم جاءت ثورة يهودية عائلة المكابيين تخوض معارك ضارية ولكنها لا تحقق نجاحاً فى إنقاذ الشعب اليهودى حتى قالوا إن هذه المحن الأرضية التى تميزت بانتصار أعداء الشعب الإسرائيلى دليلاً على أن الله يؤجل زمن الثواب إلى نهاية العالم.

إنها فكرة التى نشأت فى الأدب المسمى أدب الرؤيا من لفظة تعنى «الوحى» وتوضع هذه الإيحاءات، شكليّاً، على لسان شخص من الماضى يعلن أحداثاً

تاريخية، سبق أن حدثت وتستخدم شهادة لحقيقة أقواله، ورسالة سرية، بلغة رمزية، حول عواقب الإنسان الأخيرة، معتمدة على التقلبات الكونية التى هى صور ذات معنى خفى.

واستمر زمن الكوارث والاضطهادات حتى القرن الثانى بعد الميلاد وتحتاج قراءته رموزاً لبيان مقصده مما جعل تفسيره حرفيّاً مستحيلاً والقول عند البعض أن ما جاء فيه هو تصوير لأحوال أهل النار.

فضمن هذا السياق يقع سفر دانيال الذى حرر سنة ١٦٠ ق.م والذى يتحدث للمرة الأولى، وبوضوح عن جهنم أبدية: «ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان، وفى ذلك الزمان ينجو شعبك، وكل من يوجد مدوناً فى الكتاب، وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرعب الأبدى» (سفر دانيال ١٢:١-٢).

غير أن هذا النص لا يعنى العذاب الأبدى فى النار وفى سفر المكابيين الثانى، نجد أن العقاب الوحيد الذى أعلن لأنطيوخوس الرابع هو أرضى: حادثة، موت مرير، انحطاط تعيس.

ونجد فى السِّفْر الأخير من العهد القديم أى سفر الحكمة المدون فى حدود السنة ٥٠ ق.م أنه لا يزال للقائمة الطويلة من العذابات التى تصيب الأشرار معنى أرضى.

فى عصر المسيح استناداً إلى ما يقول المؤرخ فلافيوس ثلاثة آراء مختلفة عند اليهود: فالصدوقيون الذين ينتمون إلى الأوساط الأرسقراطية والكهنوتية يرون أن الموت الفردى شامل ولا وجود لجهنم.

ويعتقد الفريسيون الذين يشكلون وسطاً تقيّاً متعبداً متفرعاً من الطبقات الوسطى أن هناك بكل تأكيد، دينونة وعقاباً فى العالم الآخر، وذلك فى شكل عذابات.

أما الأسينيون الذين ظهروا فى القرن الثانى ق.م وكانوا يشكلون جماعة متفرقة وخاصة فى الصحراء بالقرب من البحر الميت، فهم أكثرهم منهجية.

قال المؤرخ يوسيفوس: «يؤمن هؤلاء الأسينيون أنفسهم أن الأنفس خلقت

خالدة لكى تسعى إلى الفضيلة وتبتعد عن الرذيلة، وأن الصالحين حسنت حالهم فى هذه الحياة، لأملهم فى أن يكونوا سعداء، بعد الموت وأن الأشرار الذين يتصورون أن باستطاعتهم إخفاء سيئاتهم فى هذا العالم سيكون عقابهم عليها فى العالم الآخر عذاباً أبدياً.

وهذا ما نشأ عليه يوحنا المعمدان ويسوع المسيح فى هذه الجماعات كما أن بعض المقاطع من مخطوطات البحر الميت التى كشف محتواها فى القرن الماضى تحمل على التفكير بهذا الأمر.

فى سفر أخنوخ الذى يعود تاريخه إلى القرن الأول ق.م نرى آخنوخ يحمله الملائكة إلى العالم الآخر مجتازاً نهر النار وجبل الظلمات، فيصل إلى مدخل الجحيم الذى هو هاوية قائمة إلى الغرب بالقرب من أعمدة نيران السماء وفى الداخل وفى واد ضيق صنفان من الموتى ينتظرون العذاب: الخطأة الذين عاشوا تعساء يلاقون عذابات مخففة والخطأة الذين عاشوا سعداء تكون عذاباتهم أبدية.

وثمة سفران آخران يعود تاريخهما إلى منتصف وإلى نهاية القرن الأول ق.م. يركزان على الفكرة ذاتها وهما: مزامير سليمان وخاصة رؤيا باروخ، النص الربانى الذى ينذر نهاية العالم، الذى سيعاين دينونة الأشرار فى النار: «كل هذا الجمع سيبوء بالهلاك، والذين ستفترسهم النار لا عد لهم».

ويحاول السفر التوفيق بين المسؤولية الجماعية الناشئة عن الخطيئة الأصلية والمسؤولية الفردية: «لأنه إذا كان صحيحاً أن آدم الأول أخطأ وجلب الموت إلى كل الذين لم يكونوا قد ولدوا فى أيامه، غير أنه من الصحيح أيضاً أن كل واحد من الذين ولدوا منه أعد لنفسه عذاباً آتياً أو أنه اختار الأمجاد الآتية.. لأن آدم لم يكن مسؤولاً إلا عن نفسه، وكل منا آدم نفسه».

وفى السبيعينيات بعد المسيح ينذر السفر الرابع لحسدراس (Esdras) بأن الذين يعصون الشريعة سيلقون سبعة أنواع مختلفة من العذابات والكوارث التى نزلت باليهود ما بين سنة ٧٠ وسنة ١٣٥ والتى قضت على كل أمل بالتحرر الأرضى، أسهمت فى الترويج للإيمان فى عدالة آتية.

وكان الشعور السائد انطلاقاً من القرن الثانى أنه عند الموت تذهب النفس لتستقر فى الجحيم «شيول» فى منازل منفصلة للصالحين وللأشرار بانتظام الدينونة الأخيرة. عندئذ يذهب الأولون إلى جنة عدن والآخرون إلى جهنم، وهى مكان قائم فى الغرب.

وقد جاء فى التلمود أن الجحيم مؤلف من سبعة منازل بعضها فوق بعض، تسيطر فى جميعها نار قوتها فى كل منزلة تزداد ستة أضعاف عن المنزلة التى فوقها: وعلاوة على النار هناك أهوال مختلفة: قاعات مظلمة تعج فيها العقارب وأخرى يضطر فيها المعذب إلى التهام أعضائه.

وهذه العذابات بشكل عام، وقتية وغايتها التطهير من الآثام: إذ تستطيع النفس، بعد انقضاء فترة العذاب أن تنتقل إلى جنة عدن، باستثناء الخطأة الغلاظ الأكباد ومن بينهم المسيحيون، الذين تتباين بشأنهم آراء المدارس الربانية: فمدرسة شاماى هى كثيرة التشدد وتؤمن «بالرعب الأبدى» بالعذابات التى لا تنتهى، فى حين أن مدرسة هليل (Hillel) تعتقد أن الصفح العام يمنح بعد العذابات التى تدوم حتى الدينونة الأخيرة، ويعتقد البعض أن المسيحيين هم هالكون(1).

ويستمر هذا التردد طويلاً فى الفكر اليهودى الذى يعطى الحياة الأخرى من الأهمية دون ما يعطيها الفكر المسيحى، ويكتفى فلاسفة القرون الوسطى، مثل ابن ميمون، بالتأكيد على فناء الأشرار.

ونخلص من هذا أن العذاب الأخروى أو العذاب فى جهنم فى الفكر اليهودى والعقيدة اليهودية المحرفة ليس عذاباً أبدياً لليهود ولا خلود فيه وإنما هو فترة مؤقتة تسبق دخولهم الجنة بزعمهم، وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذا الفكر الباطل كما ذكرنا فى القرآن الكريم: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠)**

(١) «شماى» shammay عالم يهودى فريسى عاش فى أورشليم (٥٠ ق.م، ٣٠ ب.م.) أسس مدرسة (بيت شماى) عرفت بالتشدد فى تفسير الشريعة عكس مدرسة هليل وهو (عالم يهودى فريسى ولد فى بابل).

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
(سورة البقرة: ٨٠-٨١)

وقد تأثرت العقيدة المسيحية أيضاً بهذا الفكر كما ذكرنا حيث إنه لا يشغل فى العهد الجديد إلا شكلاً ظاهريّاً ومكاناً ثانويّاً وأن كلمة الجحيم لم تذكر مثلاً فى رسائل بولس إلا مرة واحدة بمعنى العالم السفلى.

■■■

النار والإنسان

3

- النار فى حياة الإنسان الدنيوية.
- النار عند أهل الكتاب فى العهد القديم والجديد.
- النار عند العرب القدماء قبل الإسلام.
- ذكر النار فى الإسلام
- ذكر أسماء النار فى القرآن الكريم.
- ذكر أصحاب النار فى القرآن.

النار فى حياة الإنسان الدنيوية

اكتشف الإنسان النار واستخدمها منذ أن أهبط الله تعالى آدم على الأرض فهى موجودة منذ الأزل وهى إحدى العناصر الأربعة لمكونات الحياة الأرضية الماء والهواء والتراب والنار.

ويرجع العلماء لاكتشاف الإنسان للنار للعصر الحجرى ولعل المقصود استطاعة الإنسان استخراج النار واستعمالاتها والسيطرة عليها، فهى مادة حياة وإحراق وهلاك أيضاً.

فقد رأى الإنسان الأول النار آتية فى الصواعق التى تحرق الأشجار فخاف منها ثم سيطر عليها ثم عبدها لاتقاء شرها كما فعل المجوس وغيرهم.

والنار هى الطاقة الحرارية والضوئية التى تطلق أثناء التفاعل الكيميائى (الاحتراق بالخصوص) وبالاعتماد على المادة المشتعلة والملوثات الخارجية، فإن لون اللهب وقوته قد تتغير.

يمكن للنار فى معظم صورها أن تكون سبباً للحريق، كما أن لديها القدرة على إحداث الضرر الفيزيائى من خلال الإحراق.

استخدم الإنسان النار من قديم العصور للتدفئة والإضاءة والطبخ ومعالجة الأمراض وغيرها، واستخدمت فى التعدين فى صهر المعادن والحدادة ونحوها.

ويعتقد علماء الآثار أن الإنسان قد استخدم النار قبل مليون سنة.

فى الوقت الحاضر تتعدد الاستخدامات فى المركبات ووسائل النقل ومحطات الطاقة والأسلحة كالنابالم التى استخدمته أمريكا فى حرب فيتنام، والاستخدامات الشخصية لعود الثقاب والقداحة (الولاعة) وفى المخيمات وجلسات الأصدقاء.

العلاقة بين النار والدين علاقة وثيقة فقد صنف أرسطو النار واحدة من

العناصر الأربعة العناصر الطبيعية، وهى الماء والهواء والتراب والنار.

وتعتبر واحدة من العناصر الصينية الخمسة

وفى الهندوسية، النار عنصر من العناصر المقدسة

واتخذت الزرادشتية النار إلها وكان لهم معبد النار ويوجد ارتباط بين عبادة النار وعبادة الشمس

وفى اليهودية لها رمز خاص فى شموع الأعياد، وفى المسيحية النار رمز لروح القدس وفى وصف جهنم.

وفى الإسلام ورد فى القرآن وعيد الله بنار جهنم، ووردت آيات فى قصة النار التى ألقى فيها النبى إبراهيم عليه السلام فجعلها الله تعالى بردا عليه وسلاما، ووردت آيات فى قصة النبى موسى عليه السلام فى الوادى المقدس، وورد ذكر نار الدنيا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة الواقعة ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ **(سورة الواقعة: ٧١-٧٤).**

ويعتبر الاحتراق أحد مصادر الطاقة سواء كان بالاستفادة من الحرارة أو التمدد المفاجئ لمحروقات حيث تعتبر من أهم مصادر الطاقة على مدى العصور، ومن مقومات الحياة وإهلاكها أيضاً.

وعبادة الله معتقد قديم يقوم على زعم أن النار مقدسة.

وقد عبد بعض الناس النار منذ أزمان سحيقة لما لها من خاصيات التدمير والتطهير، ولأنها تعطى الدفء والضوء.

ويعتقد بعض الناس أن هناك آلهة أو أرواحاً تسكن النار، ويتخذ أتباع الطائفة البارسية الهندية وكذلك أتباع الديانة الزرادشتية من النار رمزاً مقدساً لهم.

أما قدماء الإغريق والرومان، فقد اعتبروا النار واحدة من العناصر الرئيسية التى تؤلف العالم.

وبعض الهنود الأمريكيين كانوا يشعلون النيران عندما تبدأ السنة الجديدة.

أما اليوم، فنجد كثيراً من الناس يشعلون النيران فى الهواء الطلق فى مناسبات عديدة، وربما انحدرت هذه العادة من التقاليد القديمة الخاصة بعبادة النار، وحين ينتشر الجهل بين الناس تعود العادات والعبادات الشيطانية القديمة للحياة ولو على شكل احتفالات لا يظن فاعلها أنه يفعل شيئاً مخالفاً للشرع حيث يتشبه بالوثنيين وعبدة النار، وهذه من تلبيس إبليس.

وقد ذكر ابن الجوزى ذلك فقال: قد لبَّس إبليس على جماعة فحسن لهم عبادة النار وقالوا هى الجوهر الذى لا يستغنى العالم عنه ومن ههنا زين عبادة الشمس.

وذكر أبوجعفر بن جرير الطبرى: أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن أتاه إبليس فقال له: إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها.

قال الجاحظ: وجاء زرادشت من بلخ وهو صاحب المجوس فادعى أن الوحى ينزل إليه على جبل سيلان فدعى أهل تلك النواحى الباردة الذين لا يعرفون إلا البرد وجعل الوعيد بتضاعف البرد وأقر بأنه لم يبعث إلا إلى الجبال فقط وشرع لأصحابه التوضؤ بالأبوال وغشيان الأمهات وتعظيم النيران مع أمور سمجة قال ومن قول زرادشت كان الله وحده فلما طالت وحدته فكر فتولد من فكرته إبليس فلما مثل بين يديه وأراد قتله امتنع منه فلما رأى امتناعه وتركه إلى مدة.

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله(١): وقد بنى عابدو النار لها بيوتاً كثيرة فأول من رسم لها بيتا أفريدون فاتخذ لها بيتا بطرطوس وآخر ببخارى واتخذ لها بهمن بيتا بسجستان واتخذ لها أبوقباذ بيتا بناحية بخارى وبنيت بعد ذلك بيوت كثيرة لها وقد كان زرادشت وضع نارا زعم أنها جاءت من السماء فأكلت قربانهم وذلك أنه بنى بيتا وجعل فى وسطه مرآة ولف القربان فى حطب وطرح عليه الكبريت فلما استوت الشمس فى كبد السماء قابلت كوة قد جعلها فى ذلك البيت فدخل شعاع الشمس

(١) كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزى.

فوقع على المرآة فانعكس على الحطب فوقعت فيه النار فقال لا تطفؤا هذه النار.

وعندما يؤرخ العلماء لمسيرة الإنسان فى رحلة تطوره فإنهم عادة يلاحظون أهمية اكتشاف النار وتأثيرها على هذه المسيرة، فلطالما راقب الإنسان البدائى النار من حوله عندما تنشب بفعل الحرارة العالية أو البرق، مثلما لازالت تفعل اليوم، ولا شك أن النيران قد طالت هذا الإنسان مراراً بفعل الحوادث حتى أصبح يتفادها غريزيّاً وصار يتفادى مسها حتى قبل أن يعى عقله ذلك، ولكن يوماً ما، لاحظ إنسان ما ولأول مرة أن النار يمكن السيطرة عليها.

بل اضطر البعض أيضاً كما ذكرنا إلى عبادتها لتجنب شرها، واستطاع الإنسان الاستفادة من النار بما هداه الله من التفكير والعقل وهو المخلوق الوحيد الذى فكر فى المسألة جديّاً، سبب تفكيره هذا يعود إلى الغذاء، فالإنسان كنباتى وحيوانى فى نفس الوقت يعتبر من الرئيسيات الذواقة ذات الأطعمة المختلفة والمتداخلة، بما تحتويه من عناصر هامة لحياته، ولا شك أن الإنسان اكتشف ذات يوم أن الغزال الذى احترق جزئياً فى حريق الغابة الأخيرة ألذ وأفضل طعماً وربما أسهل هضماً من النيئ، ولهذا فكر فى استغلال النار لطهى طعامه.

وكذلك دافع الحاجة إلى الدفء أو دافع الحماية من المفترسين باتخاذ النار سلاحاً، قد يكون وارداً، ولكن دافع التشهى لغذاء ألذ والرغبة فى التنويع والحصول على تغذية أرقى هو الدافع الأول، نظراً لأهمية الغذاء للإنسان من جهة ولأن الدافعين الآخرين قد وجد الإنسان وسائل أخرى لتلبيتهما، كاتخاذ جلود الحيوانات لحفظ حرارة الجسم واتخاذ الحراب للصيد والحماية، وذلك دون الحاجة إلى النار.

وهكذا تعددت استخدامات الإنسان الأول للنار من استعمالها فى طهى طعامه وتدفئته وكسلاح ضد اعدائه ثم تطورت الاستخدامات بتطور حياة الإنسان على الأرض.

لقد تمكن الإنسان من السيطرة على النار بفضل عقله الذى تطور إلى درجة كافية تمكنه من الملاحظة والربط بين المعطيات والنتائج، ولقد لاحظ الإنسان أن كافة الأحياء تخشى النار وتتفادها وفى نفس الوقت لاحظ أن النار تتبع قانونا

معينا لكى تظهر وهى حاجتها للاحتراق على شىء فإذا انعدم المصدر انطفأت، والملاحظة الأخيرة وهى قدرة الماء على إطفائها بسهولة إذا كانت محدودة.

بهذه الملاحظات الثلاث الهامة والأولية وجد الإنسان ما يكفى من معطيات تؤدى به إلى إمكانية السيطرة على النار والتحكم بها، والمؤكد أن استغلال الإنسان للنار متقدم على قدرته على إشعالها، أعنى أن الإنسان حاول استغلال النار التى تشب طبيعيّاً من حوله بالتواجد على حوافها ثم احتاج إلى نقل النار إلى حيث يريد فتمكن من أخذ قبس منها ثم احتاج إلى إطالة عمرها فأخذ يغذيها بالمواد التى لاحظ أنها تشتعل عليها.

وبعد أن ألف النار واستأنسها لهذه الدرجة، اعتادها فاحتاج إليها أكثر من المرات التى تجود عليه بها الطبيعة وحينها اكتشف أول وسيلة لإشعالها.

وعلى مدار عمر الحضارات والإنسان على الأرض تطورت استخداماته للنار حتى وصل إلى هذه المرحلة الفاصلة فى مسيرته عندما صارت النار يشعلها متى أراد وتلك من أهم مراحل استخداماته لها.

لقد اكتشف الإنسان أن النار لا تنفعه فى غذائه فحسب، بل أيضاً تضىء له المعتم وتدفئه بحرارتها فى ليالى الشتاء الباردة والأهم أنها تبعد عنه أعداءه ومفترسيه الطبيعيين دون أن يجهد نفسه فى الحراسة والمراقبة ليلاً ونهاراً كان الإنسان يعتبر الليل كابوسه المستمر، فالليل هو وقت الطعام المفضل لدى المفترسات وعينه ذات القدرات المتواضعة فى الظلام تجعله فريسة سهلة ويمكن مفاجأته من أى مكان، إن المرء ليتخيل الرعب الذى كان يعانيه الإنسان الأول فى ليلة بلا قمر لدرجة أن أبسط حفيف شجرة يمكن أن يكون فهدا متسللاً يريد افتراس أحد أطفاله.

أما الآن فالنار تعطيه الضوء الذى يمكنه أن يرى جيداً ما حوله بمسافة تمكنه من التصرف، والأهم أن النار وإن كانت تجذب بعض الهوام إلا أنها تبعد المفترسات.

وأصبح إشعال النار والالتفاف حولها ليلاً دون ضرورة لتبادل مهام الحراسة تشكل نقطة تحول، فبعد الصيد والطهى وتأمين المأوى فى النهار ثم الاستمتاع بالدفء والنور ليلاً وتستمر النار مشتعلة والناس جلوس حولها صامتين ينظرون فى سكينة وهدوء وطمأنينة.

من هذا يتضح أن الإنسان تعلم تفادى النار قبل أن يتعلم السيطرة عليها، فالوقوع فى النار يعنى الاحتراق والاحتراق يعنى الموت والموت يهدد بقاء النوع، لهذا كانت طبيعة الإنسان حاسمة فى هذا الاتجاه، إياك أن تسمح للنار أن تمسَّكَ، فالتلف الذى قد تسببه لك ستعجز عن إصلاحه، إياك واحذر.

صار هذا التحذير جزءا من جينات الإنسان وتوارثه، والنوع الذى كان أكثر التزاماً به وبقوانين أخرى وفقاً للانتخاب الطبيعى بقى منه أكثر، حتى صار متجذراً فى عقل الإنسان الجمعى منذ كان عقلاً بدائيّاً، وأصبحت النار الآن أداة من أدوات الحضارة والمعيشة اليومية لا يمكن الاستغناء عنها ويمكن السيطرة عليها بسهولة.

وأصبحت النار تتواجد عندما تتواجد عوامل اشتعالها هذا طبيعى، لكنها ككينونة يصعب تحديدها بمعزل عن عوامل اشتعالها إنها بلا حجم محدد أو ثابت ولا يمكن أن نعرف بنيتها أو ملمسها أو مقاييسها مثلما نفعل مع المادة كما أنها تشع نوراً من نفسها.

والنار تأكل كل شىء بدون تمييز فلا يمكن أن تلقى بشىء فى النار وترفض حرقه فيمكن للإنسان أن يتحدى دبا أو أسدا بالحيلة وأن يخاتله وربما يقتله لكن لا يمكن عمل ذات الشىء مع النار إنها وحش يؤلم ولا يتألم.

ومازال الكثيرون من الناس فى العالم وخاصة فى اليابان وبلاد شرق آسيا يحتفلون بالنار وعبادتها وعمل مهرجان لها كل عام يسمى مهرجان النار يكون كل عام قمرى يبدأون بالنزول فى البحر لغسل أنفسهم وتطهيرها حسب اعتقادهم ثم إشعال مشاعل خاصة بكل فرد من الطائفة وكلها احتفالات قديمة جداً ولكنها مازالت موجودة للأسف فى هذا العصر الألفى الثالث حيث قمة الحضارة والتكنولوجيا.

النار عند أهل الكتاب
فى العهد القديم والجديد

كما ذكرنا أن الإنسان قد عرف النار من القدم وقد عرف الإنسان الحجرى النار بالصدفة عن طريق الصواعق ثم عن طريق احتكاك حجارة الصوان بعضها ببعض، ومنذ ذلك الحين والنار من المواد الأساسية فى الكون بل هى ركن من المثلث: الماء والهواء والنار.

ويتكلم الكتاب المقدس عن فوائد النار المتعددة وطرق استعمالها، فكانت تستعمل للتدفئة خاصة فى الأماكن الباردة إما بواسطة الكوانين (ار ٣٦:٢٢) أو المواقد وسط البيوت (لو ٢٢ :٥٥) أو بواسطة أجران الجمر (يو ١٨:١٨).

وكانت تستعمل فى التعدين (تك ٤:٢٢) والطبخ (خر ١٦ :٢٣ واش ٤٤:١٦) وتمحيص الفلزات (عد ٢٢:٣١ وزك ١٣:٨و٩).

وكانت التقدمات تقدم ليهوه بالمحرقات (تك ٨:٢٠)، وكان يراد من النار أن يشم بها رائحة التقدمات (تك ٨:٢١) وموسى قدم تقدمات على المذبح الذى بناه وأشعل النار بنفسه (خر ٤٠:٢٩) ولكن بعد أن عهد إلى هارون وأبنائه بالكهنوت أصبح الكهنة هم الذين يضرمون النار للرب (لا ٦:٢٢).

وكانت النار تنزل أحياناً من السماء وتحرق المحرقات علامة على رضا الله كما حصل فى المذبح الجديد بعد أن رسم هارون للكهنوت، وفى الهيكل فى القدس (لا ٩ :٢٤ و٢ أخبار ٧:١) وهناك عدة حوادث على إخراج الله النار بنفسه علامة الرضا على جدعون وايليا وداود (قض ٦:٢٣ و٢٤ و١ اخبار ٢١ :٢٦).

وكان القدماء يستعملون النيران للقصاص، فكانوا يحرقون المحكوم عليهم بالإعدام (ار ٢٩:٢٢ ودا ٣:٢٠و٢١) وقد استمرت هذه العادة حتى القرون الوسطى

أما فى أفريقيا فاستمرت إلى عصور قريبة، وكانت الشريعة تأمر بحرق الرجل الذى يتزوج من امرأة وأمها (لا ٢٠:١٤) وابنة الكاهن التى تزنى (لا ٢١:٩).

ومكان المنذور يحرق شعر رأسه بعد انتهاء نذره (عد ٦:١٨).

وكان الوثنيون يعبدون النار من جلة ما عبدوه من مظاهر الطبيعة ولاتزال عبادة النار معروفة فى الهند إلى اليوم كما كانوا يحرقون أبناءهم على النار تقدمه لبعض الآلهة الوثنية (٢مل ١٦:٣ و٢١:٦ وار ٧:٣١ وخر ١٦:٢٠ و٢١) مثلما كانوا يغرقون أبناءهم فى النهر للسبب نفسه.

واستعملت النار فى الكتاب للتشبيه فشبهت بها المحبة النقية (نش ٨:٦) ولسان الغش (مز ١٢:٤) وشفتا اللئيم (ام ١٦:٢٧) واللسان الذى لم يضبط (يع ٣:٥) والفجور (اش ٩:١٨) وغضب الله (مز ٧٩:٥ و٨٩:٤٦ ونا١:٦) وكلمة الله (ار٢٣:٢٩) وذات الله (تث٤:٢٤ وعب١٢:٢٩).

الكتاب المقدس يمنع اليهود عن اشعال النار يوم السبت لأنه يوم الرب (خر ٣٥:٣) وعن إحراق البخور فى غير أوقات التقدمات القانونية وبغير الطريق الأصولى وبتقديم نار غريبة (لا ١٠:١)

وقد ذكر العهد تقديسه فى أسفاره أن الله ظهر فى النار أمام موسى فى جبل حوريب (خر ٣:٢) وكان الله يسير أمام بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر فى عمود نار فى الليل ليضىء لهم (خر ١٣:٢١) ولما قابل الله موسى على جبل سيناء نزل الرب على الجبل بالنار وكان الدخان يتصاعد عالياً (خر ١٩:١٨) وقد ذكر داود فى نشيده شكراً لله لأنه أنقذه من أعدائه ومن شاول (٢صم ٢٢:١٣) وتكلم عن الله للنبى حزقيال فى السبى وهو المسيح الممجد كلهيب نار (رو ١:١٤) وشاهد النار أمام العرش (رؤ ٤:٥).

ووصفت جهنم بالنار الملتهبة «الأكلة الأبدية التى لا تنطفئ وبحيرة النار والكبريت والعذاب» (تث ٣٢:٢٢) واش ٣٣:١٤ و٦٦:٢٤ ومر ٩:٤٤ ويه ٧ ورؤيا ٢٠:١٠).

النار عند العرب قبل الإسلام

يذكر أبوهلال العسكرى أنه كان للعرب الأوائل قبل الإسلام ثلاث عشرة ناراً(١):

١- نار المزدلفة: وهى نار توقد فى المزدلفة ليراها من دفع من عرفته، وأول من أوقدها كان قصى بن كلاب.

٢- نار الاستمطار: كانوا فى الجاهلية الأولى، إذا احتبس المطر عنهم، جمعوا البقر وعقدوا فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر ثم يصعدون بها فى الجبل الوعر ويشعلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر.

---

(١) هو الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن بن يحيى بن مهران العسكرى وكنيته أبوهلال، ولد عام ٩٢٠م، وتوفى عام ١٠٠٥م.
وكان شاعرا وأديبا له مؤلفات كثيرة، ويرجع نسبه إلى عسكر مكرم من كور الأهواز، وهو ابن أخت أبى أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكرى، وتلميذه أيضاً.
من مؤلفاته:
- المحاسن فى تفسير القرآن.
- ديوان المعانى.
- الفروق فى اللغة.
- جمهرة الأمثال.
- شرح الحماسة.
- الأوائل.
- كتاب الصناعتين.
- ذم الكبر.
- الفروق اللغوية.
من شعره:

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى ... دليل على أن الأنام قرود
ولا خير فى قوم تذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهم عنى رثاثة كسوتى ... هجاء قبيحا ما عليه مزيد

٣- نار الحلف: كانوا إذا أرادوا عقد حلف، أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها، ويذكرون خيرها، ويدعون بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد، يقول أبوهلال العسكرى: وإنما كانوا يخصون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان لا يشاركه فيها غيره من الحيوان.

٤- نار الطرد: إنهم كانوا يوقدونها خلف من مضى ولا يحبون رجوعه.

٥- نار الأهبة للحرب: كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشاً، أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتونهم.

٦- نار الحرثين: كانت فى بلاد عبس، فإذا كان الليل فهى نار تسطع، وفى النهار دخان يرفع.

٧- نار السعالى: وهى نار ترتفع للمقفر والمغترب فيتبعها فتهوى بها الغول على زعمهم كما تقدم فى الكلام على أوابد العرب.

٨- نار الصيد: وهى نار توقد للظباء تغشاها لتعشى إذا نظرت إليها.

٩- نار الأسد: وهى نار توقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم فإن من شأنه النفور عن النار، لأنه إذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده.

١٠- نار السليم (اللديغ): توقد للملدوغ، كانوا يوقدون النار للملدوغ إذا لدغ يساهرونه بها، وكذلك إذا نزف دمه، والمضروب بالسياط، ومن عضه كلب، كى لا يناموا فينتابهم الأمر حتى يؤدى بهم إلى التهلكة.

١١- نار القِرَى: وهى نار توقد ليلاً ليراها الأضياف فيهتدوا إليها.

١٢- نار الفداء: كان الملوك منهم إذا سبوا نساء قبيلة، خرجت إليهم السادة للفداء والاستيهاب فيكرهون أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن أو فى الظلمة فيخفى قدر ما يحسبون لأنفسهم من الصفى فيوقدون النار لعرضهن.

١٣- نار الوسد: وهى النار التى يسم بها الرجل منهم خيلة وإبله، فيقال له ما سمة إبلك فيقول نار كذا، قيل مر امرؤ القيس بثلاث شعراء فأنشدوه شعراً، فقال إنى لأعجب كيف لا يمتلئ عليكم بيتكم ناراً من جودة شعركم، فعرفوا فيما بعد ببنى النار.

ذكر النار فى الإسلام

نار الدنيا هى درجة من درجات نار الأخرة جهنم، فنار الآخرة حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد فنار الدنيا هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم كما قال ﷺ حيث قال رسول الله: «ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل: يارسول الله إن كانت لكافية؟ قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»(١)

فنار الأخرة قد أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة.

وكان ابن عمر يقول: أكثروا ذكر النار، أكثروا ذكر النار، فإن قعرها بعيد وأن حرها شديد وإن مقامعها حديد.

وهى نار تنسى من يغمس فيها غمسة واحدة نعيم الدنيا ولو كان أنعم واحد فيها قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم رجل فى الدنيا من أهل النار فيصبغ فى نار جهنم ثم يقال له: يابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب ويؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة، فيقال له: يابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يارب ما مر بى من بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(٢)

وقال أيضاً: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: رجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان، يغلى منهما دماغه - كما يغلى المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وأنه لأهونهم عذابا»(٣)

وقال أيضاً: «اتقوا النار» وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى

---

(١) متفق عليه.

(٢، ٣) رواه مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه.

ظننا أنه ينظر إليها ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد، فبكلمة طيبة»[1]

وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال:

كنا مع رسول الله إذا سمع وجبة، فقال: «أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال حجر رُمى فى النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوى فى النار الآن حيث انتهى إلى قعرها» زاد فى رواية «فسمعتم وجبتها».

قال تعالى عن أهل النار: **﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ (الغاشية: ٧)**

والضريع نوع من أنواع الشوك لا تأكله الدواب لخباثته.

وقال الله تعالى: **﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ (المزمل: ١٢-١٣)**

قال ابن عباس رضى الله عنهما «طعاما ذا غصة» قال: شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج وقال تعالى: **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الواقعة: ٥١-٥٦)**

وقد وصف الله عز وجل شجرة الزقوم فقال: **﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٦٤-٦٨)**

والشوب هو الخلط والمزج أى يخلط الزقوم المتناهى فى القذارة والمرارة والحميم المتناهى فى اللهب والحرارة.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى قرأ هذه الآية: **﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**

---

(١) متفق عليه.

وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

فقال رسول الله: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه»

وقال ابن عباس: الغسلين الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم.

وعن أبى هريرة: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

وقد ظن البعض أن نار الآخرة تأتى من انفجار الشمس يوم القيامة وهذا رأى يخالف ما جاء فى الأحاديث النبوية والآيات القرآنية فنار الدنيا غير نار الآخرة.

والأصل فى الغيبيات عند علماء الإسلام هو التسليم والتفويض للعلى القدير - جل وعلا - بلا تكييف ولا إنكار، والجزاء بعد الحساب من أصول الاعتقاد، فالجنة والنار إذن معاينات فى الآخرة دار الحساب والجزاء؛ وليس نعيم الدنيا ونارها سوى مثال، ولا يعلم بحقائق الآخرة سوى العليم وحده تعالى بجميع المغيبات.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ (النازعات: ٣٦) وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٩١)

وبخلاف ما تجد فى الكتب التى تنسب للوحى من تناقض واختلاف لا تجد فى الكتاب العزيز سوى وحدة فى الدلالة وتثنية للنبأ بلا اختلاف، قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (يس: ٦٣) وقال تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الطور: ١٤-١٥).

قال رسول الله ﷺ قال الله (أى فى الحديث القدسى) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فاقرءوا إن شئتم: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين»(١).

والجحيم بالمثل غيب محجوب؛ أهوال تروع الوجدان، ويصلح حمل ما ورد فى

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

وصفه من معالم الدنيا عند العلماء على التمثيل للغيبى المجهول بالحسى المعلوم، وليس المراد فى الأخبار والآثار مقترناً بالجحيم عين الشمس وجرمها حتى يسوغ جدلاً القول بأن جرم الشمس هو الجحيم؛ إنما المراد هو شدة حرارتها خاصة مع قيظ ظهيرة الصحراء، فالجامع الشعور بالحرارة، وإلا كيف مثلت الحمى كذلك بجهنم! كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح.

ففى تحفة الأحوذى (ج٥ص٣٥٠): «فى رواية «الحمى من فيح جهنم».. قال الحافظ.. المراد سطوع حرها ووهجه، واختلف فى نسبة الحمى إلى جهنم، فقيل حقيقة.. كما أن أنواع الفرح واللذة من نعيم الجنة.. وقد جاء.. «الحمى حظ المؤمن من النار».. وهذا كما فى حديث.. الأمر بالإبراد «حين قيظ الظهيرة» أن شدة الحر من فيح جهنم.. وقيل بل الخبر ورد مورد التشبيه؛ والمعنى أن حر الحمى شبيه بحر جهنم تنبيها للنفوس على شدة حر النار وأن هذه الحرارة الشديدة شبيهة بفيحها».

وفى فتح البارى (ج٢ص٣٠٤): «قول (من فيح جهنم): أى من سعة انتشارها وتنفسها.. وهذا كناية عن شدة استثعارها».

إن قضايا الغيب كالجنة والنار والعذاب فى القبر فى حرم آمن لا يمس؛ يحرسه العلماء جيلا بعد جيل، والتذرع بالبحث العلمى ليس عذراً لأن علوم الرصد حدودها المحسوس، ولن يعذر الخوض فى الغيبيات التظاهر بحسن نية أو الوعظ والترهيب خاصة فى وقت يتفنن فيه المتربصون فى إثارة الشبهات وابتداع الذرائع للنيل من الإسلام ومنعة دين التوحيد.

ورد الشيخ صالح الفوزان على سؤال حول صحة تسجيل أصوات المعذبين فى الجحيم بسيبيريا بقوله: «أمور الآخرة من علم الغيب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فالتعذيب فى القبر أو النعيم فى القبر هذا من علم الغيب، ومن أمور الآخرة.. قال تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (سورة الجن: ٢٦)**.

وكذلك قال الشيخ سلمان العودة أن صوت غازات انبعثت من باطن الأرض لاعلاقة لها بعذاب القبر.

وقال فضيلة الشيخ عبدالله بن محمد الطيار: «فهذا من الغيب الذى حجب عنا ولا يجوز فعل ذلك، وما يفعله بعض الناس من وضع بعض الأصوات فهذا كذب وبهتان، ولا يمكن لأحد أن يطلع على هذا الأمر، لكن إذا قل العلم الشرعى سرت مثل هذه الأمور فى أوساط الناس، وعلى كل مسلم يخاف الله - جل وعلا - ألا يفعل ذلك ولا يصدق به، وفى آيات القرآن وكلام الرسول ﷺ من المواعظ والتخويف ما يغنى عن مثل هذه الأمور التى لا مجال لإثباتها».

وأجاب فضيلة الشيخ عبدالرحمن السحيم حول ما شاع أن جهنم هى أم الشمس بقول: «الشمس آية من آيات الله؛ بل هى آية غظيمة يتعلق بها مصالح للعباد عظمى، وقد خلق الله الشمس لمصالح العباد والنار ليست كذلك، ولذا امتن الله بها على عباده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة الرعد: ٢) وقال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٣) وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)[1].

والقول بأن جهنم هى أم الشمس يحتاج إلى دليل؛ ولا دليل على ذلك والحرارة فى تعريف الفيزياثيين هى طاقة اهتزاز الذرات وترتفع كلما زادت الطاقة والاهتزاز، واعتبر غليان الماء عند ١٠٠ درجة مئوية (بمقياس سليسيوس)، وباستنتاج توقف الاهتزاز عند درجة ٢٧٣ تحت الصفر المئوى اعتبرت هى درجة الصفر المطلق (صفر كلفن)؛ ودرجة٥٠ مئوية مثلا تقابل ٣٢٣ (٢٧٣+٥٠) درجة مطلقة، وبدراسة الطيف صنفت النجوم إلى حمراء درجة حرارة سطوحها ٣,٢ آلاف درجة مطلقة تتبعها البرتقالية ثم الصفراء، ومنها شمسنا التى تبلغ درجة حرارة سطحها ستة آلاف درجة مطلقة، وتتبعها النجوم البيضاء المائلة للصفرة، ثم البيضاء والبيضاء المائلة للزرقة، وأخيراً النجوم الزرقاء التى تبلغ درجة حرارة سطوحها ٣٠ ألف درجة مطلقة، وتصل أقطار بعض النجوم مئات المرات قدر قطر الشمس، وتشع آلاف المرات قدر أشعتها؛ فأين جرم الشمس إذن من الجحيم بافتراض صحة المقارنة! والله أعلم.

(١) متفق عليه.

ذكر أسماء النار فى القرآن الكريم

جاء ذكر نار الآخرة فى القرآن الكريم بأسماء متعددة:

١- «الجحيم».. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: ١١٩)

٢- «الحطمة».. ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (الهمزة: ٤)

٣- «السعير».. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠)

٤- «دار البوار» ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨)

٥- «سوء الدار» ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥)

٦- «السموم» ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٧)

٧- «بئس القرار» ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: ٢٩)

٨- «النار» ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤)

٩- «مثوى المتكبرين» ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل: ٢٩)

١٠- «جهنم» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٦)، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٤٣)

١١- «بئس المهاد» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٦)، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢)

١٢- «سجين» ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (المطففين: ٧)

١٣- «مثوى الظالمين» ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٥١)

١٤- «سقر» ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر: ٤٨)

١٥- «هاوية» ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ٩، ١٠، ١١)

وقد جاء ذكر «النار» فى القرآن الكريم ١٢٦ مرة فى آيات وسور القرآن الكريم يضاف إليها كلمة «نارا» ١٩ مرة فيصبح المجموع ١٤٥ مرة وهذا يدل على أهميتها.

ويضاف إلى ذلك ذكر جهنم حيث وردت فى القرآن الكريم نحو ٧٧ مرة وفيها تحذير من عذابها والحض على البعد عنها وتجنب الوقوع فيها.

ومن الآيات التى ذكرت النار وأصحاب النار

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٩)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ١٢٦)

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٠-٨١)

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (فصلت: ١٩)

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٦)

﴿وما أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ١٠-١١)

■ ■ ■

ذكر أصحاب النار فى القرآن الكريم

جاء ذكر أصحاب النار فى القرآن الكريم فى سور عديدة وآيات كثيرة فى نحو ١٥ آية والمقصود من تلك العبارة «أصحاب النار» هم أهل جهنم المعذبون فيها وجاء لفظ أصحاب النار مرة واحدة وهى تعنى الملائكة الموكلين بالنار وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٦-٣١)

وبالتالى فإن المقصود على الإطلاق بكلمة أصحاب النار هم أهلها لأن المعنى اللغوى لكلمة أصحاب تدل على الملازمة والمصاحبة وهى تصف فى القرآن الكريم على أن هؤلاء الناس الذين وصفهم القرآن بأنهم أصحاب النارفى الآخرة ملازمون لها خالدون فيها وأنهم كانوا فى الدنيا أهلاً لها بأعمالهم وعصيانهم وكفرهم.

كما أنهم أصحاب العذاب النفسى الدنيوى الأخروى قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٤).

فحياتهم ضنك ومشقة وعذاب مستمر، مهما بدا فى ظاهر أمرهم غير ذلك.

وقد اعترف علماء التربية بما تواجهه وتعانيه مجتمعاتهم من هذا العذاب النفسى الكبير مع أنهم فى الأمور المادية هم الأسعد والأوفر حظا.

ومن بعض صفات «أصحاب النار» فى القرآن الكريم.

أولاً : عدم أداء العبادات من صلاة وغيره رغم ما فيها من استقرار نفسى ولجوء إلى الخالق جل وعلا واعتراف بربوبيته وعبودية الإنسان له:

قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (المدثر: ٤٢، ٤٣).

فذكر أن ترك شعيرة الصلاة سبب من أسباب دخول «سقر» وهى النار.

ثانيا : إهمال المظهر الكونى التسخيرى للعبادة بإهمال أدوات المعرفة: السمع والبصر والفؤاد «العقل»، فمن لم يؤد حق سمعه وبصره وعقله فى مجال العلم والنظر فى آيات الأنفس والآفاق كان من أصحاب النار كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠-١١)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)

ثالثاً: الظلم الاجتماعى فظلم الآخرين سواء بالقتل أو ما دونه، يؤدى إلى النار كما قال تعالى على لسان ابن آدم المقتول ينبه أخاه إلى خطورة القتل والحسد والظلم: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩).

وكذلك الذين يبخلون بمالهم على الفقراء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠) أى سيكون طوقاً من نار فى أعناقهم كما ذكرت التفاسير.

رابعاً: علاقتهم مع الآخرة علاقة إنكار أو لا مبالاة:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام: ٣١) ولذلك كان هؤلاء الناس أهل شقاء وضياع فى دنياهم ولم تستقم

حياتهم حتى مع أشد القوانين.

ومن الآيات التى ذكرت أصحاب النار:

﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٩)

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧)

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٦)

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩)

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٦)

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٧)

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٥٠)

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد: ٥)

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (الزمر: ٨)

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٦)

﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٤٣)

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (الحشر: ٢٠)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ١٠)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ١١٦)

وجاء ذكر أهل النار بأوصاف أخرى مثل أصحاب الجحيم وأصحاب السعير وأصحاب المشأمة وأصحاب الشمال.

١- أصحاب الجحيم مثل:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (المائدة: ١٠)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (المائدة: ٨٦)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣)

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (الحج: ٥١)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (الحديد: ١٩)

٢- أصحاب السعير:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦)

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠-١١)

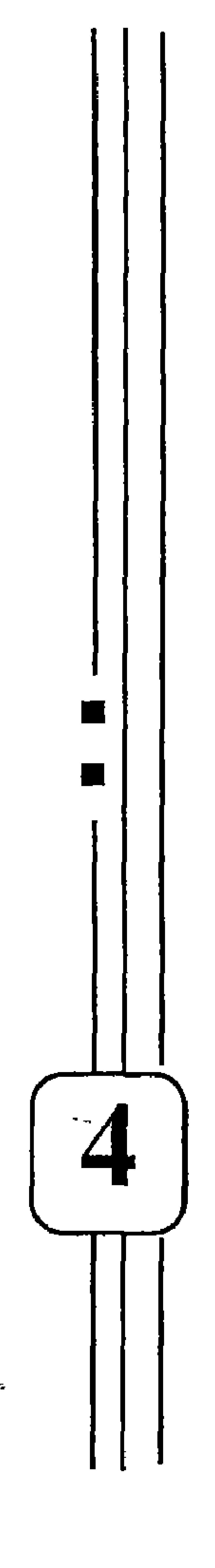
٣- أصحاب المشأمة ثلاث مرات:

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (الواقعة: ٩)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (البلد: ١٩)

٤- أصحاب الشمال مرتين فى آية سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (الواقعة: ٤١).

■ ■ ■



ذكر الملائكة عموماً والملائكة خزنة النار

- الملائكة فى القرآن الكريم والسنة النبوية
- الملائكة فى الكتاب المقدس

الملائكة فى القرآن الكريم والسنة النبوية

الملائكة هم عالم النور وهم من عالم الغيب الواجب الإيمان به كما قال تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١-٥)

والملائكة كلهم أخيار أبرار لا يعصون الله ما أمرهم وليس كما ذكر أهل الكتاب أن هناك ملائكة أخيار وآخرين أشرار زعيمهم إبليس الذى كان من الملائكة وعصى أمر ربه.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)

وخزنة جهنم هم من الملائكة كما ذكرت الآية السابقة وكما جاء فى سورة المدثر ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٦-٣١)

قال ابن كثير فى تفسيره للآية: «عليها تسعة عشر» أى مقدمى الزبانية عظيم خَلقهم غليظ خُلقهم.

وذكر أن اليهود سألوا النبى ﷺ عن عدد خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية.

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٥-١٦)، أى القرآن بأيدى سفرة، أى: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، قال البخارى: «سفرة: الملائكة وأاحدهم سافر، سفرت: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة - إذا نزلت بوحى الله تعالى - كالسفير الذى يصلح بين القوم»[١]

وقد وصف الله تعالى هؤلاء الملائكة بأنهم (كرام بررة)؛ أى: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة ظاهرة كاملة، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول ﷺ: (مثل الذين يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام، ومثل الذى يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران)[٢]

ومن أخلاق الملائكة التى أخبرنا الرسول ﷺ بها: الحياء؛ ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عائشة: أن الرسول ﷺ كان مضطجعاً فى بيتها، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبوبكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس الرسول ﷺ وسوى ثيابه، فدخل، فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبوبكر، فلم تهتش له، ولم تباله، ثم دخل عمر، فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان، فجلست، وسويت ثيابك، فقال: (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة).[٣]

وقولها: لم تهتش له: الهشاشة والبشاشة: طلاقة الوجه، وحسن اللقاء.

وقولها: لم تباله: لم تحتفل به.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

وقد أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٦-١٩)

وإبراهيم - عليه السلام - جاءته الملائكة فى صورة بشر، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم، ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٦٩-٧٠)

وجاؤوا إلى لوط فى صورة شباب حسان الوجوه، وضاق لوط بهم، وخشى عليهم قومه، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات، ويأتون الذكران من العالمين: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود: ٧٧)

يقول ابن كثير: «تبدى لهم الملائكة فى صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر»[1].

وقد كان جبريل يأتى الرسول ﷺ فى صفات متعددة، فتارة يأتى فى صورة دِحْية بن خليفة الكلبى (صحابى كان جميل الصورة)، وتارة فى صورة أعرابى.

وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتى كذلك.

فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد، أخبرنى عن الإسلام»

(١) انظر البداية والنهاية جـ١.

وفى الحديث أنه سأله عن الإيمان والإحسان والساعة وأماراتها[1].

وقد أخبر الرسول ﷺ فيمابعد أن السائل جبريل، جاء يعلم الصحابة دينهم.

ورأت عائشة الرسول ﷺ واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبى يكلمه، فلما سألته عن ذلك، قال ﷺ: (ذلك جبريل، وهو يقرئك السلام)[2].

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه، ولكن ليس عندهم القدرة التى أعطيت للإنسان فى التعرف على الأشياء: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣١-٣٢)**

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء، واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

ولكن الذى علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان، ومن العلم الذى أعطوه علم الكتابة: **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢)**

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها، ففى سنن الترمذى، ومسند أحمد عن ابن عباس: أن الرسول ﷺ قال: (أتانى الليلة ربى - تبارك وتعالى - فى أحسن صورة - قال: أحسبه قال: فى المنام - فقال: يامحمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

قال: قلت: لا

قال: فوضع يده بين كتفىَّ، حتى وجدت بردها بين ثديى، فعلمت ما فى السماوات، وما فى الأرض.

فقال: يا محمد! هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، فى الكفارات

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وابن سعد.

والدرجات، والكفارات: المكث فى المساجد بعد الصلاة، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء فى المكاره، والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال: صدقت، ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه.

وقال: يامحمد، إذا صليت فقل: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى، وترحمنى، وتتوب عليَّ، وإذا أردت بعبادتك فتنة، فاقبضنى إليك غير مفتون».

قال ابن كثير فى هذا الحديث بعد ذكره له: «هذا حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق، وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبدالله اليمامى به.

وقال الحسن: صحيح، وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فى قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (ص: ٦٩-٧٠).

والاختصام المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (ص: ٧١)

فالاختصام المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم - عليه السلام - وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه»[١]

٤- منظمون فى كل شؤونهم:

والملائكة منظمون فى عبادتهم، وقد حثنا الرسول ﷺ على الاقتداء بهم فى ذلك فقال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها)؟ قالوا: يارسول الله: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: (يتمون الصفوف، ويتراصون فى الصف) [٢].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

وفى يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢)، ويقفون صفوفاً بين يدى الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ: ٣٨)، والروح: جبريل

وصف ملائكة جهنم وخزنتها وزبانيتها

جاء ذكر خزنة جهنم كما ذكرنا فى آيات سورة المدثر وعددهم فى قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣٠)، فالمراد رؤساؤهم وأما جملتهم فالعبارة عنهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٣١)

قال رسول الله ﷺ فى خزنة جهنم: (ما بين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب).

وقال ابن عباس: ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمعة، فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم.

وقيل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣٠)، تسعة عشر ألف ملك

وقيل هم تسعة عشر ملكاً، بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان، فيضرب الضرب، فيهوى بها سبعين ألف خريفا.

وذكر أبوحامد فى كتاب كشف علوم الآخرة: أنهم يأتون بها تمشى على أربع قوائم وتقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك بيد كل واحد حلقة، لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها بحلقة واحدة، على كل حلقة سبعون ألف زبنى، لو أمر زبنى منهم أن يدك الجبال وأن يهد الأرض لهدها، وأنهم إذا انفلتت من أيديهم لم يقدروا على إمساكها، لعظم شأنها، فيجثو كل من فى الموقف على

الركب حتى المرسلين، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش، هذا قد نسى الذبيح، وهذا قد نسى هارون، وهذا قد نسى مريم عليهم السلام.

وكل واحد منهم يقول: نفسى نفسى، لا أسألك اليوم غيرها، قال: وهو الأصح عندى، ومحمد ﷺ يقول: (أمتى أمتى، سلمها يارب ونجها يارب)، وليس فى الموقف من تحمله ركبتاه، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٨)، وعند تفلتها تكبو من الغيظ والحنق، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان: ١٢).

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣٠)، ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المدثر: ٣١) قال آدم بن أبى إياس حدثنا حماد بن سلمة حدثنا الأزرق بن قيس عن رجل من بنى تميم قال كنا عند أبى العوام فقرأ هذه الآية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣٠) فقال ما تقولون تسعة عشر ملكا قلنا بل تسعة عشر ألفا فقال ومن أين علمت ذلك قال قلت لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المدثر: ٣١)

قال أبو العوام صدقت وبيد كل واحد منهم مرزبة من حديد لها شعبتان فيضرب بها الضربة يهوى بها سبعين ألفا بين منكبى كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا.

فعلى قول أبى العوام ومن وافقه الفتنة للكفار إنما جاءت من ذكر العدد الموهم للقلة حيث لم يذكر المميز له ويشبه هذا ما روى سعيد بن بشير عن قتادة فى قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر:٣١) أى من كثرتهم.

والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقلتهم وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا

يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٣١).

قال السدى إن رجلا من قريش يقال له أبو الأشدين قال يامعشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبى الأيمن عشرة من الملائكة وبمنكبى الأيسر التسعة الباقية ثم تمرون إلى الجنة يقوله مستهزئاً فقال الله عز وجل ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المدثر: ٣١).

وقال قتادة ذكر لنا أن أبا جهل حين نزلت هذه الآية قال يامعشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم أن يأخذوا واحدا من خزنة النار وأنتم الدهم وصاحبكم هذا يزعم أنهم تسعة عشر.

وقال قتادة فى التوراة والإنجيل إن خزنة النار تسعة عشر وروى حديث عن الشعبى عن البراء فى قول الله عز وجل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣٠) قال إن رهطا من يهود سألوا رجلا من أصحاب النبى ﷺ عن خزنة جهنم فقال الله ورسوله أعلم فجاء رجل فأخبر النبى ﷺ فأنزل الله عليه ساعة إذن «عليها تسعة عشر» فأخبر أصحابه وقال «ادعهم» فجاؤوا فسألوه عن خزنة جهنم «فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية». والحديث اخرجه ابن أبى حاتم وحريث هو ابن أبى مطر ضعيف.

وأخرجه الترمذى من طريق مجالد عن الشعبى عن جابر قال ناس من اليهود لناس من أصحاب النبى ﷺ هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قالوا لا ندرى حتى نسأله فجاء رجل إلى النبى ﷺ وعلى آله فقال يامحمد غُلب أصحابك اليوم.

قال «وما غلبوا»

قال سألتهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم.

قال «فما قالوا»

قالوا لا ندرى حتى نسأل نبينا ﷺ

فقال «لا يَغلب قوم سُئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة عليّ بأعداء الله

«فلما جاؤوا قالوا ياأبا القاسم كم عدد خزنة جهنم

قال «هكذا أو هكذا فى مرة عشرة وفى مرة تسعة».

قالوا نعم. وهذا أصح من حديث حريث المتقدم قاله البيهقى وغيره

أما قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾ وقد وصف الله الملائكة الذين على النار بالغلظ والشدة وروى أبونعيم بإسناده عن كعب قال إن الخازن من خزان جهنم مسيرة ما بين منكبيه سنة وإن مع كل واحد منهم لعمود له شعبتان من حديد يدفع به الدفعة فيكب به فى النار سبعمائة ألف.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد بإسناده عن أبى عمران الجونى قال بلغنا أن الملك من خزنة جهنم ما بين منكبيه مسيرة خريف فيضرب الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحينا من لدن قرنه إلى قدمه وفى رواية أخرى له قال بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكبى أحدهم مسيرة خريف وليس فى قلوبهم رحمة.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧) ومالك هو خازن جهنم وهو كبير الخزنة ورئيسهم وقد رآه النبى ﷺ وآله وسلم ليلة الإسراء وبدأه مالك بالسلام(١).

قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٧-١٨) قال أبوهريرة الزبانية الملائكة وقال عبدالله بن الحارث الزبانية رؤوسهم فى الأرض وأرجلهم فى السماء(٢).

عن المنهال بن عمرو قال إذا قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (الحاقة: ٣٠) ابتدره سبعون ألف ملك وإن الملك منهم ليقول هكذا يعنى يفتح يديه فيلقى سبعين ألفا فى النار(٣).

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

(٢، ٣) أخرجه ابن أبى حاتم.

ذكر الملائكة وأصنافهم وعملهم فى الكتاب المقدس

يشير الكتاب المقدس إلى عملين أساسيين للملائكة الأول هو تمجيد الله وذلك بسبب معاينتهم لبهاء مجده، إذ يحفون أمام عرشه وهم يسبحون معظمين: قدوس قدوس قدوس.. (أش ٦:٣، رؤ ٤:٨).

أما العمل الثانى فهو تبليغ مشيئة الله وتنفيذ وصاياه الإلهية من أجل خلاص البشر وانتشار ملكوته فيهم (مز ٤:٣، عب١: ١٤، لو١:٢٨ إلخ..) ولهذا تقول الكنيسة إن لكل من ملاكاً يحرسه مرافقاً إياه من المهد إلى اللحد وهو ما يتفق مع فحوى آيات عديدة فى أسفار العهد القديم والجديد (مز ٣٤:٧, ٩١:١١، مت ١٨:١٠، أع ١٢:١٥).

ويتحدث الكتاب المقدس أيضاً، وفى مواضع كثيرة أخرى، عن ملائكة من نوع متناقض تماماً للنوع الخير الذى ذكرناه مسمياً إياهم ملائكة إبليس (مت ٢٥:٤١، رؤ ١٣:٩) أو شياطيناً (لو ٤:٤١، مر ٥:١٢) أو أرواحاً شريرة (لو ٨:٢، أع ١٩:١٣) ومراتب مختلفة من رؤساء وسلاطين وإلخ.. (اف ٦:١٢، كولو ٢:١٥).

أما أصل الشياطين فهم فى الكتاب المقدس ملائكة أخيار، لأن الله بحسب طبيعته الخيرة لا يمكن أن يخلق إلا كل ما هو حسن وطاهر (تك ١:٣١).

لكنهم أصبحوا أشراراً بفعل إرادتهم الخاصة الحرة «لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكته قد أخطأوا» (٢بط٢:٤، يهو٦، يو٨:٤٣)

أما سبب سقوط الملائكة الأشرار فليس واضحاً بشكل كاف فى الكتاب المقدس، إلا أن الرأى السائد فى الكنيسة منذ نشأتها أن إبليس (الشيطان) قد سقط بسبب الكبرياء (١ تيمو ٣:٦)، وجذب ملائكة آخرين معه (مت٢٥:٤١، رؤ ١٢:٩).

والكبرياء هنا تعنى رغبة الشيطان الخاصة فى أن يؤله ذاته مستقلا عن الله مساوياً نفسه به (اش ١٤ :١٢-١٤).

أفعال الشياطين وعلاقتهم بالبشر: تتصف طبيعة الملائكة الأشرار بعد سقوطهم بكره الحق ومحاولة تشويهه.

لذلك سمى الشيطان بالكذاب وأبى الكذاب (يو ٨:٤٤).

ويتجه سعيه بشكل خاص لمقاومة المشيئة الإلهية، فيخدع النفوس البشرية محاولاً اجتذاب الصالحين إلى الشر وإغرائهم بشتى الوسائل كى يسقطوا وحتى يجلب المصائب عليهم (أيوب ١:٨-١١، رؤ ٢:١٠).

أما الطالحين فيشجعهم على ارتكاب المنكرات وتغريبهم أكثر فأكثر عن الله.

ونجد فى الكتاب المقدس أن الله لجَّم إبليس وملائكته ولايزال يلجِّمهم «فلم يشفق عليهم بل أهبطهم إلى أسافل الجحيم وأسلمهم إلى سلاسل الظلمة ليحفظوا للقضاء» (ابط ٢:٤). ويضيف أن المسيح بموته أبطل مملكة الشر والموت على الأرض ولايزال يبطلها بواسطة امتداد مملكة النعمة (عب ٢:١٤-١٥)، ومنح المؤمنين باسمه قوى إلهية يستطيعون بموجبها أن يطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة (ف٦:١١-١٧) هكذا جاءت نصوص الكتاب المقدس العهد القديم والجديد.

ولهذا يقدر المؤمن بثباته فى الرب واتحاده به بوساطة الأسرار الإلهية، وصلاته وصومه ويقظته الروحية (مر ٩:٢٩، مت ٢٦:٤١) أن يدحر أية تجربة.

وجاء فى الكتاب المقدس أن الله نفسه لا يجرب بالشرور (يع ١:١٣) ولكنه يسمح أن نجرب من قبل الشياطين كى ننتفع روحيّاً، لأنه يستطيع أن يحول مقاصد الشيطان الشريرة إلى نتائج خيرة معطياً إيانا إكليل الحياة إن ثبتنا وقت التجربة (يع ١:١٢).

وحتى فى حال سقوط المؤمن وتوبته يتعلم الانصياع ويتعرف على الأبعاد الحقيقية لذاته، فيتقى شر الكبرياء متكلاً فى ضعفه على الرب (٢كو ١٢: ٧-١٠).

كما أن الله يضع حدوداً لتجارب الشيطان بحيث لا تتجاوز إمكانية المقاومة

عند الناس جاعلاً مع التجربة منفذاً كى يستطيعوا أن يحتملوا (كو ١٠-١٣).

وحتى المجىء الثانى أى حين سيسلم الشيطان وملائكته إلى العقاب الأبدى (مت ٢٥:٤١) سيبقى إبليس خصماً كأسد زائر يلتمس من يبتلعه (ابط ٥:٨).

ولكنه أبدا لن يستطيع اغتصاب حرية الإنسان، أى أنه يقدر أن يستغل نقاط الضعف عن الإنسان ويستعمل شتى الوسائل لكى يزين له الخطيئة أو يجربه بالمضيقات لكى يبعده عن الرب، ولكنه لا يستطيع أن يجبره البتة على فعل المعصية.

هذا هو ما جاء فى الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد وهو تصور مختلف عما جاء عن عالم الملائكة فى الإسلام كما ذكرنا.

يخبرنا الكتاب المقدس أنه عندما خلق الله الملائكة فى البداية، كان لوسيفر - أى الشيطان - أجملهم وأقواهم وأحكمهم على الإطلاق.

وكلمة «لوسيفر» تعنى المشرق أو المضىء أو اللامع، فقد كان لوسيفر يفوق كل الملائكة فى المعرفة والحكمة والقوة والسلطة، إذ أعطاه الله جمالاً وذكاءً بلا حدود.

وكان من المتوقع أن يعبد لوسيفر الله ويحبه ويطيعه إلى الأبد، لأن الله خلقه وباركه بركة عظيمة، إلا أننا نقرأ فى كتب الأنبياء أن لوسيفر فى وقت ما احتقر الله، وامتلأ قلبه بالكبرياء، وقال لوسيفر فى قلبه: «أصعد إلى السموات، أرفع كرسى فوق كواكب الله، وأجلس متوجاً.. أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلى» (إش ١٤:١٣, ١٤).

إلا أن الله هو الله، وقد عرف كل ما كان لوسيفر وملائكته ينوون عمله، وأن لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً فى السر أمام الله؛ لأن الله يعرف كل شىء حتى قبل أن يحدث! لقد رأى الله الخطية التى كانت فى قلب لوسيفر وقلوب الملائكة الذين تبعوه.

فكتب الأنبياء تعلمنا أن الله إلهنا قدوس، وعيناه لا تستطيعان أن تنظرا الشر، وهو لن يعطى مجده لآخر، فالله متفرد، ولا يقدر أحد أن يأخذ مكانه.

يقول الكتاب المقدس إن الله طرد لوسيفر وملائكته الأشرار من محضره المقدس، وأصبح لوسيفر ومن تبعوه من الملائكة غير قادرين على السكنى فى السماء

فى بيت الله؛ وذلك لأنهم اخطأوا برغبتهم فى أن يحلوا محل الله، ولذلك طرد الله لوسيفر وملائكته الأشرار، فالله القدوس لابد وأن يدين ويعاقب كل من يتمرد ضده.

وبعد ما أخطأ لوسيفر، تغير اسمه ولم يعد اسمه لوسيفر المتألق، المشرق، المضىء، بل أصبح اسمه «الشيطان» والشيطان، كلمة تعنى «الخصم أو «العدو»[1] لقد أصبح لوسيفر عدو الله، والشيطان وملائكته - كما تعرفون - مازالوا يرفضون الله، ويرفضون كل ما هو صالح.

وحسب ما جاء فى الكتاب المقدس فإن الشياطين يرفضون كلمة الله وينكرونها، فالشيطان يحارب الله، ويحاول أن يفسد كل خططه ويعطلها، إلا أن الله هو القاضى العظيم، ولا أحد يستطيع أن يتفوق عليه! «فالبيضة ينبغى ألا تصارع الصخرة» كما يقول المثل ويقول الكتاب المقدس أنه بعد أن طرد الله الشيطان وملائكته، خلق الله لهم «نار جهنم» التى لا تنطفئ إلى الأبد.

وجاء فى نصوص رؤيا يوحنا: وسيأتى اليوم الذى يطرح فيه الشيطان وملائكته وكل من يتبعهم فى النار كما يقول الكتاب: «سيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين» (رؤ ٢٠-١٠).

إلا أن الكتاب المقدس يعلمنا أن الشيطان ليس بعد فى نار جهنم، إذ تقول كلمة الله إن الشيطان فى العالم، وهو يحارب الله فهو المدمر والمخرب، إذ يريد أن يدمر كل عمل لله، ويريد أن يهلك البشر الذين خلقهم الله، وأن يذهبوا إلى جهنم، تقول كلمة الله إن معظم الناس هم تحت سيطرة الشيطان، ولكنهم لا يدركون ذلك.

وذلك لأن الشيطان خداع إذ تقول كلمة الله «الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور» (٢ كو١١-١٤).

فهو يحاول أن يخدع الناس حتى لا يعطوا انتباهاً إلى كلمة الله، لذلك كتب واحد من أنبياء الله يقول: «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو» (١بط ٥:٨) فاصحوا أنتم إذا واسهروا! إبليس يريد أن يهلككم ويدمركم للأبد!

---

(١) هذا مفهوم كلمة الشيطان فى الكتاب المقدس، أما فى اللغة العربية فهى تعنى البعيد وفى الشرع البعيد عن رحمة الله.

جهنم فى الديانات الوثنية

5

١- جهنم فى الديانات اليونانية القديمة
٢- جهنم عند الشعوب الإفريقية
٣- جهنم عند الحضارات والديانات الأمريكية القديمة
٤- جهنم عند الألمان القدماء «الجرمانيين» والسكندنيافيين
٥- جهنم فى بلاد ما بين النهرين القديمة
٦- جهنم عند رجال الدين الشامنيين
٧- جهنم عند الفراعنة القدماء
٨- جهنم فى الديانة الهندوسية الهندية
٩- جهنم فى الديانة الفارسية المزدكية

١- جهنم فى الحضارة اليونانية القديمة

تمتلئ النصوص الأدبية اليونانية والأساطير بحكايات الرحلة إلى الجحيم وهنا تطور اسم الجحيم إلى (GE-Hinom) جهنم فكانت هذه أول تسمية للجحيم باسم جهنم جهنم «جيهينوم» أى جهنم ، وتتنوع العذابات فى الجحيم بشكل أوسع من ذى قبل.

ففى الإلياذة والأوديسا يبدو الهالكون كأنهم ضحايا انتقام الإله «زفس» الذى يرسل إلى جهنم كل من يخالف رغباته، وجاء فى الأوديسة أن «عولس» عندما زار الجحيم شاهد تعذيب أبطال روما.

ورأيت تيتيوس وعلى خاصرتيه نسران يمزقان كبده ويغرزان منقاريهما فى أحشائه دون أن يحاول إبعادهما بيديه لأنه كان اغتصب صاحبة المجد ليتو زوجة زفس فيما هى ذاهبة إلى بيتو عبر بانويه مدينة الجوقات الجميلة، ولمحت أيضاً تانتال الذى كان يلقى عذاباً واقفاً فى بحيرة.

وكان الماء يصل إلى ذقنه وبالرغم على شدة عطشه فلا يستطيع بلوغ الماء - العقاب بالعطش سيتطور فى الأديان التالية - وكل مرة كان هذا الشيخ ينحنى راغباً فى إطفاء لهيب عطشه لكن الماء كان يهرب منه وتبتلعه الأرض وعند قدميه كانت تظهر أرض سوداء يجففها أحد الآلهة.

وكانت أشجار سامقة الأوراق غضتها تدلى ثمارها فوق رأسه وكلما كان الشيخ يمد ذراعيه ليقطفها تقذفها الريح نحو الغيوم.

ورأيت سيزيف يعانى آلاماً حادة: كان يدفع بذراعيه صخرة ضخمة نحو رأس التلة وكلما كاد يجتاز القمة كانت الكتلة الصخرية تقذفه إلى الوراء وكان سيزيف يعاود الدفع بكل قواه والعرق يتصبب منه والغبار يعقد هالات فوق رأسه.

وتقول الإلياذة: «وكان من نصيب هاديس ظلمات ضبابية ومن نصيب زفس

السماء الفسيحة والمدخل إلى هذا العالم الكئيب التحت أرضى هو عند نهاية الأرض، عند المغيب ويثير الرعب وقال عولس: (كريه مثل أبواب هاديس) بينما أخيل يصرح أكره مثل أبواب هادليس.

ويقول فى مكان آخر: «أفضل أن أكون خادم بقار فقير على أن أحكم جماعة الظل».

إن الجحيم اليونانية تصور على أنها عالم مقفل يشبه هسيود بجرة عملاقة أو بكهف والنهر المحيط يفصله عن عالم الأحياء مع روافده وجوه رطب عابق بالعفونة.

ويعرف الأبرار والأشرار نفس المصير فكلهم فى الجحيم!!

ويقول عولس حينما هرب من الجحيم: «وكانت نفوس الأموات فى قعر إيريب زوجات فتيات والمحاربون المثخنون بالجراح كانوا يتوافدون جماعات نحو الهاوية، محدثين ضجيجاً عجيباً أما أنا فقد أصبت برعب كالح».

■■■

٢- جهنم عند الشعوب الإفريقية القديمة والحديثة

شعوب السباسب التى وراء الصحراء تعتقد أن جهنم مكان فى باطن الأرض، فجهنم قبيلة السيرير (Serere) فى السنغال، هى فى هونولو (Hunulu)، فى باطن الأرض، وهو مكان مشؤوم حيث يفقد الإنسان قواه شيئاً فشيئاً.

ولقبيلة الديولاس (Diolas) فى المنطقة ذاتها مفهوم طريف أكثر ارتباطاً بالفكرة الأخلاقية، وهى أن الإنسان مركب من ثلاثة أقسام، قسم صالح وقسم شرير وقسم ممتاز، وعند الموت يتلاشى القسم الشرير، والقسم الممتاز يذهب إلى الجنة ويعود القسم الصالح من جديد إلى الحياة.

والمصير الذى ينتظر الميت يتعلق بنسبة هذه الأقسام بعضها إلى بعض؛ فإذا كان القسم الشرير هو الغالب، يتلاشى الإنسان نهائيّاً.

غير أن الحياة تستمر أكثر الأحيان فى جهنم، كمرآة للحياة الأرضية ولكن مع تحول الليل نهاراً والنهار ليلاً، وانعكاس اليمين يساراً واليسار يميناً.

وهناك جماعة من المنبوذين الهالكين يقيمون حالياً دون أن يتلقوا أى عقاب، إنهم الهامشيون من كل نوع مثل المجانين والمعاقين جسديّاً وعقليّاً والمتوفين وهم فى وضع شاذ أو دنس مثل النساء وقت النفاس والفتيان والسذج وغرقى ومنتحرون ومصعوقون وضائعون، فكل هؤلاء، فى غينيا عند شعب الكيزيس (Kisis) فى «بلاد الأشرار» فى أحشاء الظلمات.

قضاء الله ينزل بأولئك الذين لا ينسجمون مع الجماعة؛ وإذ كانوا منعزلين على الأرض فلقد ظلوا منبوذين من مقر الأموات المعهود، دون أن يصابوا بعذاب أليم حسب مفهوم واعتقاد هؤلاء.

٣- جهنم عند الحضارات الأمريكية القديمة (الهنود الحمر)

كان الإنكا يؤمنون بأنه بعد هذه الحياة حياة أخرى تجلب العقاب للأشرار والسعادة للأبرار؛ ويدعون باطن الأرض أوكوباشا (Ucu Pacha)، أى العالم السفلى المعد مسكناً للأشرار؛ كانوا يعطونه اسماً آخر هو كايوبيا هواسين (Cupaipa Hu-acin) أى ما معناه «بيت الشيطان».

وكان الإنكا يؤكدون أن الحياة فى العالم السفلى «جهنم» مليئة بجميع الأمراض والشرور التي تصيبنا فى هذه الدنيا ولا وجود لأى راحة فيها.

وكانوا يؤمنون أيضاً بقيامة شاملة لحياة شبيهة بالحياة التى نعيشها على هذه الأرض.

عند شعوب المايا جحيم للجميع قائماً تحت الأرض لا يحتوى على أى نظام عقائدى.

أما مصير الموتى عند الأزتيك فهو أكثر تنوعاً لأنه خاضع لنوع الوفاة وليس للمسلك الأخلاقي، وجهنم عندهم هى الميتلان (Le Mitlan) تحت الأرض أيضاً، حيث يحكم ميكتلا نتكوهتلى (Mictla ntecuhtli) وشريكه ميكتلانسيهواتلك (Mictla ncihuatl)، ويبلغ الميت جهنم بعد سفر طويل شاق، يصل فى نهايته المحاربون الذين قتلوا فى المعركة إلى منطقة الشمس الشارقة والنساء اللواتى توفين أثناء الولادة إلى منطقة الشمس الغاربة، والأولاد الذين ماتوا فى سن الصغر إلى مكان حيث الأشجار تتخذ شكل أثداء.

ويقيم الغرقى والمصعوقون فى بيئة نضرة خصبة تدعى تلالوكان (Tlalocan).

وانقلبت هذه المفاهيم على إثر فرض المسيحية وقوانينها الأخلاقية واللاهوتية بعد هجرة الأوربيين البروستانت وراح الدومينيكان واليسوعيون يقولون إن هنود ما قبل الفتح جميعاً هم إلى خلود فى جهنم العذاب لأنهم لم يعرفوا الدين الحقيقى.

وأصدر مجمع «ليما» المنعقد سنة ١٥٥١ أمراً إلى الكهنة بأن يعلموا الهنود الحمر أن جميع أسلافهم وحكامهم هم الآن فى مقر العذاب لأنهم لم يعرفوا الله ولم يعبدوه أبداً، لكنهم عبدوا الشمس والحجارة ومخلوقات أخرى(١).

وقد أثار هذا الاعتقاد الذي يبرره التأكيد أن «لا خلاص خارج الكنيسة» نقاشاً حاداً داخل الكنيسة الكاثوليكية، وكشفت الأبحاث التى أجريت حول حالات الهذيان والرؤى لدى الهنود المكسيكيين أن أكثر من نصف هذه الحالات الهذيانية أو الكحولية على علاقة وثيقة بجهنم.

■■■

(١) الهنود الحمر هم سكان الأمريكتين الأصليون والذين أبادهم الفاتحون لبلادهم فيما بعد، اقرأ كتابنا الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية، الناشر دار الكتاب العربى.

٤- جهنم عند الألمان القدماء «الجرمانيين» والسكندنيافيين قبل المسيحية

جهنم الجرمانية هى الـ«هل» أو «المكان الخفى» عالم مظلم تحت أرضى، بارد يغشاه الضباب يتيه فيه الأموات.

وهذه اللفظة هى التى ستستخدم لتسمية الجحيم فى الإنكليزية (Hell) وفى الألمانية (Holl) وهى لفظة قريبة من كلمة ثقب (Holl و Hohle).

فى حين أن الكنيسة تفرض فى البلدان اللاتينية كلمة (Infernum) التى تعنى المكان السفلى و(Inferi) لجهنم الوثنيين!!

وجهنم أيضاً (لدى الجرمانيين والسكنديناڤيين) مكان بعيد مقفل يمكن الوصول إليه بعد سفر طويل معرض للأخطار، وهو بأغلبيته سفر بحرى.

وبعد تطورات كثيرة حدث التمييز بين مصير مختلف الأموات وقد يكون ذلك تحت تأثير عناصر خارجية.

وتوحى «تنبؤات نبيّة» وهى قصيدة متأخرة، بدينونة وعقاب على الأخطاء المقترفة على هذه الأرض، ولكن الوظيفة الاجتماعية هى المعيار الأساسى للتباين حيث يصبح الفالهلا (Walhalla)، مقر المحاربين الأموات قصراً فخماً حيث يقيم المحاربون الحفلات والولائم بصحبة أودان (Odin) هو إله الحرب عندهم ويدعى بالألمانية «فوتان».

والدخول إلى مملكة الأموات عند السكندينافيين والسلتيين هو أسهل بكثير، وكثير من الأبطال الأحياء استطاعوا أن يزوروها بعد سفر محفوف بالتجارب التدريبية، سفر تحت الأرض كالذى قام به البطلان نرا (Nerra) وكون (Conn).

وسفر إلى ما وراء البحار كسفر بران (Bran) وكونلا (Connla) ووازان

(Oisin) وكاشولين (Cachulain).

والنماذج الجهنمية التى تصنعها هذه الأساطير ليست أمكنة للعذاب، فجميع الموتى يقيمون فيها بلا تمييز أخلاقى.

وهذه الألفة بين العبور من عالم إلى آخر سمة ثابتة فى العالم السلتى التى لاتزال مستمرة فى الأساطير المسيحية للقديسين براندان وباتريك، ويمكن أن يحدث أن أبطالاً يذهبون إلى استعادة أشياء ثمينة من جهنم هذه كالقدر التى لا تنضب.

وجهنم السكندينافية، كما تروى أقدم الحكايات الميثولوجية، أكثر رعباً من جهنم السلتية.

ولكن يمكن ارتيادها كما فعل بعض الأبطال مثل هادينغوس (Hadingus) وهرمود (Hermod)، لإنقاذ بعض الأشخاص، والسفر التدريبى يتضمن، فيما يتضمن، اجتياز نهر وجسر، والهبوط يتضمن تسع طبقات تحت الأرض وجهنم هى فى مركز الأرض والإقامة فيها شؤم وكآبة.

■ ■ ■

٥- جهنم فى بلاد ما بين النهرين القديمة

أقدم النصوص التى تتحدث عن جهنم هى الألواح الأكادية من الألف الثانى ق.م وهى تروى الحوار الذى جرى بين البطل غلغامش وصديقه انكيدو الذى صعدت روحه من الجحيم.

والأرواح تتيه فى مكان مظلم مشحون بالغبار ويبوح انكيدو قائلاً:

«إن جسدى الذى كنت تلمسه مبتهجاً التهمه العث مثل ثوب عتيق، إن جسدى الذى كنت تلمسه مبتهجاً هو ملىء بالغبار».

وجهنم للوهلة الأولى عندهم مكان عام لكل الناس كما فى الحضارات القديمة السابقة، فالنماذج البدائية من الهالكين (edimmou) هى الأشخاص الذين كان مصيرهم على هذه الأرض تعيساً أو الذين خرجوا على القوانين، مثل: الذين أصيبوا بحوادث قاتلة، وضحايا الحرب، والذين لم يتسن لهم أن يواروْا فى أضرحة والذين لم يرزقوا أولاداً للعناية بقبورهم والغرقى والنساء اللواتى توفين أثناء الولادة والفتيات المدركات اللواتى متن عذارى، والزانيات اللواتى قضين بسبب الأمراض.

فهذه النماذج من الهالكين لا تخضع للتعذيب ولكنها، لكونها نفوساً ساخطة ومحبطة، تجتر مرارتها فتصبح عدوانية وشريرة، يعذب بعضها بعضاً وقد تعود أحياناً إلى الأرض تنغص على الأحياء عيشهم.

وهكذا فهم جلادو أنفسهم فى جحيم تشدد الرقابة عليه فلا يفلت منه أحد؛ إنه عقاب فعلى، لأن حالة هذه الكائنات التعيسة التى أصابها العقم وهى على قيد الحياة وتعرضت للأحداث والأمراض والفقر، وذلك نتيجة لعدالة ثابتة هى عبارة عن عذابات تنزلها بهم الآلهة نتيجة أعمال سيئة خفية.

وتكشف بعض الألواح الأكادية أن الذين يصابون بشر ما يذهبون إلى العراف

ليطلعهم على سبب تعاستهم، فيخضعون عند ذاك إلى استجواب مفصل يشبه محتواه ما نراه فى كتب الاعتراف فى الدين المسيحى.

فتذكر عشرات الخطايا الخاصة وأعمال انتهاك الحق العام قد يكون بعضها قريباً مما وصفته شرائع حمورابى الشهيرة التى يعود تاريخها إلى سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد:

«هل تفوه بكلام يثير الفتن، بكلام مهين؟ هل استعمل ميزاناً مغشوشاً؟ هل اختلس مالاً حراماً؟ هل نقل حدوده إلى أرض جاره؟ هل تسلل إلى بيت قريبه؟ هل اغتصب زوجة قريبه؟ هل سفك دم قريبه؟ ألم يخفف بلوى إنسان يعانى من الضيق؟ هل طرد شخصاً صالحاً من عائلته؟ هل شتت عائلة مجتمعة؟ هل تمرد على السلطة؟ هل كان فمه صادقاً وقلبه كاذباً؟ هل سار فى طريق الشر؟ هل تجاوز حد العدالة؟ هل عمل من الأعمال ما ليس صالحاً؟».

كل من يخالف القانون الاجتماعى الذى سنه الملك ينتهك النظام الإلهى الكونى، فيلحقه فى هذه الحياة، قصاص يحمل أوزاره إلى ما بعد الموت بتعرضه لمصير تعيس.

وتقول أغنية بابلية: «أنا خاطئ، ولهذا أنا مريض»، وإذا لم يحصل العراف على مغفرة الخطايا تحل الدينونة بالخاطئ التعيس.

وتوحى بعض الأساطير الأكّادية والسومرية التى تعود إلى عصر واحد بأن الأرواح تمثل عند الموت بكل جلاء، أمام الإلهة.

وهكذا فعلى الإلهة السومرية إنانا (Inanna) – عشتار عند الأكاديين – لكى تذهب إلى زيارة الجحيم حيث تحكم أختها إرشكيغال (Ereshkigal)، أن تعبر سبعة أبواب حيث ينتزع كل مرة ثوب من أثوابها، فتصل عارية تماماً.

وما تقع عليه عيناها لا يبعث إطلاقاً على السرور: «الغبار نصيبهم والصلصال طعامهم لا يرون النور بل يعيشون فى الظلمة، يلبسون كالطيور، الأجنحة أكيستهم، الباب والقفل يغشاهما الغبار»، الأرواح المجنحة تقتات بالوحول، لا أمل لهم بالفرار، سبعة أسوار ضخمة تحيط بجهنم.

ويهول العصر الأشورى من أمر منظر جهنم المخيف، ففى رؤيا الأمير كوما (Kumma) فى القرن الثامن ق.م تبدو مملكة إرشكيغال مأهولة بمسوخ الآلهة وحيث يوجه أنصاف رجال وأنصاف حيوانات، الأمر الذى يعتبر تقهقراً فى ظروف الحياة فى العالم الآخر.

■ ■ ■

٦- جهنم عند رجال الدين الشامنيين

الشامان هو كاهن رجل دين فى القبائل القديمة وأيضاً هو حكيم وساحر القبيلة.

والشامنيون أصلهم يرجع إلى آسيا الشمالية وأمريكا الشمالية ويمارسون طقوسا معينة.

والشاماني هو العارف والمسلح بقوى خاصة تسمح له، خلال طور من الانخطاف قد يدوم ثلاثة أيام وهو الذى يصحب الميت إلى مملكة الأموات ويساعد روحه على اجتياز العراقيل المنصوبة فى طريقها، لدى عودته يقدم عرضاً عن رحلته ويطلع الناس على تجاربه ويتم ذلك عن طريق طقوس اتصاله بالأرواح كما يدعى.

والطريق إلى جهنم، بالنسبة إلى هذه الشعوب، مزروع بالفخاخ، وأكثر ما يتكرر منها اجتياز جسر ضيق جدّاً وغالباً ما يكون بعرض الشعرة، يمتد فوق هاوية سحيقة حيث يسقط القليلو الخبرة.

ومصير الذين لا يجتازون الحواجز غامض، وهم عند التتار يقاسون عذابات يغرمهم بها الشيطان.

وليس العقاب عقاباً أخلاقيّاً إنه مسألة تلقين وتدريب.

والذين يتيهون هم أكثر تعاسة وجهلاً وحماقة مما هم أشرار.

وبإمكان كل إنسان أن يبلغ الجحيم باعتماده على دليل حاذق، والآلهة أنفسهم هم الذين أرسلوا الشامان الأول ليقوم بهذا الدور.

وعند التيبتيين وقبائل الموسو فى يونّان تبسط خارطة أمام الميت لتدله على طريق جهنم المحاطة بتسعة أسوار تفصل ما بينها جسور يحرسها الشياطين.

ثم بعد أن يجتاز المتوفّى سبعة جبال من ذهب يصل إلى شجرة «طب الخلود» وتعتبر تجارب الرحلة كمراحل تطهير.

وعند شعوب الألتاى على الإنسان أن يجتاز مسافات شاسعة وصحارى وجبالاً ومحيطات وسهوباً قبل أن ينحدر فى ثقب يوصل إلى سبعة أدراج هى حواجز أو بوداكات (Pudaks) يشوبها طابع تدريبى، ثم يصادف الجسر الشهير وأخيراً قصر أرليك خان، ملك الجحيم الذى تحرسه الكلاب.

والمسافر نفسه تجده عند سكان أستراليا الأصليين حيث تمثل بعض الرسوم سفر النفوس، فالطريق بطولها مزروعة بالعراقيل.

ويسهل الياكوتيوز وهم سكان ياكوتيا جمهورية تابعة لروسيا والأتراك الشرقيون السفر باستخدام أمواتهم الأجنحة وكذلك المغول.

والذين يصلون إلى هذه الأماكن تحت الأرض التى تحدها بدقة أسوار جبارة يتابعون أعمالهم الأرضية، ويحترمون التسلسل الاجتماعى.

ويحدد الإنسان أثناء حياته على هذه الأرض وضعه فى العالم الآخر، كل ذلك يحدث على الأرض.

ففى الجحيم يبقى الأقوياء أقوياء، وعند الشعوب المحاربة، كالمنغولين، يقوم بخدمة الميت كل الذين قتلهم على هذه الأرض، ولدينا هنا، فى الواقع، معتقد عام لدى الديانات وهو أن الأبدية تصنع على هذه الأرض.

والهامشيون غير المندمجين والذين لا يسهمون فى معيشة الجموع، هم الذين يعزلون بعيداً.

وأما عند الأسكيمو مثلاً، فالصيادون الفاشلون يرسلون إلى مكان تحت الأرض حيث يتضورون جوعاً، بينما يذهب المنتحرون، الذين لعملهم قيمة التضحية التى تقدرها الجماعة حق قدرها، إلى أسمى سماء مع الأبطال.!!

وأما ما تبقى من الجماعة فيحتشد فى مكان محايد، فى جهنم دون أى تمييز وكان هذا الاعتقاد القديم لدى شعوب آسيا الوسطى قد أذهل الرحالة المسيحيين الأولين مثل الفرنسيسكانى جان دوبلان كاريان (J.de Plan Carpin) فكتب فى القرن الثامن عشر: أنهم لا يعرفون شيئاً عن موضوع الحياة الأبدية والعقاب الدائم، فيعتقدون أنهم بعد هذه الحياة سيعيشون فى عالم آخر.

٧- جهنم عند الفراعنة المصريين

يعتقد الفراعنة بعودة الروح بعد الموت فى عالم آخر وبالتالى فقد شغلت الحياة الآخرة حيزاً كبيراً فى الأدبيات الفرعونية وسجلت على حوائط المعابد وأوراق البردى والأهرامات ولذلك تعد الميتولوجيا المصرية إحدى أغنى الميتولوجيات فى الشرق الأوسط ويتيح لنا امتداد هذه الحضارة على عدة آلاف من السنين والعثور على آلاف النصوص والرسوم الباقية، أن نعلم بدقة المفاهيم الخاصة بالجحيم، منذ الألف الثالث ق.م.

حيث يعطى الفراعنة أهمية عظمى لمصير الروح التى تتمثل بشكل مزدوج لدى كل إنسان حيث تقوم بعد الموت، بسفر طويل عبر مناطق غريبة كثيراً ما ترسم خريطتها على ناووس الميت.

ثم تصل إلى مكان دينونتها التى تتمثل طقوسها الدقيقة مرات كثيرة بشكل جدرانيات.

ويفترض هذا الأمر فصلاً واضحاً بين الخير والشر قريباً مما عرف فى حضارات ما بين النهرين.

ويسجل الكتاب الفرعونى الشهير «كتاب الأموات» لائحة المحرمات المقتصرة على مجتمع يرتكز العمل الصالح فيه على احترام قواعد الأعمال الزراعية كالرى وحدود الأملاك وواجبات الرقيق وعبادة الآلهة والأموات: «لم أرتكب غشاً ضد أى إنسان، ولم أزعج الأرملة، ولم أكذب أمام المحكمة، لم أعرف إيماناً فاسداً، لم أفرض على رئيس العمَّال من العمل أكثر مما عليه أن يعمل فى اليوم، لم أكن مهملاً، ولم يحدث أن كنت بطالاً، ولم أنتهك حرمة أى من المقدسات، لم أشك عبداً إلى سيده، لم أجوِّع ولم أقتل، لم أسرق أكفان الأموات ولا مؤونتهم، ولم أغتصب أرضاً، لم أنتزع اللبن من فم الرضع ولم أسد مجرى قناة».

ويتم قراءة هذا النص من قبل الميت أمام اثنين وأربعين قاضياً من المحكمة فى العالم الآخر أمام محكمة أوزيريس بعد أن يزن أنوبيس قلبه وبعد أن يقرأ توت النتيجة؟ «وتوت» هو إله العلوم والآداب عند الفراعنة.

ومصير الموتى الذين استسلموا كليا لسلطان الشر هو «موت ثان»، ونتيجة ذلك يدعى الهالكون «موتى» بمقابل «المتجلين» الذين ينضمون إلى مملكة أوزيريس.

وسيرورة هذا الموت الثانى غير أكيدة، فغالباً يمثل الأشرار محشورين فى أماكن ضيقة ومظلمة حيث يعبق نتن لا يطاق، يأكلون برازهم ويشربون بولهم، ويمشون على رؤوسهم ليعبروا بذلك عن أنهم عكسوا النظام الكونى.

ويخضع الهالكون، أكثر الأحيان، لعذابات تهدف إلى تحطيم الشخص وتحويله إلى عدم، تغلى أجزاؤه فى خلاقين وتحرقها أفاع تنفث ألسنة اللهب، وتلقى فى بحيرات من نار.

وقطع أخرى يفترسها أميت (Ammit)، حيوان مسخ له جسم أسد ورأس تمساح، وتهاجم عناصر الفرد بضراوة: جسده، ظله، نفسه (ألبا Le ba أو المبدأ الروحى).

كل هذه الأهوال تجرى «فى نطاق الإبادة» تحت العالم الأرضى (جهنم).

وهذه العذابات إذاً ليست خالدة، لأن غايتها إفناء الذين غدوا قوى الفوضى فى الكون والذين أساؤوا بتصرفاتهم إلى النظام الاجتماعى والكونى (Maat).

وغالبا ما يتكون انطباع أن لا نهاية لمسار التقطيع والتدمير، كما لو كان الشر مستعصياً على التحطيم[١].

■ ■ ■

(١) تاريخ جهنم - مصدر سابق.

٨- جهنم فى الديانة الهندوسية الهندية

تطور المفهوم الهندى لجهنم من مكان إقامة للجميع إلى عقاب من النوع الأخلاقى، ففى العصر الفيدى، فى الألف الثانى ق.م، كانوا يعتقدون أن الأموات يقيمون بلا تمييز، فى مكان تحت الأرض يدعى الكارتا (Le karta أى الثقب) والفافرا (Le Vavra أى السجن) أو البارشانا (أو الهاوية) وهو وجود شبحى كئيب لكائنات لا يبدون أية أحاسيس.

ويبرز الفرق الأول فى الريغ فيدا (Rig Veda) والاثرنا فيدا (Atharna) الجحيم حيث يسوء وضعهم، وكانت قد ظهرت لفظة ناراكا (Naraka) أى جهنم، بمعنى مكان تعذيب وتنكيل.

وفى نصوص البراماتا (Bramana) وأعمال المصلح شانكارا (Shankara)، فى القرن الثامن ق.م، تعارض جهنم مع الجنة بما يلائم التمييز بين مختارين وهالكين.

ومصدر التعقيد هنا التأكيد على التقمص (samsara) أو رحلة النفس من جسد إلى آخر، طالما لم تبلغ بعد النرفانا حالة الغبطة النهائية.

ولا يوجد للمعتقد الهندوسى الخاص بالعالم الآخر منطق معين لأن الهندوسية ديانة مؤلفة من أساطير متقاربة، لا عقائد فيها ولا مذهب متماسك فجهنم والتقمص لفظتان مختلفتان ولكن معناهما واحد.

فالشرير هو من تطغى عليه رغبة العيش المنفرد، الذى يسعى فى هذه الدنيا إلى المجد والثروة، كإنجاز شخصى وهو من تطويه الأنانية فى ذاته، فى أناه، ملاحقاً وهماً، متشبثاً بنهم العيش فى حين أن الحياة تعاسة وخداع.

إنه يتقمص كائناً أدنى أكثر مادية وشهوانية، أو ربما يذهب قبل تقمصه إلى

جهنم، إلا إذا كان الذاهب قرينه ظله البائس البريتا (Le Preta) «جسد العذاب» الذى ينحدر بسرعة الريح إلى مملكة ياما.

ويتضمن السفر الطويل اجتياز مستنقعات وقفار ونهر فايتارانيه (Vaitarane)، وهو مزيج من دم وقيح وبول.

وعند ذلك يتلو الإله سيتراغويتا (Citragoupta) سجل أعماله الصالحة وأعماله السيئة، فإذا تغلبت أعماله السيئة يذهب إلى جهنم، إلى الناراكا.

وهناك يَلْقَى العذاب المناسب لخطاياه الشخصية وتبعاً لخطورة هذه الخطايا، عقاب خاص بكل شخص يتميز بقساوة خارقة وتفنن لا يصدق: يمزق المسكين، يفسخ، يسحق، يقطع، يثقب، يفترس، يشوى، يجلد ثم يتقمص، تقسم جهنم إلى عدة منازل مخصصة لعدة عشرات من الملايين كما تروى بعض النصوص.

واستناداً إلى البورنا (Pourana) هناك سبع جهنمات أساسية تزداد عمقاً على التوالى ومقسمة إلى جهنمات ثانوية، إحداها المدعوة أسيباترافانا (Asipattravana) أى الغابة ذات الأوراق السيفية الشكل هى غابة لأشجارها أوراق ذات شفار حادة تقع على الهالك فتحدث له جراحاً وشروخاً كثيرة، فيعثر ويترنح على رماد حار وتمزقه كلاب مفترسة.

ولهذا العذابات التى يتحمل مسؤوليتها الهالك حد ونهاية، إذ يحتفظ دائماً بجزء من إله الكرمان (Le karman)، يساعده فى حياة جديدة لمقاومة شهوات الحياة.

وقد تبنت الديانات الكبرى فى الشرق الأقصى المفهوم والاعتقاد حيث تحتوى جهنم البوذية على ثمانية عشر قسماً من الحرارة والبرودة، وتحصى الديانات الصينية تسع جهنمات، وفى اليابان يعثر أيضاً على قراءة الكتاب الذى تدون فيه إحصاءات الأعمال السيئة ووزن النفوس، يقتل الهالكون بعضهم بعضاً،

يسحقون، يفترسون، يغرقون.

وفيما عدا التفاصيل التصويرية ذات المنشأ الشعبى فإن كل هذه الجهنمات

لها مغزى واحد، وهو أن كل من يختار الشر يحطم النظام الكونى الإلهى، ويعد لنفسه بنفسه مصيراً أخروياً مشوشاً من العذابات، لأن الشر الأساسى هى الفوضى، والفوضى هى العذاب.

وهذا ما يصرح به لاوتسو حوالى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد: «إن من يتحد بالفضيلة، تستقبله الفضيلة، ومن يتحد بالشر، فالشر يستقبله».

■■■

٩- جهنم فى الديانة الفارسية المزدكية

الديانة الفارسية القديمة المزدكية أو الزاردتشتية نسبة إلى مؤسسها زاردشت تعتقد وتؤمن بأن الروح تسافر عبر السماء والقمر والشمس أو الأرض بقيادة فتاة وكلبين وتصل إلى جسر حيث مملكة أهورامزدا وهو العالم العلوى.

هذا الجسر عبارة عن سيف يجتازه الصالح على صفحته والخاطئ على حده، وعند ذالك، واستناداً إلى أحد النصوص «تقطع الطريق على النفس، فيقع رأسها أولاً، من أعلى الجسر، فى جهنم، وتتلقى التنكيل المناسب».

ويحدث هناك فصل بين الأخيار والأشرار، وهذه العقيدة جاء بها زاردشت فى القرن السابع قبل الميلاد.

جاء ذكر مذهبه – المزدكية – فى نصوص الأفستا وحسب ما جاء فى المزدكية فإن مصير الإنسان بعد الموت تقرره خياراته فى هذه الحياة، وإن النفس، المبدأ الروحى، والقادرة على الإحساس والانتقال، تفصل عن الجسد، وفى اليوم الرابع تواكبها أرواح صالحة وشياطين فتصل إلى مكان الدينونة التى يقع بها ثلاثة آلهة هم مهر وراشو وسروش (Srosh و Rashu و Mihr).

ويتم الحساب بوزن أعمالها بميزان من ذهب وتؤمر بعد ذلك باجتياز «جسر الثواب».

فالبنسبة إلى النفس الشريرة التى فضلت فى هذه الحياة إله الشر أنغرا ماينيو (Angra Mainyu) يتقلص الجسر وتسقط فى جهنم.

ولا تعطى ترانيم زرادشت الليتورجية (les gathas) أية تفاصيل دقيقة عن مصيرها: «ظلمات تدوم زمناً طويلاً، طعام نتن، صرخات يأس وضيق. تلك هى الحياة التى استحقتها أعمالكم الخاصة عدوة الإيمان».

وقد حملت نصوص متأخرة بعض التفاصيل المتنوعة، فبالنسبة إلى البعض تحتوى جهنم على ثلاثة أقسام مخصصة: أحدهما للأفكار السيئة والثانى للكلام السافل والثالث للأعمال الشريرة، وفى الأسفل «ظلمات لا تنتهى» للذين كانوا أشراراً بكليتهم.

وهى بالنسبة إلى آخرين، طبقات مختلفة تتناسب مع ثقل الخطايا: ففى الطبقة العليا، فى (هامستاغان الظالمين) الخاص بالذين لم يكونوا متوغلين فى الشرور، العذاب مقصور على الحرارة والبرودة اللتين تحملهما تيارات هوائية.

وفى الطبقات السفلى، يُحشر الخطأة فى ظلمات، وفى برد جليدى ويطعمون دماً وصديداً وقيئاً ولحماً تعج فيه الديدان، وتعذبهم الشياطين التى تجسد الخطايا التى اقترفوها فى حياتهم.

إنها عذابات لا نهاية لها ثلاثة أيام تتراءى كتسعة آلاف سنة، ولكنها ستنتهى عندما يأتى المخلص «الحى» الذى بعد أن يولد من عذراء يطهر العالم من الشرور بواسطة النيران.

وتنتشر هذه الفكرة الأخيرة فى عصر البارثيين فى القرن الثانى ق.م. مع التبشير بمجىء المطهر الذى سيولد فى كهف من عذراء فى الخامس والعشرين من كانون الأول ديسمبر، ويحمل للخير مجداً حاسماً وانتصاراً لأهورا مزدا (Ahura Mazda).

■ ■ ■

6

جهنم عند الفلاسفة والشعراء القدماء

- جهنم عند الشعراء اليونانيين القدماء، غير جهنم فى تصور الفلاسفة
- جهنم فى الفلسفات القديمة والحديثة

١- عند الوجوديين القدماء

٢- فى الجمهورية الأفلاطونية

«جهنم» عند الفلاسفة والشعراء اليونانيين القدماء

الحضارة اليونانية الإغريقية القديمة هى أم الحضارات الأوربية ذات ملامح ميزتها عن باقى الحضارات الإنسانية الأخرى فى العالم حيث اصطبغت بطابع الفلسفة والكلام والشعر.

وقد كثرت المؤلفات اليونانية القديمة حول العالم الأخروى وجهنم مثل مؤلفات هسيو وهوميروس فى القرن الثامن قبل الميلاد حيث ظهرت جهنم كمكان يزوره الآلهة الأبطال، وشخصيات أخرى خرافية مثل الملك تيزيه الذى حكم أثينا وأنقذها من نيرمينوس.

وقد حكم على الملك تيزيه بالجحيم وأنقذه منه البطل الخرافى «هيراقليس».

وكذلك ذهب إلى الجحيم ديونيسوس لإنقاذ أمه سيتيليه وهكذا الأساطير اليونانية زاخرة بتلك القصص الخرافية.

ومن كتب الأساطير والخرافات اليونانية القديمة التى ذكرت الجحيم وأهواله وأبطاله التيوغونيا والإلياذة والأوديسة.

وقد جاء فى الأوديسة أن «عولس» عندما زار الجحيم شاهد تعذيب بعض الأبطال المشهورين حيث جاء فى نصوص الأوديسة:

ورأيت أيضاً تيتيوس ابن الأرض المجدة؛ كان يرقد على الأرض ويغطى بجسده مساحة تسعة فدادين، وعلى خاصرتيه نسران يمزقان كبده ويغرزان منقاريهما فى أحشائه دون أن يحاول إبعادهما بيديه لأنه كان قد اغتصب صاحبة المجد ليتو (Leto) زوجة زفس فيما هى ذاهبة إلى بيتو (Pytho) عبر بانوبيه، مدينة الجوقات الجميلة «ولمحت أيضاً تانتال (tantale) الذى كان يلقى عذابا واقفاً

فى بحيرة، وكان الماء يصل إلى ذقنه، وبالرغم من أنه كان شديد العطش لم يكن يستطيع بلوغ الماء.

وكل مرة كان هذا الشيخ ينحنى راغباً فى إطفاء لهيب عطشه كان الماء يهرب منه وتبتلعه الأرض.

وعند قدميه كانت تظهر أرض سوداء يجففها أحد الآلهة.

وكانت أشجار سامقة الأوراق غضتها تدلى ثمارها فوق رأسه، وكلما كان الشيخ يمد ذراعيه ليقطفها بيديه، كانت الريح تقذفها نحو الغيوم الداكنة.

ورأيت أيضا «سيزيف» يعانى آلاماً حادة: كان يدفع بذراعيه صخرة ضخمة نحو رأس التلة، ولكن كلما كان يجتاز القمة كانت الكتلة الصخرية تقذف به إلى الوراء.

ويتدحرج الحجر الوقح، من جديد، نحو السهل، وكان سيزيف يعاود الدفع بكل قواه والعرق يتصبب من أعضائه والغبار هالات فوق رأسه (نشيد XI).

ويبدو أن الجحيم هو مصير مشترك لكل الناس، واستناداً إلى مؤلفات فكتور بيرار، فإن الفقرة السابقة قد تكون نصّاً حُرّف فيما بعد، فى حين أن النص الأولى لهوميروس كان متكتماً جداً حول وجود التعذيب.

وعلى أى حال فإن مفهوم عالم الأموات هذا هو مفرط فى التشاؤم ويكشف عن خوف ظاهر لدى المجتمع اليونانى القديم الذى يمجد الحياة الأرضية تحت الشمس.

وجاء أيضاً فى الإلياذة: «وكان من نصيب هاديس ظلمات ضبابية ومن نصيب زفس السماء الفسيحة».

ومكان هذا العالم الكئيب تحت الأرض عند نهاية الأرض، عند مغيب الشمس.

قال عولس: «كريه مثل أبواب هاديس».

بينما أخيل يصرح: «أكره مثل أبواب هادليس».

ويقول فى مكان آخر: «أفضل أن أكون خادم بقار فقير على أن أحكم جماعة الظل». غير أن مصير أولئك الذين لم يحصلوا من الدنيا على قبر، مثل فطرقل،

والذين لم يستقبلوا فى الجحيم، هو أسوأ: إنهم يتيهون بلا مأوى حول المدخل.

ويشبه هسيود الجحيم بأنه عالم مقفل مثل جرة عملاقة، أو بكهف، والنهر المحيط يفصله عن عالم الأحياء مع روافده: الستيكس والكوسيت والأكيرون جوه رطب وعابق بالعفونة.

يقوم قاضيان بمحاسبة الناس والقاضيان رادا مونت البطل القريطشى وأخوه مينوس، وكلاهما مشهور بعدالته وحكمته ويتم وضع الأبرار من الناس فى مرج من الزنبق أو فى «سهل الفردوس»، وآخر ملامح الحذر تجاه العالم الآخر هذا هو أن نفوس الأموات تهدد الأحياء حيث أخبر عولس ذلك واضطر إلى الفرار:

وكانت نفوس الأموات تحتشد فى قعر إيريب (Erebe): زوجات فتيات، شبان، شيوخ حنكتهم الحياة، عذارى نضرات لم تذق قلوبهم الرخصة آلاماً أخرى.

وكم من المحاربين المثخنين بجراح الحراب المحمية بالبرونز، ضحايا آرس بسلاحهم الذى يقطر دماً كانوا يتوافدون جماعات من كل حدب وصوب حول الهاوية، محدثين ضجيجاً عجيباً، أما أنا فقد قبضنى رعب كالح» (الأوديسة، نشيد XI).

هكذا كانت المرحلة الأولى فى الحضارة اليونانية القديمة من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد، حيث استلهم الكُتّاب والشعراء فكرة الجحيم وهو عالم غيب للإلهة اليونانية وأصبحت صورة الجحيم مصدر وحى وإلهام لهم وكان على رأس تلك الآلهة اليونانية فى ذلك الزمان الإله زفس فى عقيدتهم كان يجازى الموتى على الأخطاء التى ارتكبوها فى الدنيا وقد سجل ذلك «إسخيلوس» وشاركه الرأى هذا بندار وسوفوكل وأريستوفان، هذا هو رأى الكتاب والشعراء.

أما الفلاسفة فكان لهم رأى آخر، حيث كانوا يعتقدون بفناء الجسد والروح وبالتالى فلا حساب أخروى لأنه لا وجود للخلق واعتقدوا أن فكرة الآلهة التى تحاسب الناس على أعمالهم الدنيوية أمر غير معقول ومقبول من ناحية العقل وأن الآلهة إذا كانت موجودة فلا علاقة لها بالناس وحياتهم وأن عالم الآلهة غريب عن عالم البشر.

وفى هذا قال أرسطو: أن موت الفرد كونه شاملاً النفس والجسد إذا فلا وجود لجهنم فى العالم الآخر، والإنسان يتعلق فى هذه الحياة بقيم فاسدة يسبب لنفسه التعاسة(١).

وهكذا رفض الفلاسفة اليونان والرومان أيضاً فكرة وجود الجحيم.

واستقرت مفاهيم الجحيم إلى ثلاثة أقسام رئيسية فى الفكر اليونانى والرومانى، حيث الوجودية والتى ترى أن جهنم على الأرض ولا تؤمن بالعالم الآخر، وجهنم أفلاطون فى مدينته الفاضلة، وجهنم الشعبية أو جهنم فرجيل.

وكل هذه الأفكار حول جهنم لا تعترف بوجود عالم آخر أو حياة بعد الموت ولذلك فإن الفكرة حول جهنم كلها مرتبطة بالفكر الوجودى الفلسفى.

■■■

(١) انظر تاريخ جهنم.

١- جهنم الدنيوية الوجودية النابعة من أفكار الشاعر الرومانى « لوكريس » والوجودية الحديثة

ترتكز مفهوم جهنم الوجودية على أفكار «لوكريس» الشاعر والفيلسوف الذى ولد عام ١٠٠ قبل الميلاد وتوفى عام ٥٥ قبل الميلاد وقد وضع أفكاره الفلسفية فى قصيدة شعرية فى ستة أجزاء عنوانها «فى الطبيعة» وهى شرح لأفكار الفيلسوف ابيفور وحدد فيها مفاهيمه عن الجحيم.

قال لوكريس: لا تنتظروا شيئاً من العالم الثانى فهو ثمرة مخيلات الشعراء، الموت هو المخرج الوحيد من هذه الوحدة وهو شامل وحاسم فلا خوف من أية جهنم فائقة الطبيعة.

هكذا حدد لوكريس من خلال خواطره أنه لا وجود لجهنم وأنها من اختراع الأديان وغايتها تخويف الناس، وأن جهنم الحقيقة الواقعية وأنها القلق المقترن بالوجود ذاته.

أن تحيا يعنى أن تخاف، تخاف من الموت، من الألم ومن المرض والعقاب ومن الآلهة، ومن عذاب الضمير.

وهذا الخوف من الشرور الحقيقية لا ينفصل عن الحياة.

وكذلك رأى أن الجحيم هو أن يحاول كل إنسان الهرب من ذاته وأن الحل هو الموت، ولذلك فقد انتحر لوكريس فى سن الخامسة والأربعين لينهى حياته التى ظن أنها تنتهى عند موته!!

حيث أنه ظن أن جهنم فى الأرض ولا شئ بعد الموت .

وفى كتاب «فى الطبيعة» ينقل لوكريس أساطير جهنم إلى الحياة الأرضية، فيعطيها قيمة رمزية مؤلمة: «وكذلك بكل تأكيد، فجميع العذابات التى يضعها التقليد فى الأكيرون، جميعها، مهما كان نوعها، إنما نجدها فى حياتنا، فليس ثمة، كما تقول الخرافة، من تانتال تعيس يخاف دوماً الحجر الضخم المعلق فوق رأسه ويشل قواه خوف لا أساس له، ولكن بالأحرى هو الخوف العبثى من الآلهة الذى يقلق حياة الفانين والخوف من المصائب التى يهدد القدر كل واحد بها.

ولا وجود كذلك لتيتيوس ممداً فى الآكيرون تمزقه العصافير، تلك التى لا تعثر فى صدره الرحب على ما تبحث عنه مهما طال الزمن.

ومهما كانت ضخامة جسمه الممدد تثير الرعب، فهو، مع ذلك بدلاً من أن يغطى تسعة فدادين بأعضائه المقطعة، فهو يغطى الأرض بكاملها، وهو لا يستطيع أن يتحمل حتى النهاية، عذاباً أبديا ولا أن يقدم من جسده مرعى لا يعرف الجفاف.

لكن تيتيوس هو بالنسبة إلينا يعيش على الأرض: إنه الرجل المتمرغ فى الحب، الذى تمزقه نسور الحسد ويفترسه القلق المحض، والذى ينفطر قلبه بسبب الآلام المبرحة لهوى من الأهواء.

وسيزيف نفسه موجود أيضاً فى هذه الحياة، لقد رأيناه بأم عيوننا يلتمس من الشعب المغازل والفؤوس المرعبة، ويعود فينسحب دائماً مدحوراً مشحوناً صدره حزناً وأسى.

لأن السعى إلى السلطة التى ليست إلا وهماً ومستحيلة المنال وتحمل المشقات المضنية إلى ما لا نهاية فى هذا السعى، هو بالفعل دفع دؤوب للحجر على منحدر الجبل، الحجر الذى لا يكاد يصل إلى القمة حتى يسقط من جديد ويتدحرج إلى الأسفل، إلى السهل.

وعلى مثل ذلك، تغذية رغبات نفسنا العقوق دون هوادة وإثقالها بالخيرات دون التوصل أبداً إلى إشباعها، وذلك على طريقة الفصول عندما تحمل لنا فى عودتها السنوية نتاجها وخيراتها المختلفة دون أن تشبع نهمنا إلى الملذات.

وهذا، كما اعتقد، ما ترمز إليه هذه الفتيات فى عمر الزهور المشغولات فى صب المياه فى إناء لا قعر له ومهما بذلن من الجهود فلا يستطعن ملأه، وأيضاً سيربير والإلهات الساخطات (Les furies) وانعدام النور فى الترتار الذى ينفث فمه اللهب لا توجد فى أى مكان ولا يمكن أن توجد.

ولكن بمقابل المساوئ الكثيرة فى الحياة خوف جسيم من العقاب؛ وبمقابل الإثم تكفير: سجن وسقوط مخيف من أعلى الصخرة ومقاريح وجلادون وأصفاد وقار ونصال وجمر ومشاعل من نار.

فى هذا العالم حسب اعتقاد لوكريس تصبح حياة الحمقى جهنماً حقيقية(١)

فالوجودية تيار فلسفى يعلى من الإنسان ويؤكد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه، وهى حركة فلسفية تقترح بأن الإنسان كفرد يقوم بتكوين جوهر ومعنى لحياته وظهرت كحركة أدبية وفلسفية فى القرن العشرين، على الرغم من وجود من كتب عنها فى حقب سابقة قبل الميلاد مثل كتابات لوكريس كما ذكرنا.

والوجودية توضح أن غياب التأثير المباشر لقوة خارجية «الإله» يعنى بأن الفرد حر بالكامل ولهذا السبب هو مسؤول عن أفعاله الحرة، والإنسان هو من يختار ويقوم بتكوين معتقداته والمسؤولية الفردية خارجاً عن أى نظام مسبق.

وهذه الطريقة الفردية للتعبير عن الوجود هى الطريقة الوحيدة للنهوض فوق الحالة المفتقرة للمعنى المقنع (المعاناة والموت وفناء الفرد).

يرى رجال الفكر الغربى أن «سورين كيركجارد» (١٨١٣ - ١٨٥٥م) هو مؤسس المدرسة الوجودية الحديثة من خلال كتابه «رهبة واضطراب» أشهر زعمائها المعاصرين هم:

جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسى.

القس جبريل مارسيل وهو يعتقد أنه لا تناقض بين الوجودية والمسيحية.

---

(١) انظر كتاب فى الطبيعة - لوكريس جـ٣

كارل جاسبرز: فيلسوف ألمانى.

بليز باسكال: مفكر فرنسى.

بيرد يائيف، شيسوف، سولوفييف فى روسيا.

وهؤلاء ومن اتبعهم من ادعياء الفكر يؤمنون إيماناً مطلقاً بالوجود الإنسانى ويتخذونه منطلقاً لكل فكرة، ويعتقدون بأن الإنسان أقدم شىء فى الوجود وما قبله كان عدماً وأن وجود الإنسان سابق لماهيته. يعتقدون بأن الأديان والنظريات الفلسفية التى سادت خلال القرون الوسطى والحديثة لم تحل مشكلة الإنسان.

ويقولون إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكلى للإنسان ومراعاة تفكيره الشخصى وحريته وغرائزه ومشاعره.

ويقولون بحرية الإنسان المطلقة وأن له أن يثبت وجوده كما يشاء وبأى وجه يريد دون أن يقيده شىء.

ويقولون إن على الإنسان أن يطرح الماضى وينكر كل القيود دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقية.

ولا يؤمنون بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الناس وتضبطه إنما كل إنسان يفعل ما يريد وليس لأحد أن يفرض قيماً أو أخلاقاً معينة على الآخرين.

ولهذا كله كانت الوجودية الحديثة والقديمة لا تؤمن بالآخرة ولا بالجنة والنار ولا غيرهما وهى تنقسم إلى قسمين: (وجودية) ملحدة، و(وجودية مسيحية).

أما الوجودية الملحدة فمن أبطالها فى عصرنا الحاضر: (جان بول سارتر) وقد ولد عام (١٩٠٥م) ومارس التدريس فى (الهافر) ثم فى المعهد الفرنسى بـ(برلين)، واعتقل عام «١٩٤٠» ولبث سنة كاملة فى السجن، ثم تخلى عن مهنة التدريس وقد تأثر فى فلسفته بمؤلفات (هوسرل) و(هايدرجر) وقد كان شيوعياً فى ابتداء أمره، ثم عدل عن ذلك إلى (الوجودية) التى تزعمها، وصار على طرفى نقيض مع الشيوعية، ولذا كل من الفريقين يحارب الآخر ويهاجمه أشد مهاجمة، لكنه بعد يعتقد بأن المستقبل للاشتراكية، لأن ظروفها باقية، ولسارتر مكان خاص

فى (باريس) يرتاده مريدوه، لكن (سارتر) بمبدئه (الوجودى) عاجز عن الإدارة التى تتطلبها الظروف الراهنة، ولذا يتنبأ المراقبون السياسيون للتيارات: أن مبدأه مكتوب عليه بالفشل.. ولسارتر آراء خاصة حول (الكون) و(الإنسان) و(النظام) و(الأخلاق) وما إليها، وكثيراً ما يميل إلى صب آرائه فى القوالب القصصية، مما يجعل فهم آرائه أصعب، والوجودية ليست مبدءاً اخترعها هو بل كانت من ذى قبل وإنما نفخ وجعل لها قوالب جديدة.

أما الوجودية المسيحية فمن أبطالها: (غابريل مارسال).

وهاتان الوجوديتان: وإن كان بينهما نقاط من التفاهم، إلا أن بينهما نقاطاً أكثر من الاختلاف كالاختلاف الكثير بين اتجاهات رجال كل تيار من (الملحدة) و(المسيحية) فالوجودية فرق ومذاهب، وإن جمعت الكل خطوط رئيسية.

٢- الجحيم عند «دانتى»:

الخير والشر والنار والجحيم هو من الثنائيات الضدية فى الفلسفة فى المخيلة البشرية وبطلا هذه الثنائية (نستغفر الله تعالى) هما الله والشيطان كما يقولون، وقد اعتقد الفلاسفة القدماء وجود مملكتين، مملكة الفضائل ومملكة الشيطان، ولهذا نظم الشعراء الفلاسفة الكثير من الأعمال حول مملكة الشيطان وجهنم، وقد أوجدت المخيلة البشرية هذه الثنائية الضدية بدافع أخلاقى، حتى يكون ثمة هداية للبشر من ثواب وعقاب، وحتى لا يصبح المجتمع فوضى لا ناظم له.

وقد تكون الجحيم فى كوميديا دانتى أوضح من أى جحيم أخرى فى جغرافيتها وتضاريسها الدقيقة، ولكنها لا تختلف من حيث المدلول الأخلاقى، وكنمط أولى عن أى جحيم أخرى.

فقد أضاف دانتى الشىء الكثير من التفاصيل على جحيم فرجيل، وفرجيل أضاف الكثير من التفاصيل على الجحيم اليونانى، لكن الجحيم تظل نمطاً أوليا دلالته المحددة التى تتجلى فى كل الآداب ويكفى أن نقف على صورة الجحيم فى محاورة «فيدرون» لأفلاطون حتى ندرك أن المغزى الذى تحمله هو مغزى واحد،

فاللغة الأخلاقية تستمر فى كل الآداب.

لكن الإغريق كانوا يجمعون بين الثواب والعقاب فى عالم واحد هو «العالم الآخر» الذى يذهب إليه جميع البشر فينالون ما يستحقون والفصل بين الجنة والنار فى الأدب تم على أكمل وجه فى «الكوميديا الإلهية» على يد دانتى.

ولو أن كتاب بوديكن «الأنماط الأولية فى الشعر» طال مسرحية «الجحيم» لجان بول سارتر لما تغيرت صورة النمط الأولى، على الرغم من تغيير جغرافية الجحيم، إن جحيم سارتر عبارة عن غرفة فقط، ليس فيها نهر اخيرون ولا فليثون ولا سيكس، وليس فيها مدينة هاديس ولا البولجيات الدانتية، ولا أبالسة بحرياتهم المثلثة التى يعذبون بها رواد الجحيم فى (الجحيم) لا وجود لعذاب من النوع الذى قدمه لنا الأدب القديم.

إن الجحيم هنا هو استبعاد للحياة الطبيعية على الأرض، فكيان البطل «غارسان» هو كيان بشرى، لكن حجزه فى هذه الغرفة هو نفى لكيانه، أو حجز لحريته النفسية، كل ما يطلبه يؤمن له سوى أنه يمنع من مغادرة هذه الغرفة، وهذا الألم برأى سارتر هو من أقسى أنواع الألم الذى يكابده الإنسان.

فما دامت الجحيم مملكة الألم، فلا فرق بين جحيم سارتر وجحيم أفلاطون، أو جحيم فرجيل وجحيم دانتى.

إن حارس الجحيم سربريوس، الكلب ذا الرؤوس الثلاث، لا يسمح إلا للمجازين أن يدخلوا إلى الجحيم، وبهذا لا يكون ثمة فرق بينه وبين التشريفاتى فى جحيم سارتر.

فإذا كان المغزى الأخلاقى هو المقصود، وهو الذى يرمى إليه الأدب، فلا يعود مهما رسم جغرافية الجحيم، أو وصف العذابات التى يعانى منها الرواد البائسون" حجزت حرياتهم، أو طعنوا بالحريات الثلاثية المناخر.

لقد كان سارتر يعلن إلحاده بكل مباهاة، ويرفض كل وجود خارج الوجود الإنسانى، إن الماهية هى الوجود، فلا وجود لماهية سابقة على الوجود البشرى،

وجحيمه لا يختلف عن أى جحيم فى الأدب، ذلك أنه مضطر إلى احترام التقليد الأدبى فى ربط الجحيم بالمغزى الأخلاقى للوجود البشرى.

إن سلطة الأدب أقوى مما نتصور بكثير، ولو كان أمامنا مندوحة فى هذا الموضوع لما انتهينا من الأمثلة التى تدل على أن النظام الأدبى واحد منذ القديم وحتى عصر حرب النجوم.

ولا يستطيع المعجبون بإلحادية سارتر أن يأتوا بمثال واحد يدل على أنه تمرد على التقليد الأدبى رغم هذه الإلحادية التى أعجبوا بها.

وحتى الآن لا يعرف التاريخ أحداً جرؤ على إعلان تمرده فى وجه النظام الأدبى الأخلاقى، وحبذا لو كانت مود بودكين عرجت على نموذج من أمثال سارتر فى كتابها.

وما يقال عن الجحيم كنمط أولى يقال عن الجنة وعن الشيطان والله والبطل الذى يريد أن يسمو فوق مستوى البشر، وأن يقدم لهم سبل الخلاص وعظاً وإرشاداً ووسائل حضارية، أو تضحية بالنفس من أجل خير البشر.

لقد أكدت مود بودكين على الثنائيات الضدية فى المخيلة البشرية، كما أكدت على نقطة هامة فى الأنماط الأولية وهى أن هذه الأنماط هى أنماط حياتية لا تقتصر على الحلم والأدب، بل نجدها فى الأنتروبولوجيا وعلم اللاهوت وعلم الاجتماع والفلسفة والفن، بل إن هذه الأنماط تؤثر فى مجرى التاريخ ذاته.

■ ■ ■

جهنم الشعبية فى فلسفة وأشعار «فيرجيل» «الإنياذة»

مازلنا نتحدث عن جهنم والجحيم عند الفلاسفة القدماء، حيث الشاعر الفليسوف ليوس فرجيليوس مارو أو اختصاراً فيرجيل المولود فى أكتوبر عام ٧٠ قبل الميلاد المتوفى عام ١٩ قبل الميلاد أى أنه شاعر رومانى ولد فى مزرعة شمال إيطاليا الحالية وانتقل إلى روما.

كسب فيرجيل شهرته فى الإمبراطورية الرومانية عقب كتابته لمجموعة شعرية أسماها «قصص ريفية» أو إكلوغاى ثم ألف جيورجيكون أو العمل فى الأرض ثم قصيدته الشهيرة الإنياذة قضية إينياس والتى ذكر فيها الجحيم جهنم.

وأطلق على فرجيلوس أو فرجيل لقب كبير شعراء الأدب اللاتينى القديم وعاصر عصر القيصر أغسطس.

قضى فرجيل اثنتى عشرة سنة فى تأليف الإنياذة ومات مريضاً قبل أن يتمها، وهى تسرد فى اثنى عشر كتاباً (باباً) قصة رحلات إنياس Aeneas وبطولاته وهو ابن انخيزس Anchises ملك داردانيا Dardania وأمه الإلهة فينوس Venus[1].

(١) الإنياذة Aneneid (تنطق بالإنجليزية: إنياد؛ وفى اللاتينية Aeneis، وباليونانية: Ae-neidos) هى ملحمة شعرية باللاتينى كتبهاة فرجيل فى القرن الأول ق.م (بين ٢٩و١٩ق.م) وتروى القصة الأسطورية للبطل إنياس، الطروادى الذى سافر إلى إيطاليا، حيث أصبح أصل الرومان، وهى مكتوبة على وزن dactylic hexameter، أول ستة من كُتب الإنياذة الاثنى عشر تحكى قصة ترحال إنياس من طروادة إلى إيطاليا، والنصف الثانى من القصيدة مخصص لحرب الطرواديين المظفرة على اللاتين، الذى تحت اسمهم سينضوى إنياس وأتباعه الطرواديون لاحقاً.

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى فرجيل بمعارك أكتافيان- ولكن ما يفترضه القدماء من انحدار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس)وإنياس هو الذى جعل الشاعر - أو لعله جعل الإمبراطور يفكر فى إنشاء ملحمة فى تأسيس روما، ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر، فشمل =

تمتد أحداث الملحمة منذ مغادرة إنياس طروادة بعد أن دمرها اليونان حتى تأسيسه دولة روما، وفق التسلسل التالى للكتب:

١- أنقذ جوبيتر Jupiter الطرواديين من العاصفة البحرية التى سلطتها عليهم عدوتهم اللدود زوجته جونو Juno فوصلوا بسلام إلى قرطاج وهناك استقبلتهم ملكتها الفينيقية ديدو Dido واستضافتهم.

٢- روى إنياس للملكة ما حل بطروادة وهروبه مع جماعته.

٣- تابع إنياس روايته عن رحلات التيه التى مر بها وعن مغامراته برا وبحرا.

٤- عبرت ديدو لإنياس عن حبها له، وحاولت منعه من السفر بلا جدوى فقد كان جوبيتر يأمره بمتابعة الرحلة، فلعنته وانتحرت.

٥- وصل إنياس وجماعته إلى جزيرة صقلية فاحتفل به أهلها وقدموا القرابين تكريماً لوالده أنخيزس الذى مات ودفن فيها.

٦- هبط إنياس إلى العالم السفلى ولقى ديدو التى لم تغفر له تخليه عنها ثم التقى والده الذى تنبأ له ولأحفاده الروميين بمستقبل مجيد.

٧- وصل إنياس وجماعته بحراً إلى شواطئ لاثيوم Latium وهناك نشبت حرب طويلة بينهم وبين السكان اللاتينيين المتحالفين مع الروثليين Rutulians بزعامة تورنوس Turnus انتصر إنياس وفاز بزواجه بلافينيا Lavinia ابنة الملك لاتينوس Latinus ضماناً لمستقبل الدولة الجديدة.

٨- التمس إنياس من الملك يواندر Euander المقيم على هضبة بالاتين Pal-atin أن يدعمه بجيش يقوده ابنه بالاس Pallas فوافق، وصنع له الإله فولكان Vulkan مجموعة أسلحة بتارة ودرعاً عظيماً.

= الأحداث التى وقعت بعد تأسيس روما، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس، وبالسلم الذى كان أثرا من أعماله وشمل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان فى أثناء هذه الأعمال المجيدة، والسعى لبث حب الفضائل القديمة فى قلوب الرومان، وتصوير بطلها فى صورة الإنسان الذى يعظم الآلهة، ويهتدى بهديها، ويدعو إلى الإصلاحات والمبادئ الأخلاقية التى دعا إليها أغسطس فيما بعد.

٩- وفى أثناء غياب إنياس هاجم تورنوس معسكر السفن الطروادية.

١٠- عاد إنياس مع بالاس وقوات تيوكرية Teukrie، وفى الاشتباك يقتل تورنوس بالاس فسحبته جونو من المعركة، فانتقم إنياس بقتل ميزنتيوس Me-zentius ملك التورهينيين وحليف تورنوس هو وابنه لاوسوس Lausus.

١١- نشبت الحرب بعد هدنة قصيرة وسبى اللاتينيون العذراء السابينية كاميلا Camilla.

١٢- فى المعركة الأخيرة ردع جوبيتر جونو فانتصر إنياس على تورنوس وقتله.

إن تأثير الإنياذة الكبير يعود إلى تضافر ثلاثة عوامل فى إبداعها، اللغة وجمالها، ورصانة البنية الملحمية، والتفسير اللاهوتى لمجريات التاريخ.

ففى شعر الإنياذة ونثر شيشرون Cicero بلغت اللغة اللاتينية ذروتها.

أما ما يتصل بالبنية فقد استلهم فرجيل تجربة هوميروس Homeros فى ملحمتيه الإلياذة والأوديسة[1] متتبعاً خطاه فى أدق التفاصيل، فقلده واستعار منه

(١) الإلياذة غير الإنياذة، والإلياذة هى ملحمة شعرية تحكى قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية اغريقية للشاعر الأعمى هوميروس المشكوك فى وجوده وتاريخ الملحمة يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وهى عبارة عن نص شعرى، ويقال إنه كتبها مع ملحتمته الأوديسا.

وقد جمعت أشعارها عام ٧٠٠ق.م بعد مائة عام من وفاته، وتروى قصة حصار مدينة طروادة عام ١٢٠٠ ق.م.

وتدور أحداث الإلياذة والأوديسا حول الآلهة البشر، وصورها فى شكل ساخر وبين فيها أن البشر يتأثرون بالصلاة، ولهم إرادة حرة يصنعون من خلالها قراراتهم ويتحملون أخطاءهم، والملحمتان يكملان بعضهما.

وكلمة إلياذة هى كلمة الليوس القسم القديم لمدينة طروادة، وتدور حول ملحمة المسينى أخيل الذى أبحر لطروادة من بلاد الإغريق لينتقم من باريس الذى قام بغواية هيلين زوجة الملك منيلاوس ملك أسبرطة ومن ثم هرب معها إلى طروادة، فقام الإغريق بتجريد حملة ضخمة للثأر بقيادة أجاممنون أخو منيلاوس، وقد هاجم جيش إمبراطور طروادة.

والأوديسا تروى قصة الأمير الإغريقى أوديسيوس (أوليس) عند عودته من طروادة، والتى تعرض فيها للعديد من الأخطار مع طاقم سفينته، وكانت قصائد هوميروس من الأدب الشعبى وكانت تروى شفاهة وكانت تضم هاتين الملحمتين الطويلتين اللتين نسج على منوالهما الشعراء فيرجيل باللاتينية ودانتى بالإيطالية وميلتون بالإنجليزية ملاحمهم.

وأعاد تأويله وعارضه وضمن الإنيادة مقاطع من كتاباته لكن إبداع فرجيل يتمثل فى قالب التسلسل الزمنى لملحمتى هوميروس، فقد جعل الكتب الستة الأولى من الإنيادة تماثل رحلات تيه أوديسيوس ومغامراته، فى حين تماثل الكتب الأخرى حتى نهاية الملحمة الإلياذة، وبذلك تجلى تفكير فرجيل التاريخى الواضح بما يتعلق بإيجاد أصول عرقية للشعب اللاتينى تضرب جذورها بعيداً إلى إنياس سليل الآلهة، وكذلك بتسريب نبوءات لاهوتية حول مستقبل روما المجيد.

تنتهى الإلياذة بسقوط طروادة ومقتل هكتور Hector ابن أخى إنياس، وتختتم الأوديسة بعودة أوديسيوس سالماً إلى إيثاكة Ithaca، فى حين تبدأ الإنيادة بخروج إنياس هارباً من طروادة وتنتهى بانتصاره على أعدائه وتأسيسه الدولة الجديدة مندمجاً فى شعوبها متبنياً لغتهم بمشيئة جوبيتر وبإذعان جونو، وبذلك يكون فرجيل قد أول سقوط طروادة بنهوض روما.

وخلافاً للإلياذة التى ارتجل هوميروس فيها الشعر ارتجالاً عفويّاً ليعبر عن الوعى والحضارة اليونانية القديمة فإن الإنيادة قامت على خطة محكمة للكتابة أعدها فرجيل بناء على طلب القيصر أغسطس ليمجد فيها روما، ويحتفى بقيمها الأخلاقية والدينية القديمة وبالجذور الطروادية المزعومة لشعبها، وبالإنجازات العظيمة تحت حكم القيصر أغسطس العظيم، ويظهر ذلك خاصة بالإشادة بأغسطس وروما من الكتاب الخامس حتى الكتاب الثامن، وهى النواة الأساسية للملحمة.

وقد تأثر أسلوب فرجيل فى الإنيادة أيضاً بالقصيدة الملحمية اليونانية «آرغونوتيكا» Argonautica للشاعر اليونانى أبولونيوس الرودسى Apollonius الذى عاش بجزيرة رودس Rhodes، إضافة إلى تأثره «بالحوليات التاريخية» Annles التى كتبها الشاعر الرومانى كوينتوس إينيوس Quintus Ennius الذى كان أول من أدخل التفعيلة السداسية Dactylic hexameter إلى الشعر الملحمى اللاتينى.

ولكن فرجيل طور فى الإنيادة هذه التفعيلة وكذلك القافية، ولذا أصبح شعر فرجيل فى الإنيادة نموذجاً يقتدى به فى الإبداع والإتقان الفنى.

عدت الإنيادة منذ القرن الأول بعد الميلاد أحد أهم مصادر اللغة اللاتينية

عند النحويين وفى الكتب المدرسية، وألهمت الكثير من الكتاب نظم أعمال تقتدى بنموذجها أو تستوحى أجواءها، وقد امتدحها دانتى Dante فى الكوميدية الإلهية، واستخدمها الشاعر الإنكليزى تشوسر فى أعماله، واقتبس منها الشاعر الإنجليزى إدموند سبنسر فى قصيدته «ملكة الجن» The Fairia Queene.

وحافظت الإنياذة على تفردها إلى أن أعيد اكتشاف هوميروس فى عصر النهضة، وقد كتب عنها عبر العصور الكثير من الدراسات التفسيرية والمقارنة فى معظم اللغات الأوربية، وأهمها «التقنية الملحمية عند فرجيل» Vergils epische technik لرتشارد هاينتس Richard Heinz سنة ١٩٠٣م.

وكما أن فرجيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوديسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة فإنه الآن يستوحى رحلة أوديسيوس فى الجحيم، ويصبح هو نفسه مثلاً يحتذيه دانتى ويهتدى بهديه فى ملهاته المقدسة.

وفى هذا يقول فرجيل: «ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis Descensus Averni، ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديد العذاب، كما يجد العالم السفلى معقداً شديد الاختلاط.

وفى هذا العالم يتلقى بديدو، فتشيح بوجهها عما يبثه ويشهد ضروب العذاب التى يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض، والسجن الذى يعذب فيه أنصاف الآلهة المتمردون كما يُعذب الشيطان.

ثم تأخذه سيبيل إلى بلاد السعداء حيث ينعم الصالحون فى الأودية الخضراء بالنعيم السرمدى.

وهنا يشرح له والده أنكيسيز، الذى توفى فى الطريق، أسرار الجنة، والمطهر والجحيم، ويصور له فى أوضح صورة وأشملها مجد روما وأبطالها فى مستقبل الأيام، وتكشف له الزهرة فى رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس، وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء، ويقتل ترنس،

وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه، ويتزوج بلفينيا الخيالية، ثم يموت والدها فيرث عرش لايتوم.

ولا يلبث أن يخر صريعاً فى إحدى المعارك، وينتقل إلى جنان الفردوس، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanins ألبالنجا لتكون عاصمة جديدة للقبائل اللاتينية، ومنها يخرج من نسله رميولرس وريموس ليشيدا مدينة روما.

إذا شئنا أن نفهم الإنيادة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به، كان علينا أن نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن فرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية، بل كان يكتب لروما كتاباً مقدساً؛ وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة، فإن الإلهة الذين يسيرون الحوادث فى تمثيليته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن الإلهة هومر، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء؛ بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم.

وأكبر الظن أن فرجيل لم يكن يرى فى أولئك الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره، ورموز للظروف الظالمة المستبدة، والحادثات المفاجئة التى تخل بسير العالم المنتظر الرتيب؛ وهو على العموم يتذبذب بين جوف الأرباب وبين القدر اللاشخصى، فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى، وآلهة القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمبس، فهو لا يترك فرصة تتاح له إلا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها، وتمنى لو استطاع أن يعودوا إلى ما كانوا من حب الآباء، والوطن والآلهة، وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية: «أسفى على تقوى الأقدمين وإيمانهم»!.

غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والطالح، بل تخالجه أفكار أرفية فيثاغورية عن تجسيد الأرواح بعد الموت، وعن الحياة فى الدار الآخرة، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطهر، والعقاب فى الجحيم.

لكن الدين الحقيقى فى الإنيادة هو دين الوطنية، وإلهها الأعظم هو روما

فمصير روما هو المحرك لحبكة القصة، وكل ما فى القصة من محن وشدائد إنما يرجع إلى «الواجب المضنى واجب بعث الشعب الرومانى Tantae Molis Erat Romanam Condere Gentem.

والشاعر فخور بالإمبراطورية فخراً يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرونز إلى شخوص حية ولترسم مشارات النجوم أما أنت ياابن روما، فواجبك أن تحكم العالم، وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم، وأن تشفق على الذليل، وتذل الفخور.

وفرجيل لا يأسف على موت الجمهورية، وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر؛ وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى، ويرحب به ويصفه بأنه حكم زحل قد عاد إلى الأرض، ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب، وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرجيل.

والإنياذة «L`Eneida» تعد أول مؤلف سياحى ضخم عن الجحيم وستبقى مرجعاً لعدة قرون أخرى، إلى حد أن دانتى اتخذ فرجيل دليلاً فى سفره الطويل.

فقد جاء منها طلب إينيه الإذن من سيبيل «Sybille» بالسماح له بالنزول إلى جهنم ليزور أباه أنكيز «Anckise» فمنح هذا الإذن على شرط أن يقوم ببعض الطقوس الاسترضائية، السفر محفوف بالمخاطر وهو رمزى وملىء بالصور الحسية الأمر الذى أسهم، بالإضافة إلى الميزة الأدبية، بجعل الكتاب نموذجاً من نوعه كثيراً ما نسج على منواله.

لقد حدد مدخل الجحيم جغرافياً على أنه فى مستنقعات الأكيرون بالقرب من كان فى مقاطعة كامبانيى «Campanie» ويزكى النشاط البركانى فى هذه المنطقة والمناظر الكئيبة التى كونتها، شهرته بشكل قوى وظلت فوهات الجحيم تحدد لمدى طويل بين الفيزوف والإثنا فى كامبانيى أو فى صقلية، ويتم الدخول إليه عبر كهف

تخرج منه روائح تثير الغثيان.

وبعد انحدار سحيق يدخل القادم فى دهليز حيث تمكث البلايا المشؤومة المنذرة بجهنم وهى المرض والجوع والفقر والحرب والألم ووخز الضمير والخوف والسجن والحداد والشقاق والموت.

ثم تهجم الظلال الوحشية والمجنحة للنساء الطائرات والمسوخ والأفاعى والقنطورس، من حراس المكان، ويجعل منها التصور المسيحى شياطين.

ولدى وصول القادم إلى ضفاف أكيرون، عليه أن يوجه كلامه إلى المعدى (من يساعد الأموات على عبور أكيرون فى قاربه) وهو عجوز فى أسمال يدعى كارون «Charon» والنفوس التى ترغب فى العبور كثيرة ولكن نفوس الأجسام التى لم تلحد فى قبر تتيه مئة سنة قبل أن تستطيع الصعود إلى المركب.

وعلى الضفة الأخرى من النهر يجب تدجين سربير وهو كلب مسخ ذو رؤوس ثلاثة.

تعين محكمة رادامانت ومينوس، بمساعدة قضاة يعينون بالقرعة تبعاً للعرف الرومانى، للنفوس المقصورة التى تناسبها، وثمة صنف من الموتى يحير كل من يخلق جهنماً، ألا وهو صنف الأولاد الذين يموتون فى سن الطفولة.

إنهم هناك ينتحبون بصحبة المنتحرين الذين عاشوا حياة صالحة والمحكوم عليهم بالموت خطأ.

فلا تفرض عليهم العذابات ولكنهم غير سعداء، وليس أسعد منهم سكان حقل الدموع وهم العشاق التعساء، والمحاربون الذين قتلوا فى المعركة، وذوو الحظ التاعس من كل نوع، الذين يجترون أحزانهم ساخطين حاسدين كما فى جهنم السومرية.

ويذكر أيضاً أن جهنم توجد فى قلعة ضخمة من حديد مثلثة الأسوار يحيط بها بيريفليجيتون «Pyribhlegithon» نهر اللهيب، وتحرس المدخل الجنية تيسيفون،

(١) انظر كتاب فى الطبيعة – لوكريس جـ٣

ومن هذا الغار يتصاعد صراخ ونحيب وقعقعة سلاسل ووقع ضربات. هنا، لا يستطيع الدخول أى إنسان طاهر، وتشرح العرافة التنكيل الذى يخضع له التعساء الذين يشكل تيتيوس وتيزيه وإكسيون وبيريتوس بعض حالاتهم المشهورة.

ويذكر الأعمال التى يستحق فاعلوها هذا المصير فيقول:

«إنهم أولئك الذين، طيلة حياتهم، بغضوا إخوتهم ونكلوا بآبائهم وأفسدوا إيمان مولاهم: الذين (وعددهم ليس بالقليل) جمعوا الثروات واختزنوها لأنفسهم ولم يشركوا فيها ذوى قرباهم، الذين قتلوا على يد زان، والذين لم يرهبوا خيانة القسم الذى أدوه أمام أسيادهم، جميعهم أسرى هنا، ينتظرون العقاب، لا تحاول أن تعرف ما هو هذا العقاب.

العقاب ما هو إلا شكل المصيبة أو الحظ الذى ألقى هنا بهؤلاء الناس، فهذا باع وطنه بالذهب وفرض عليه سيداً قويا. وذاك، بمبلغ من المال حفر شرائع وألغاها. وآخر دخل فى مخدع ابنته وافتض بكارتها المحرمة عليه.

جميعهم تجرءوا على اقتراف إثم فظيع، وحققوا ما يتجرأون عليه، لا، لن أستطيع، حتى ولو كان لى مائة لسان ومائة فم وصوت من حديد، لن أستطيع تعداد كل أشكال الجرائم ولا استعراض كل أنواع العذاب».

إن الشبه بين الآثام والمعاقبة عليها فى جهنم والتى يعاقب عليها القانون الرومانى مذهل، فقانون الألواح الاثنى عشر يمنع بشكل واضح أن يفسد على المولى إيمانه الصحيح، إن قانون معاقبة الزنا الذى يعود إلى العام ١٧ ق.م يخول للزوج قتل زوجته وعشيقها إذا ضبطهما فى جرم الزنا المشهود.

حالة العبيد المتمردين والذين كانوا يسنون الشرائع ويلغونها كانت رائجة بشكل خاص خلال عصر الاضطرابات فى نهاية الحرب الأهلية.

وليس من المستغرب أن نجد كل هؤلاء الناس فى جهنم.

وثمة جهنم مؤقتة للنفوس المطهرة كى تقيم فى الجنة بعد ألف سنة، بعد أن

(١) انظر كتاب فى الطبيعة - لوكريس جـ٣

تكون قد شربت النسيان فى نهر ليتيه «Lethe» تعود فتتقمص.

إن التصور الفرجيلى لجهنم كثيرة المراعاة للشرائع مفعمة بالشاعرية معاً وهو أحد المصادر لجهنم المسيحية الكلاسيكية التى ترث أيضاً تقليداً آخر هو تقليد العالم التوراتى.

بعد عامين من وفاة «فرجيل» أخرجت قصيدته إلى العالم، وقام بعضهم يعيبها ويسفهها: فنشر أحد النقاد مقالاً طويلاً بعيوبها، وأصدر آخر ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من شبه، ولكن روما سرعان ما نسيت هذه الشيوعية الأدبية، فوضع هوراس فرجيل هومر، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر، ظل الناس فيها يحفظون الإنياذة عن ظهر قلب، وظل الناس جميعاً خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه، والصناع، والتجار، يقتبسون من شعره، وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عباراته؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غاضبة يقتطعونها من أبيات ملحمته؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع إلى عصر النهضة، عادة فتح ملحمة فرجيل فتحاً عشوائيّاً للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح.

وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين.

والسبب أنه قد تنبأ فى النشيد الرابع بمجىء المنقذ، ووصف روما فى الإنياذة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه، ألم يتصور الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين، وتطهيرهم نار المطهر، ونعيم الصالحين فى الجنة.

وكان دانتى يعجب بعذوبة شعره، ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب، بل كان يسترشد به أيضاً فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه؛ وكان ملتن يفكر وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة الرنانة.

وكان فوليتر يصف الإنياذة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى.

جهنم فى الجمهورية الأفلاطونية

جاء ذكر جهنم عند أفلاطون فى جمهوريته بمفهوم سياسى اجتماعى وليس أخلاقيا كما هو فى الديانات السماوية.

ومن خلال حوارات أفلاطون يتضح وجود دنيا أخرى فيها جهنم التى هى الهلاك الأبدى وهؤلاء جاء ذكرهم فى حوار «فيدون»:

أولئك الذين اعتبرت حالتهم ميؤوساً منها، نظراً إلى جسامة خطاياهم؛ المسؤولون عن حوادث سلب كثيرة وخطيرة اقترفوها فى الهياكل، المرتكبو جرائم قتل بشرية، اقترفوها ظلماً وبطريقة محرمة، وفاعلو جميع الآثام الأخرى من هذا النوع، إن المصير الذى يستحقونه يقذف بهم إلى الترتار حيث لا يخرجون منه أبداً.

أما بخصوص الذين لا تعتبر الآثام التى اقترفوها بلا علاج، هؤلاء يحشرون فى الترتار عنوة.

ثم وبعد أن يقضوا هناك ردحاً عظيماً من الوقت يقذفهم الموج، وبعد أن يعادوا إلى هناك، ينادون بصراخ عظيم، البعض ينادى من كان سبب هلاكه وآخرون ينادون من أساؤوا معاملتهم.

وبعد أن ينادوا يتوسلون إليهم، يضرعون إليهم أن يدعوهم يخرجون من النهر ليعبروا إلى البحيرة وليستقبلوهم فيها.

فإذا استطاعوا إقناعهم يعبرون واضعين هكذا حدا لآلامهم، وإذا لم يستطيعوا يقادون إلى الترتار من جديد ومن هناك إلى النهر، إنها معاملة لا تنتهى بالنسبة إليهم قبل أن يقنعوا الضحايا بظلمهم؛ لأن هذا هو العقاب الذى فرضه عليهم القضاة.

ويواجه هذا الحوار احتمالاً ثالثاً يحكم على نفوس الذين كانوا طوال حياتهم عبيداً لرغبات الجسد، وبالتشرد فى الأرض فيجذبها العنصر المادى نحو الأسفل

وينتهى أمرها بأن تتقمص حيواناً يمثل نزعة الشر الطاغية عليها.

ويلاحظ فى حوار غورجياس التمييز بين الذين لا يغفر لهم والآخرين، ويخضع الجميع لعذابات ليس هدفها واحداً! إنها بالنسبة إلى البعض خلاصة افتدائية تطهيرية وبالتالى وقتية وبالنسبة إلى الآخرين، إلى الذين لا يغفر لهم قيمة المثل والعبرة فإنها لا تستطيع أن تنجيهم لأنهم ارتكبوا خطايا جسيمة ولكن يعتبر تعذيبهم تحذيراً للناس مما سينتظرهم إذا عملوا الشر وهم:

«أولئك الذين من مصلحتهم أن يؤدوا القصاص الذى فرضه عليهم الآلهة أو البشر وأولئك الذين كانت خطاياهم لا تغتفر، ولا يأتيهم النفع بوسيلة أقل من وسيلة العذابات والآلام فى هذه الدنيا وفى هاديس.

لأنه ليس من الممكن أن يتخلصوا مما لحقهم من الحيف إلا بهذه الطريقة.

أما الذين دفعوا بظلمهم إلى الدرجة القصوى والذين، بأعمال ظالمة مماثلة، سيصبحون هالكين، هؤلاء سيكونون مضرباً للمثل ومنهم ستتخذ العبرة؛ وفيما هؤلاء الناس، ولأنهم هالكون، لا يجنون شيئاً من عقابهم، فالفائدة ستكون لمن رأوهم يلقون بسبب أخطائهم، من التجارب الأبدية، أعظمها وأشدها ألماً ورعباً: معلقون فعلاً هناك عند هاديس، فى السجن مثار تأمل واعتباراً للظالمين الذين ما زالوا يتوافدون».

ويتضح من خلال الحوار الغاية السياسية وأن هؤلاء الهالكون، فى الواقع، هؤلاء الأشرار، هم رجال سياسة وملوك ومغتصبو السلطة.

وفى حوار «فيدون» هم المسؤولون عن الخلل الاجتماعى، وإن أعظم الخطايا، استناداً إلى جمهورية أفلاطون، هى خطايا «أولئك الذين سببوا موت أكبر عدد من الناس أو الذين خانوا وطنهم وجيشهم واستعبدوا مواطنيهم..»

وقصاص كل عمل ظالم، بالنسبة إلى هؤلاء مائة سنة من العذاب، وفى هذا الحوار يلجأ أفلاطون إلى إسطورة إر «Er» الذى نزل إلى الجحيم، منبعثاً من الموت، وروى ما رآه غير محجم عن الاقتباس من الأساطير الشعبية ليصف طريقة

الشياطين فى تعذيب الهالكين فقال:

«كانوا يكبلون منهم اليدين والرجلين والرؤوس ويمددونهم على الأرض ويجردونهم من الثياب، ويسحلونهم على امتداد الطريق وعلى حافتيها يجرجونهم على أشوال السياج، وكانوا يخبرون الذين يمرون من هناك دون انقطاع عن أسباب هذه المعاملة، يضيفون إلى ذلك أنهم سيقتادون إلى الترتار ليغرقوهم فيه».

ولا توجد فى الجمهورية، عذابات أبدية، ففى نهاية ألف سنة تعود النفوس تتقمص، أى تعيش فى الجنة والنعيم.

وفى حوار غورجياس يميز بطريقة غير واضحة تماماً بين الأسطورة والتاريخ، فيتوجه سقراط إلى كليكليس قائلاً: «إذا، أصغ، كما يقال، إلى تاريخ مشوق، أنا مقتنع بأنك تعتبر هذه خرافة، ولكن بحسب رأيى إنه تاريخ، ويخطر فى بالى أن ما أقوله هو حقائق».

وبعد قليل يشعر سقراط من جديد أن الشك تسرب إلى محدثه فيقول له: «ربما تأخذ كل ما أقوله هنا على سبيل الخرافة، كالذى ترويه العجائز، فلا تقيم له وزناً».

ويتابع: «اقتنع إذا بما يرويه التاريخ الذى سردته على مسامعك».

من المعقول جداً أن تكون هذه الشكوك هى شكوك أفلاطون ذاته. وفى هذه الحال، تسجل جهنمه فى تحضيرات واعية لأساطير معدة لدعم مخطط اجتماعى - سياسى.

وعندما ينطلق فى حوار فيدون، فى وصف لا ينتهى لشبكات المياه الجهنمية، ويتوقف عند وصف لهذه الأمكنة فى جهنم تحت الأرض، فى عصر كانت أكثر التيارات الفلسفية لها تحفظات على العالم الأخروى، ولا تعترف بوجود عذاب أو نعيم بعد الموت.

تطابق أفكار الفلاسفة الغربيين والإسلاميين حول الآخرة والعقاب الأخروى، فإن مصطلح الفلاسفة يشمل الإسلاميين وغير الإسلاميين، فتطلق على أفلاطون، وأرسطو، وفورفوريوس، وفيثاغورس، وسقراط، وكل من له قول فى الفلسفة، ثم تطلق على من اتبعهم ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويقال لهم: الفلاسفة

الإسلاميون، وهم مذاهب وأنواع.

ومن أشهر الفلاسفة المسلمين أبوعلى بن سينا، والفارابى، والكندى، والرازى الطبيب.

وكل هؤلاء الفلاسفة كفرتهم بعض الطوائف الإسلامية كالمعتزلة، والأشعرية، وقد تصدى لهم أبوحامد الغزالى رحمه الله تعالى بالرد فى كتابه تهافت الفلاسفة، وقد رد عليه ابن رشد، فى كتابه تهافت التهافت، لكن أكبر وأعظم وأشهر من رد عليهم هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتبه الكثيرة مثل: درء تعارض العقل والنقل والرد على المنطقيين، وأول كتاب منهاج السنة، فهو يكاد يذكرهم فى كل كتبه ويدمر أصولهم.

وسبب تكفير الفرق الإسلامية للفلاسفة أقوال وعقائد صدرت عنهم، منها: قولهم بقدم العالم، أى: أن العالم أزلى لا أول لوجوده بمعنى: أن الله لم يخلق هذا العالم، هم يقولون: إن الله موجود، وكذلك هذا العالم موجود وجوداً أزليّاً؛ فإن قيل: فكيف خلقه؟

قالوا: فاض عنه فيضاً، أو صدر عنه صدور العلة من المعلول، وهذا كلام باطل.

ومما كفروا به: قولهم بأن المعاد أو البعث روحانى لا جسدى، وهم فى الحقيقة قد أولوا جميع أمور الدين، وأولوا معها أمور المعاد من الجنة والنار وغيرها، ولذلك يسمى بعضهم: أصحاب التخييل، وهم القائلون: إن الأنبياء صوروا للناس خيالات أو ضربوا لهم أمثالاً على أشياء لكنها غير صحيحة - عياذا بالله من هذا الكفر والضلال - لذا كفرتهم فرق الإسلام.

وهم بتأويلهم هذا أشد كفرا من الباطنية، بل الباطنية فى الحقيقة إنما أخذوا عقيدتهم منهم، فإن أشهر كتب الباطنية الإسماعيلية هى رسائل إخوان الصفا، وهى كلام فلسفى.

ومما كفروا به وأجمع المسلمون على تكفيرهم بسببه: القول الثالث: إنكارهم أن الله تعالى يعلم الجزئيات قالوا: إنه تعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات تعالى

الله عما يقولون علواً كبيراً!

فالفلاسفة أرسطو وأفلاطون أصحاب العقول التى عبدتها الإنسانية، وقدستها تقديساً عظيماً كانت تقول: إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، ولكن يعلم الكليات.

وهذا القول ناشئ عن قولهم بأن الله لم يخلق هذا الكون، كما نعتقد نحن بأنه سبحانه وتعالى إله حكيم عليم قادر خلق هذا الكون، وكما هو دين جميع أتباع الأنبياء من اليهود والنصارى وغيرهم، فهم قد فارقوا جميع الملل.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى منهاج السنة، وفى الجواب الصحيح إن النصارى عندما تحولوا عن دين اليونان الفلسفى إلى النصرانية وإن كانت محرفة؛ فذلك أهون وأخف كفراً.

ومن كفرهم قولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات؛ لأنهم لا يقولون: إن الله خلق هذا الكون خلقاً - كما يقول بذلك جميع العقلاء من جميع الأديان - بل يقولون: صدر عنه صدور العلة من المعلول، أو فاض عنه، على اختلاف بينهم فى ذلك.

برر به معلمهم الأكبر أرسطو قوله بأن الله لم يخلق الكون أن قال: إن الله كامل، والكامل لا يفكر بالناقص ولا يشتعل به، والكون ناقص، فلو علمه ودبر أحواله وشئونه لكان اشتغالا بالناقص، فيجب أن ننزه الله عن ذلك، فأنكر أن الله عالم مدبر محيى مميت، يفعل فى ملكه ما يشاء؛ بغرض أنه يريد أن ينزه الله!

وقد استخدم هذه الشبهة كثير من الناس، يقول أحدهم: لا نؤمن بصفات الله، لأننا نريد أن ننزه الله، فليس له يد ولا عين ولا وجه.. إلخ، فلا نقول: إنه يريد أن ينزه الله، ونعذره؛ لأن الكلام فى هذه القضايا وأمثالها إن كان كفراً يقال عنه: كفر، وإن كان بدعة يقال عنه: فإن كان له تأويل سائغ من النصوص الشرعية، وإلا فهو قول بالكفر المحض.

إما أن نقول: إنه حسن النية ونعذره، فهذا غير صحيح بل ابن سينا لم يقل: إن أرسطو معذور؛ لأن قصده التنزيه، بل قال: إن هذا هو الدين الحق الذى يجب أن يتبع.

ويقول ابن رشد: إن الشريعة رضيعة الفلسفة، فهما أختان رضيعتان، وله كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، فالشريعة والفلسفة عنده سواء، فيستوى عنده كلام أرسطو الذى اخترعه من عند نفسه بهذا التهافت، وكلام محمد ﷺ الذى نزل به جبريل الأمين من عند رب العالمين!

وبهذا يعلم هؤلاء الناس ومن اتبعهم، وإن قولهم هذا يدخل فى باب التكذيب بالقدر؛ لأنه تكذيب بالعلم، ومن كذب بالعلم فقد كذب بأول وأهم مراتب القدر.

ومن هنا كانوا كفاراً، فهم من جهة القدر قدرية غلاة، ومن جهة الصفات منكرون للصفات، ومن انتسب أو ادعى الإسلام منهم فهو كافر مرتد لا دين له.

ولا فرق بين الفلاسفة القدماء والفلاسفة فى العصر الحديث ولا فرق بين فيلسوف مسلم أو غير مسلم فالكل سواء.

■ ■ ■

جهنم عند بعض الطوائف المسيحية

7

- جهنم عند الكاثاريين وولادة فكرة المطهّر
- جهنم عند الطائفة الغنوصية وعبدة الشيطان

ظهور الكاثارية كحركة مناهضة للكنيسة الكاثولوكية الأوربية وفكرتها عن جهنم

منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى ازدهرت الهرطقات والحركات المناهضة للبابوية فى الغرب الأوربى، نتيجة جملة من العوامل، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، الداخلية.

وقد تميزت هذه الحركات بأنها استهدفت تطهير الكنيسة الغربية من الفساد والمتاجرة فى المناصب الكنسية والانحلال الخلقى والدنيوية وغيرها من المفاسد التى انتشرت بين أرجائها، والتى أفاضت بذكرها المصادر التاريخية الغربية.

كما أن بعض الحركات والهرطقات الجديدة استهدف تغيير النظم السياسية والاجتماعية السائدة فى الغرب آنذاك، فالطبقات الفقيرة، لم تجد وسيلة للتخلص من اضطهاد الملوك والأمراء الإقطاعيين، المتحالفين مع القيادات الكنسية، سوى الانخراط فى إحدى تلك الحركات أملاً فى التخلص من الاضطهاد الطبقى القائم، وهذا يعد أحد الأسباب التى دفعت السلطات السياسية للتعاون مع السلطات الدينية ضدها.

ومن الحركات التى استهدفت الحد من النفوذ السياسى للبابوية، وتطهير النظام الكنسى من المفاسد، نذكر على سبيل المثال، تلك الحركة التى قادها القس الإيطالى أرنولد البريشى، الذى هاجم مفاسد رجال الكنيسة، وانهماكهم فى حياة الترف الدنيوية، والتف حوله الفقراء، وأعلن الثورة فى مدينة روما ونجح فى تحويلها إلى جمهورية مستقلة عام ١١٤٥ بحيث لم يعد للبابا سوى القيام بالواجبات الروحية.

وفى عام ١١٥٤م استنجدت البابوية بالملك الألمانى فريدريك بربروسا ووعده البابا بتتويجه إمبراطوراً إذا قضى على جمهورية البريشى، وبالفعل زحف بربوسا إلى

روما على رأسه جيشه عام ١١٥٥م، وألقى القبض على البريشى وشنقه ثم حرقه بوصفه مهرطقا وألقى رماده فى نهر التيبر بأمر من البابا، وقام الأخير بتتويج بربروسيا إمبراطورا فى كنيسة القديس بطرس فى روما مكافأة له على عمله.

ومن الحركات التى استهدفت إصلاح الكنيسة والعودة إلى المسيحية الأولى التى تتسم بالصفاء الروحى والبساطة والزهد، حركة الوالديين التى ظهرت عام ١١٧٠م تحت قيادة زعيمها بطرس والدو، وتعد هذه الحركة، حركة صوفية، حيث تخلى مؤسسها عن ثروته وعاش وأتباعه حياة متواضعة تتسم بالبساطة والفقر تيمنا بحياة القديسين الأوائل.

وجاءت هذه الحركة ردا على انغماس رجال الكنيسة فى شئون الدنيا والترف والملذات، كما طالب رجال هذه الحركة أن يكون الكتاب المقدس هو المصدر الرئيسى فى شؤون العقيدة المسيحية.

وانتشرت هذه الحركة فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، وقد سارع البابا إلى إدانتها بوصفها حركة هرطقية ومن ثم غدا أتباعها هدفا لرجال محاكم التفتيش.

ولكن من أخطر حركات الهرطقة التى أفزعت السلطة الدينية والسياسية فى الغرب هى الحركة المعروفة باسم الكاثارية أو الإلبية، والكاثارية كلمة إغريقية تعنى (الطاهر)، أما الإلبية فهى نسبة إلى بلدة (إلبى) فى فرنسا والتى كانت معقلا حصينا لهذه الحركة، وكانت الكاثارية متأثرة بالفكر المانوى القائم على أن العالم يحكمه الصراع بين الخير والشر.

وقد انتشرت هذه الحركة، منذ أوائل القرن الحادى عشر، انتشاراً واسعا فى كثير من الأقاليم الأوروبية ولاسيما فى فرنسا وإيطاليا.

لم تستخدم الكنيسة الغربية، فى تعاملها مع هذه الحركات والهرطقات الجديدة، النهج الذى اعتمدته فى العصور الباكرة من تاريخها، القائم على الحكمة والحوار، وبدلا من أن تبحث البابوية عن جذور تلك الحركات وتتفهم دوافعها، السياسية والاجتماعية والدينية، قامت بإدانتها جميعا بوصفها هرطقات تشكل

خطرا على المسيحية ووحدة العالم الكاثوليكى، ودون تمييز بين دعاة الإصلاح والغيورين على المسيحية وبين المهرطقين.

كما قامت بتعبئة الرأى العام فى الغرب، الذى كان يتسم بالجهل والتعصب الأعمى، ضد هذه الحركات، ونجحت فى إقناع فئات كبيرة منه، وبخاصة العامة، بأن كل هجوم على رجال الكنيسة هو عدوان على السيد المسيح، وأن كل هجوم على نظم الكنيسة وتقاليدها هو هجوم على الكتاب المقدس، وأن المناوئين للكنيسة هم (مهرطقون) وأداة بيد الشيطان، وأعداء المجتمع المسيحى، وبالتالى فإن محاربة المهرطقين واجب مقدس على كل المسيحيين فى الغرب.

وقد كلفت البابوية فى البداية المحاكم الكنسية فى الأقاليم بمحاكمة الكاثاريين وغيرهم من أصحاب البدع، وكان يرأس هذه المحكمة عادة أحد الكهنة الذين يعملون فى الكنيسة، ولكن سرعان ما فشل هذا الأسلوب لأن الهرطقات كانت بازدياد مستمر من ناحية، كما لم يكن لدى الكهنة الوقت الكافى لاصطياد المهرطقين من ناحية أخرى.

وبناء على ذلك عمدت البابوية منذ عام ١١٨٤م إلى تكليف الأساقفة بالقيام بأنفسهم بجولات دورية فى المناطق التابعة لهم بحثاً عن المهرطقين ومحاكمة المشتبه فيهم.

ولكن هذا الأسلوب بدوره لم يؤد إلى نتائج فعالة لانشغال الأساقفة بمهامهم الكنسية، ثم اعتمدت البابوية نهجا آخر فى علاج المسألة وهو إرسال موفدين من طرفها لإقناع المهرطقين بالعودة إلى العقيدة المسيحية الكاثوليكية، ولكن كان عليهم، إذا فشلوا فى ذلك، أن يقوموا عليهم ويحاكموهم.

ولعل أهم الأحداث التى وقعت آنذاك هى أن البابا إنوسنت الثالث (ت١٢١٦م) كان قد أرسل موفدا من طرفه إلى مدينة تولوز للطلب من أميرها ريموند استئصال الكاثاريين من إقليمه، ولكن ريموند لم يكترث بطلب البابا، فقام الأخير بحرمان ريموند وبلاده من غفران وبركة الكنيسة.

وإزاء ذلك قام رجال ريموند باغتيال الموفد البابوى فى تولوز.

فاستنشاط البابا إنوسنت الثالث غضبا ودعا إلى (حملة صليبية) ضد سكان جنوب فرنسا المسيحيين الذين انتشرت بينهم الكاثارية، وبالفعل قامت هذه الحملة عام ١٢٠٩م بقيادة أكبر أمراء شمال فرنسا سيمون مونتفرات.

واستمر القتال عشرين عاماً (١٢٠٩ - ١٢٢٩ م) وكان قتالا وحشيا ودمويا ولم تلحق هذه الحملة خسائر اقتصادية وعمرانية فى جنوب فرنسا فحسب، وإنما أحدثت مذبحة حقيقية أثارت هلع العالم المسيحى فى الشرق والغرب على السواء.

وعلى الرغم من أن هذه الحملة الصليبية قد نجحت فى القضاء على الكاثاريين فى جنوب فرنسا، لكنها لم تقض على أفكارهم التى زاد انتشارها فى الأقاليم الأوروبية الأخرى، وهذا يعنى أن جميع الوسائل التى استخدمت خلال القرنين الماضيين لاستئصال الهرطقة قد فشلت فشلاً ذريعاً.

ومن هنا ولدت فى عقل البابا جريجورى التاسع عام ١٢٣١م فكرة تأسيس (محكمة التفتيش البابوية) لتكون هيئة دائمة ومنظمة ومتفرغة مهمتها ملاحقة المهرطقين ومحاكمتهم، واسم (محكمة التفتيش) مشتق من أسلوب عملها الذى يقوم أساسا على التفتيش أو البحث عن المهرطقين فى كل مكان والتحقيق معهم وفرض العقوبة عليهم.

وكان المفتشون، فى بداية تأسيس المحاكم، يجوبون الأقاليم بحثا عن المهرطقين والسحرة والمشعوذين، ولكنهم حصلوا فيما بعد على موافقة البابوية على حق استدعاء المتهمين بالهرطقة من مناطقهم إلى مراكز المحكمة التى كانت غالبا ما تكون فى المدن الرئيسية.

وعلى الرغم من أن الميدان الرئيسى لعمل هذه المحاكم كان جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، فإنها سرعان ما انتشرت فى معظم البلدان الغربية التابعة للسلطة البابوية.

ولقد تقرر منذ البداية أن تكون محاكم التفتيش مرتبطة بالبابوية فى روما ارتباطا مباشراً، ولقد عين البابا معظم أعضاء (محكمة التفتيش) من الرهبان،

وبخاصة الرهبان، الدومينيكان (نسبة إلى القديس الإسبانى دومينيك ت ١٢٢١م)، وذلك لأن هؤلاء كانوا يظهرون الكثير من التقوى والنشاط والثقافة، وعلى الرغم من أنه كان ينضم إلى هيئة المحكمة بعض المندوبين البابويين والأساقفة المحليين، فإن الرهبان هم أصحاب القرار الفصل فى كل ما كان يصدر عن هذه المحاكم السيئة السمعة.

وقد عرف ذلك الزمن بالعصور الوسطى المظلمة، وأدت تلك السياسيات التعسفية من الكنيسة الغربية إلى ثورة جامحة ضدها فصلت الدين عن الدولة وعملت النظم الحاكمة فى أوروبا.

أما الكارثيون وغيرهم من الطوائف الثائرة على الكنيسة الغربية فقد ظلت تمارس نشاطها وأفكارها ويزداد أتباعها.

وقد أعاد الكاثاريون إلى الحياة الديانة اليهودية بشكل جديد مرتبط بالمسيحية ولذلك كانت فكرتهم عن الجحيم مستمدة من العهد القديم الذى يجعل الجحيم والنار رموزاً لا حقيقة لها من أجل خداع الناس وجلب الأنصار.

ولكى نتعرف عن تلك الطائفة نستعرض بعض طقوسهم، مبتدئين بالصلاة، لأن الصلاة عندهم تختلف عن تلك التى يرددها «الأطهار» وتلك التى يتلوها المؤمنون العاديون، وصلاتهم الوحيدة هى صلاة الأحد التى لا يمكن للإنسان أن يرددها ما لم «يتعلم»، لأنه ليس فى وسع المؤمن العادى، وفق معتقدهم، أن يدعو الله وهو مازال أسير المادة والشيطان.

وصلاة الكاثاريين الأساسية المخصصة للـ«معمدين»، أو صلاة الأحد، هى التى يعرفها المسيحى بـ«أبانا»، كما ترددها الكنيسة، لكن الفارق الذى كان يتحدث عن الكاثاريين عن «الخبز الجوهرى» عوضاً عن «خبزنا كفاف يومنا» وطبعاً فإنه يغلب على الكاثاريين، حين يتلونها، هذا المفهوم المثنوى «المتشائم» لمعانى تلك الصلاة فحين يقولون، مثلاً: «ليات ملكوتك» أو «لتكن مشيئتك»، فإنما يعنون أن لا هذا الملكوت ولا تلك المشيئة متحققان ههنا؛ وحين يقولون: «ونجنا من الشرير»، فإنما يعنون أن هذا الشرير هو السيد الفعلى لعالمنا؛ وهكذا.

أما الطقس الكاثارى، الذى هو المعمودية أو الـConsolamentum وهى عبارة عن طقس تتم من خلاله المعمودية الروحية للمريد، لأن الكاثاريين كانوا يرفضون معمودية الماء «حسب يوحنا المعمدان» والكنيسة.

ويدخل مريد هذه المعمودية فى المحفل، يرافقه الأقدم فى مكان إقامته، أو والده الروحى ويلقى الجميع التحية التى تحدثنا عنها سابقا، أو الـMelhorament، على رئيس المحفل.

وتبدأ طقوس المعمودية، فيركع المريد أمام منضدة صغيرة مستديرة يغطيها شرشف أبيض، وعليها شمعدانان وضع بينهما كتاب الأناجيل، وقد فتح عمداً على بداية إنجيل يوحنا.

ويسأل رئيس المحفل المريد عن رغبته الأكيدة فى الحصول على المعمودية الروحية وممارسة كل مكان المسيحى الحق. ويطلب المريد المغفرة لخطاياه، فيحصل عليها من رئيس المحفل، الذى يحدثه من بعد عن ولادته الجديدة أمام كنيسة الله بدءاً من تلك اللحظة، ثم يضع رئيس المحفل الكتاب على رأس المريد؛ وبعد الصلاة، يقرأ له مقدمة إنجيل يوحنا، حتى تلك الفقرة التى تقول: «أما النعمة والحق فليسوع صارا» وتتم بذلك المعمودية.

وهذه طقوس ماسونية وهى تؤكد تبعية الطائفة إلى الماسونية اليهودية.

ومن الأساطير والمعتقدات الكاثارية الملفتة للانتباه لما تحويه من عمق باطنى، أسطورة جمال الماء: البجع أو الـPelikan رمز التضحية أى السيد المسيح.

هذا البجع الذى يقدم قلبه أو أحشاءه ليطعم أطفاله أو دمه ليعيدهم إلى الحياة بعد أن قتلهم الشيطان، والذى تتحدث الأسطورة عن ملاحقته الشمس فى طيرانه؛ وهو كما نعلم أيضاً، رمز أساسى من رموز الصليب+الوردة Rose+Croix والماسونية الروحانية التأملية.

الكاثاريون يؤمنون بالتناسخ Metempsycose الذى من رموزه حدوة الحصان والقصة الأسطورة الأقرب لمخيلة العامة تتحدث عن روح إنسان شرير، وقد

مسخت بعد وفاته بقرة كان صاحبها يضطهدها، ثم حصاناً فقد حدوته ومات منقذاً راكبه، لتحل هذه الروح فى النهاية فى جسد طفل، ولداً لأسرة صالحة، فيربى تربية حسنة ويصبح إنساناً كاملاً.

وهناك رمز «الكأس الأقدس» أو الـSaint Graal، الذى وصلنا من خلال الأسطورة والأغنية الشعبية للمنشدين الشعراء فى العصور الوسيطة تلك القصيدة الملحمية الرمزية ذات الرموز الباطنية التى تدعى برتسيفال Perzival وفيها يحدثنا الظاهر عن مريد هو برتسيفال، يبحث عن قصر سرى يحتفظ فيه ملك جريح بكأس مقدسة يحرسها ملائكة ليسوا أخياراً ولا أشراراً.

كان الكاثاريون يؤمنون بمسيح ينتمى إلى عالم الملائكة، وجاء ليوقظ النفوس النائمة، مسيح غير مادى، يقابله آخر أرضى مات على الصليب وعاش حياته المادية الأرضية كسواه، والمادة كانت بالنسبة لهم هى مجال الشيطان.

يقول ارنو بوست فى كتابه حول الكاثاريين إن المسيح الواقعى ولد وصلب فى عالم لا مرئى، عالم أعلى، ليس هو السماء، إنما ساحة تلك المعركة الحقيقية الدائرة بين الخير والشر.

كانت للكاثاريين فعلاً عقائد دينية ومفاهيم فلسفية متميزة لكن هذه المفاهيم، وهذه العقائد، لم تظهر فجأة على يد نبى، أو داعية جمع حوله نواة من المؤمنين والأتباع؛ إنما كانت نتيجة تطور لاتجاه فكرى لم يكن مسيحيا تحديداً وحصراً، فمن المسيحية استعار الكاثاريون حتما الكثير من العناصر: بعض العقائد والطقوس، ربما، والكثير من النصوص، قطعاً ولكن قراءتهم لها جميعاً كانت قراءة مختلفة، ومن اليهودية استعار الكاثاريون الكثير من المفاهيم أيضاً؛ وكذلك استعاروا من غيرها، ونتج عن هذا الفكر والدين الجديد المذهب المثنوى.

والمذهب المثنوى dualisme هو ذلك الاتجاه الفكرى الفلسفى، القديم قدم الحضارة الإنسانية، الذى كانت تنطلق منه المفاهيم الدينية للكاثاريين، وإذا حاولنا إعطاءه تفسيراً أو تعريفاً مبسطاً قلنا إنه ذلك المبدأ الفلسفى الذى يرد، بشكل أو بآخر، كل مظاهر الكون إلى صراع بين ضدين.

هذه «المثنوية» كانت موجودة، بهذا الشكل أو ذاك من العمق والوضوح، فى كل الفلسفات والميثولوجيات القديمة، بشكل ملفت للنظر فى مصر الفرعونية وفى بلاد ما بين النهرين قد انعكست، كما نعرف جميعاً، فى كتاب العهد القديم لسفر التكوين.

والمزدكية التى كانت الديانة الفارسية المنتشرة فى هذا الجزء من العالم، من الألف الثالث ق.م حتى العصور الهيلينية، والتى كانت تصور الإله المطلق (زيرفان) كإله كامن.

والمزدكية التى أثرت فى الكثير من فلسفات وديانات العالم القديم، أثرت كذلك فى اليهودية التى أخذت أيضاً الديانة المصرية القديمة كما أخذت المسيحية وهى كانت أساس تلك المثنوية النسبية، حيث لا وجود لمبدأى الخير والشر من حيث الجوهر لأنهما لا يتناقضان، إنما يتحققان كانعكاس لمبدأ سابق وأحدى هو الإله المطلق وذلك حسب تلك الديانة.

وهذا ما نجده أيضاً فى العصور المسيحية الأولى من خلال المانوية التى كانت ديانة فلسفية بكلِّ معنى الكلمة: ديانة حاولت حينئذ انطلاقا من التفسير المثوى عينه، تقديم تفسير منسق لعالم يظهر وكأن الشر فيه هو السائد، وهذا ما نجده أيضاً لدى البوغوميل أو البلغار فى العصور المسيحية الأولى، وحتى العصور الوسطى حتى الكاثاريين.

ويوجد عند الكاثاريين التمايز بين الخير والشر حين باشر لوسيفر Lucifer (إبليس) بناء عالمه الخاص، متعاوناً فى هذا أو منسقاً مع الإله الذى أمده ببعض الملائكة ليتجسدوا فى أجسام مادية ويشكلوا الجنس البشرى هذا الجنس الذى بات عليه السعى من جديد، بمعونة الإله، للعودة إلى حالته الأصلية، وفداه الإله بابنه يسوع وبالروح القدس لإنقاذه من حالته «الساقطة» عن طريق «الكلمة» وهذا لأن ابن الإله يسوع، بحسب الكاثاريين لم يتجسد، إنما كان الكلمة بحد ذاتها.

وعندهم أن يوحنا المعمدان كان شيطاناً أو ملاكاً؛ وكانت العذراء مريم امرأة حقيقية وملاكاً لا جسد لها كيسوع،

وهكذا، لن يكون هناك يوم قيامة جسدية، وإنما يوم حساب أخير يعود فيه الملاكان آدم وحواء اللذان تجسدا فى أشخاص أخنوخ وإبراهيم ونوح والأنبياء، وحصلا على الخلاص فى ملكوت السماوات عبر شخصى سمعان وحنة، وهكذا سيتحلل هذا العالم «كخلية شيطانية» فيرجع إلى عناصره الأولى إلى تلك الفوضى البدئية التى أخرجتها الألوهة من العدم، حيث سيمكث الشيطان وزبانيته إلى ما لا نهاية وسيكون الجحيم.

وهناك كاثاريون آخرون آمنوا بمثوية مطلقة، أو شبة مطلقة مثوية تقول بأزلية المبدأين: أزلية إله الوجود والخير، الخالق لكل شىء حسن، واللامرئى، ولعالم الأرواح الطاهرة، الذى يقابله إله شرير مفسد وخبيث، وأزلى أيضاً من خلال وجوده المادى والفوضوى، هنالك إذن أزلية خيرة مستقرة ولا متناهية وأزلية شريرة لا محدودة، ومستمرة التحول والتبدل والتناقض، تعارض الأولى وتحاربها، وستبقى هذه هى الحال حتى نهاية الأزمنة، أى حتى يتم القضاء على بنيان هذا العالم الشيطانى الذى سيبقى مع عناصر الفوضى بعد أن يفقد كل تأثير له على العالم الآخر، فيكون الجحيم الحقيقى الأزلى مقابل الأزلية الإلهية الحقيقية.

فى كتاب المبدأين الذين يحاول الكاثاريون إعطاء تماسك فلسفى أكبر لهذه المثوية المطلقة يتمثل فى:

١- الخير والشر أزليان، وينبثقان منهما وينبثق الشعاع من الشمس.

٢- يطول الإفساد - النابع من إله الشر - كُلَّ مخلوقات الإله الحق: «حتى النجوم ليست طاهرة» كما يقال.

لقد كانت هناك كوارث دائمة فى العوالم العليا؛ والخطيئة طالت حتى السماء، ولكن قدرة الشر تبقى محدودة يفيض الخلق وأزليته النابعة من إله الخير وبقوانين الضرورة (فالشيطان لا يستطيع منع من أغواهم من تجاوز سلطانه من خلال التضحية)، كذلك فإن إله الخير لا متناهى المقدرة من خلال خيره، وفى وسعه تعزيز كيانات بعض مخلوقاته السائرين على طريق الخلاص، فهكذا تم حفظ المسيح طاهراً من كل إثم؛ وهكذا سيخلص من يختار طريقه كما يعتقدون.

إذ تبدو المثنوية «المطلقة» إن نظر إليها كمفهوم فلسفى، «نسبية»، رغم ذلك ومتفقة فى النهاية مع تلك المثنوية «الأخرى» حول وجود مبدأين يحكمان عالمنا على المدى المنظور: «عالم خير وعالم شر»، «عالم ظلام وعالم نور.. ومن الخير يلد ما هو نور وتلد الروح، ومن الشر تلد الظلمات وتلد المادة..» الكاثاريون، فى هذا الخصوص يرجعون إلى تلك الفقرة من سفر التكوين التى تقول «لما ابتدأ الناس يكثرون على سطح الأرض وولدت لهم بنات، رأى بنو الله بنات الناس حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع ما اختاروا فقال الرب: لا تحل روحى على الإنسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مائة وعشرين..» (تكوين ٣:١-٣) - مما يوحى بأن الشيطان قد أغوى «أبناء الإله» من خلال المرأة.!!

وكان للكاثار «Les cathares» والألبيجيين «Les albigeois» مفاهيم عن الجحيم غير واضحة، ومن نتائج التحقيق الواسع الذى أجراه، فى مستهل القرن الرابع عشر، المحقق فى محكمة التفتيش، فى مونتابو، جاك فورنييه، أن الناس فى القطاع الجنوبى الغربى من فرنسا يعتقدون بأن النفوس تتوه لحظة بعد الموت ثم تذهب إلى مقر الراحة.

وفى نهاية العالم يخلص الجميع، وجهنم هى للأبالسة فقط، وليهوذا الإسخريوطى، ولليهود عند البعض.

أما الجحيم، بالنسبة إلى المؤمنين منهم، فهو سجن النفس فى الجسد.

وفى نهاية العالم يكون الخلاص شاملاً، وسيحدث حريق شامل يسببه انصهار العناصر الأربعة ويتلاشى فيه الشر.

والكاثاريون الإيطاليون، استناداً إلى كتاب مجهول المؤلف، ينكرون كل وجود لجهنم التقليدية لسبب بسيط هو أن العالم هو من خلق لوسيفورس الذى لم يعد مكاناً للعذاب له ولأتباعه.

ويظهر من وقت إلى آخر مبشرون ودعاة يستشف من تعاليمهم وجود متشككين، حيث يقول جوليان الفازليانى «Vezelay»، فى القرن الثانى عشر، إن

بعض المسيحيين ينكرون وجود الجحيم، وهى ملاحظة يؤكدها الناسك الإنكليزى ريتشارد رول الذى عاش فى القرن الرابع عشر.

ظهور فكرة المطهر:

وضع جاك لوغوف فى كتاب شهير أصول مفهوم المطهر الذى كان نطفة منذ عصر آباء الكنيسة ويبدو الانقسام الثنائى جهنم - الجنة، للبعض وكأنه ممعن فى البدائية والأصولية.

فالكثيرون من المؤمنين، وإن كانوا لا يستحقون جهنم، لا يكونون عند موتهم فى حالة تتيح لهم التمتع مباشرة بسعادة سكان الجنة التى تتطلب طهارة مطلقة، ومن هنا جاءت فكرة التطهير.

فكرة «التطهير» من الخطايا العرضية بواسطة «نار مطهرة» تختلف عن نار جهنم مثل ما قاله مطهر القديس باتريك.

إن المطهر، بالنسبة إلى البعض، يقابل الطبقة العليا من جهنم التى نجدها تكراراً فى المفاهيم الوثنية للعوالم الجهنمية ذات الطبقات.

ويرى آخرون أن المطهر يتفق مع التعبير التوراتى «حضن إبراهيم»، مكان الراحة والانتظار هذا حيث كان يقيم الصالحون قبل مجىء المسيح، وهؤلاء هم الآن فى الجنة، وشغرت مراكزهم لتشغل من جديد.

وراحت الفكرة تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، وتتلقى دعمًا قويا مع ضرورة وجود معدلات نسبية بين الجريمة والعقاب، وصعود الأوساط البورجوازية التجارية ابتداءً من القرن الحادى عشر، إذ أصبح الشبه يتنامى شيئاً فشيئاً بين سجل الأعمال الصالحة والشريرة ودفاتر الحساب.

وفى نهاية القرن الثانى عشر لخص راوول أردان النظام بشكل نهائى وحاسم حيث قال:

«إن الذين هم فى حالة الصلاح التام ينتقلون بعد الموت رأساً إلى مقر السعادة

وليسوا بحاجة إلى صلواتنا ونذورنا، بل نحن الذين نفيد من صلواتهم - والذين هم فى حالة وسطى من الصلاح وهم متمسكون بالإقرار بالإيمان والتوبة الخالصة، وبما أنهم ليسوا أطهاراً تماماً، هؤلاء يطهرون فى أماكن التطهير، فالصدقات والقداديس مفيدة لهؤلاء دون شك.

فليس باستحقاقات جديدة بعد الموت يجنون الفوائد، بل نتيجة لاستحقاقاتهم السابقة، وأما الذين أدينوا فلا يستحقون هذه النعم، ولكن نحن، إخوتهم، الذين نجهل من يحتاج إلى صلاة ومن لا يحتاج، من تفيده هذه الصلاة ومن لا تفيده، فيتوجب علينا تجاههم جميعاً، ومن بينهم من لا يمكننا أن نتأكد من وضعهم، أن تقدم الصلوات والنذور والقداديس، وتقدماتنا هذه تكون أعمال شكر للذين هم فى غاية الطهارة، وتكفيراً للذين هم فى حالة وسط.

أما بالنسبة إلى الهالكين فتكون نوعاً من التعزية للأحياء، وأخيراً، فسواء أكانت هذه التقدمات مفيدة لمن تقدم من أجلهم أم لم تكن، فهى على أى حالة تفيد من يقدمها بتفان وإيمان وإن من يصلى لغيره فكأنه يعمل لنفسه»(١).

وفى مطلع القرن الثالث عشر، أعلن البابا إينوقنتيوس الثالث، فى إحدى عظاته بمناسبة عيد جميع القديسين رسميا، وجود مكان لتطهير الخطأة غير المحكوم عليهم بالعذاب الأبدى، وفى سنة ١٢٧٤م يصدر مجمع ليون صياغته العقائدية.

جاء ظهور المطهر ليقوى سلطة الكنيسة إلى حد بعيد فى موقفها التوسطى بين الله والناس عن طريق نظام الغفرانات.

فمن الممكن أن نخفف عذاب المطهر بتلاوة الصلوات وإقامة القداديس التى تُشْتَرى لقاء تعريفة محددة بدقة.

وسرعان ما غدا المطهر موضوع مساومة فى سوق تجارية تدر الأرباح على رجال الدين، ويطبق هؤلاء التجار نصيحة القديس لوقا: «اكتسبوا الأصدقاء بالمال الحرام حتى إذا زال المال استقبلوكم فى المنازل الأبدية». (لوقا ١٦, ٩)

(١) انظر المؤلفات اللاتينية لآباء الكنيسة مجلد ١٥٥ مجموعة سنة ١٤٨٥م.

إن هذا الدعم لسلطة الكنيسة والاستغلال المالى لحقيقة روحانية، هما من أسباب المعارضة الشرسة التى شنها الهراطقة على المطهر، ونجد بوادر ذلك فى القرن الحادى عشر.

وفى سنة ١١٣٤ أوقف تلميذ لبياردويروس، يدعى هنرى، بسبب إنكاره وجود المطهر.

وبعد ذلك بعدة سنوات ثار القديس برنار بشدة على هذه «الحيوانات الخبيثة»، هؤلاء «الأميين الغلاظ» الذين يعترضون على المطهر.

وفى نهاية القرن تصدى برناردو فونكود للفوديين[1] «Les Vaudois» للأسباب ذاتها، ونصادف، خلال القرن الرابع عشر، فى شمالى إيطاليا، اعتراضات مشابهة، وندرك الدور المحدد الذى لعبته قضية الغفرانات فى قيام حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر.

■■■

(١) جماعة مسيحية أسسها بيار جالدو فى ليون فى القرن الثانى عشر وتعرف باسم فقراء ليون.

الغنوصية ومحاولات
إدراك الأسرار الربانية وإنكارها لجهنم

الغنوصية (أو العارفية أو العرفانية) هى مدرسة عقائدية أو فلسفية حلولية نشأت حول القرن الأول الميلادى، ويعتقد البعض أن لها جذورا وبدايات تعود إلى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد فى المجتمع السكندرى لتبرير انتشار الديانة المصرية القديمة فى الإمبراطورية الرومانية بجانب الديانات المحلية.

أخذت الغنوصية طورا جديدا لدى ظهور المسيحية لإثبات تواؤم المعتقدين، وكانت لا تتعارض مباشرة مع الديانات.

وقد قامت الكنيسة بمحاربتها وقمعها إلا أنها عادت للظهور بقوة فى ١٩٤٥ لدى اكتشاف مخطوطات نجع حمادى المكتوبة فى القرن الخامس الميلادى والتى مازالت المصدر الرئيسى والأكبر للغنوصية، التى تعد نزعة فلسفية دينية تهدف إلى إدراك حقيقة الأسرار الإلهية.

«الغنوصية» Gnose كلمة يونانية تعنى «المعرفة» اصطلح الدارسون على استخدامها لوصف عدد من الحركات الدينية فى فترة سيطرة الإمبراطورية الرومانية، كثير منها لا صلة له على الإطلاق بالمسيحية.

وهى تيار ومذهب فكرى معقد ذو فلسفات باطنية، بذل جهده لاكتساب المعارف الفلسفية الوثنية، مهملاً فكرة الوحى الإلهى كأساس لكل معرفة لاهوتية، ومفسراً إياها تفسيراً مجازياً خالطاً بين النظريات الفلسفية الوثنية مع العناصر الذى نقلها مع العبادات الشرقية، مكوناً بذلك نظريات وفلسفات غريبة.

المعتقد الرئيسى للغنوصية هو الرؤى اليهودية وأفكارها عن العالم السماوى، بالإضافة إلى نظرية ثنائية الكون والخلق - المنقولة نوعاً ما عن فارس والتى تضع

الله وأعماله «الصالحة» من جهة قبالة العالم وأعماله «الشريرة» من جهة أخرى، لهذا خرجت الغنوصية بمبدأ التعارض القائم - والدائم - بين الروح والمادة «الجسد» وهكذا خلع الغنوصيون على الفكر اللاهوتى طابعاً غنيا باستخدام المنطق، وبهذا يصح القول أنهم أسسوا اللاهوت العلمى أو «علم اللاهوت».

وتذهب الغنوصية إلى أن الخلاص هو فى تعلم الأسرار الخفية ومعرفة أصل الروح ومصدرها الحقيقى، ومعتقدها الثنوى يجعل الروح الخيرة فى مواجهة الجسد الشرير، وفى حالة تعارض دائم مع المادة الفاسدة، والأرواح وحدها تمتلك المعرفة، وهى قد خلصت بالطبيعة، وهذا يستتبع كرها للدنيا المادية ودعوة دائمة إلى الزهد.

وفى العقيدة الغنوصية، الإله الحقيقى هو إله يخفى عن عيون البشر ويتجلى بإله سفلى هو خالق العالم، وهى ترفض إله العهد القديم الذى تعتبره خالقاً شيطانيا شريراً وغيوراً ومسؤولاً عن كل مآسى العالم، وتعتبر المسيح معلماً روحياً مكلفاً بقيادة البشرية نحو معرفة الله الحقيقى الخفى.

والمسيح حسب الغنوصية ليس ابن إله العهد القديم، بل هو من «شيث»، الابن الثالث لآدم الذى ينتمى إلى المعبودة الأنثوية «باربيلو» Barbelo!!

والغنوصية حركة دينية خاصة، لكنها ليست محددة بسياق موحد، بل هى مجموعة من الفرق والمدارس التى كان لها فى عصور المسيحية الأولى عقائد مشتركة عن المعرفة، لكن الكنيسة الأرثوذكسية رفضت هذه الحركة بمعارفها وممارساتها، وذلك لأن أعضاء الجماعات الغنوصية، الذين كانوا يعتقدون أنهم يملكون مفتاح المعرفة غير المتاح للآخرين، قد تميزوا بالحقد على العالم المادى الذى كثيراً ما يعتقدون أنه ليس من خلق الله، بل من إله دونه قد خلقه ليحبس فيه أرواح البشر.

وفى المفهوم الغنوصى، أن البشر، حرفيا، محاصرون فى أجسادهم، كما فى قول المسيح مخاطباً يهوذا: «هذا يغلفنى» حسبما تشير مخطوطة «إنجيل يهوذا» (الإسخريوطى)، ومعنى الخلاص عندهم هو أن ينطلقوا ويتحرروا من أجسادهم المادية.

ظهرت الغنوصية عام ٧٠ ميلادية وتطورت فى القرن الرابع الميلادى، وصار لها عدة مذاهب، منها مذهب «القانيين» الذين ظهروا حوالى عام ١٥٨ بعد الميلاد، وهى جزء من حركة عبدة الأفاعى الذين يعتبرون الأفعى رسول الحكمة المنقذة للبشر، وكانوا يؤمنون أن يهوه كان ناقصاً وعقله ملىء بالجهل والغطرسة، لذلك اعتبروا أن اكتمال الطبيعة الإلهية يقتضى البحث عن حقائق مناقضة لتعاليم «يهوه»، فوجدوا فى «قابين» (قابيل ابن آدم) نموذجاً يعبر عن رؤيتهم ومن وجهة نظرهم أن «قابين» عندما قتل أخاه «هابيل»، برهن أن يفوق «يهوه» الذى يرعى هابيل فقدسوا «قابين» ثم أضافوا إليه «عيسو» وسكان مدينة سدوم (التى عرفت فى الكتاب المقدس بتجبر أهلها)، وأخيراً «يهوذا الأسخريوطى»، وغيرهم.

يرى بعض الباحثين أن فكرة عبادة الشيطان ترجع بأصولها إلى الديانة الغنوصية التى انتشرت مع انتشار المسيحية ولدى الغنوصية أن العالم فى الحقيقة هو الجحيم، وأنه عالم الشر ولا يمكن أن يخلقه إله خير، وهم يعتبرون أن كل القصص التى تتحدث عن الخلق فى الديانات السماوية مغلوطة.

ثم ظهرت هذه الحركة فى القرن التاسع عشر على يد ساحر إنجليزى يدعى أليستر كراولى وهو من عائلة عادية تخرج من جامعة كامبردج فى بريطانيا، كان مهتم بالظواهر والعبادات الغريبة، دافع عن الإثارة والشهوات الجنسية فى كتابه «الشيطان الأبيض».

انضم كراولى إلى نظام «العهد الذهبى» وهى إحدى الجماعات السرية، أصبح كراولى هو المعلم الأول لجماعة عبدة الشيطان، وكان يعلن أنه يتمنى أن يكون قديس الشيطان، فى عام ١٩٠٠ ترك العهد الذهبى وعمل نظاما خاص فيه يسمى «النجم الفضى» وبدأ يسافر إلى أنحاء العالم واشتهر بتعاطيه ومتاجرته فى المخدرات مما جعل الحكومة الإيطالية تقوم بطرده سافر بعدها لسيلان، وأكمل مشواره، ألف كراولى كتاب القانون الذى دعا فيه إلى تحطيم الأسس والقواعد الأخلاقية التى تحكم المجتمعات ودعا إلى الإباحية الجنسية، توفى كراولى عام ١٩٤٧م.

طور هذا المذهب أنتون ساندور ليفى وهو يهودى الأصل أمريكى الجنسية

يزعم أنطوان أن الله قد ظلم إبليس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، يقول أنتون إبليس ملاك تعرض للظلم على الرغم من أنه رمز القوة، وينكر أنتون الأديان جميعها ويطالب بدليل مادى على وجود الله أما الشيطان فالأدلة عليه كثيرة وآثارها موجودة وقوته خارقة.

فالشيطان بنظر هذا اليهودى يمثل الانغماس الذاتى وإطلاق المرء العنان لأهوائه ورغباته وشهواته بدلا من الامتناع عنها، والشيطان يمثل التواجد الحيوى غير الكاذب، ويمثل الحكمة غير المشوهة وغير الملوثة بدلاً من خداع النفس بأفكار زائفة، ألف أنتون العديد من الكتب وقام بعمل بارز وهو إنشاء كنيسة الشيطان فى سان فرانسيسكو فى ٣٠ أبريل من عام ١٩٦٦ ويقومون فيها بتمجيد الشيطان والاستمتاع بكل ما حرمته الأديان، استمر أنتون بأعماله إلى أن أهلكه الله تعالى فى عام ١٩٩٧م.

فى حقيقة الأمر أن عبادة الشيطان موجودة منذ القدم وأشار إليها القرآن فى عدة مواضع ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ **(يس: ٦٠)**.

وعندما يخاطب إبراهيم ﷺ والده ويقول ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ **(مريم: ٤٤)** هذه الآيات وغيرها دليل على وجود عبادة لشيطان منذ القدم ولكنها تختلف كلياً عن وقتنا الحاضر من ناحية الأفكار التى تحملها وطرق تأديتها.

وعبادة الشيطان لها جذور فى معظم حضارات العالم ولعل أقدمها كان لدى الفراعنة فكما تشير الكتب أنه كان لديهم إلهان الأول إله الخير وهو ما يعرف بأوزريس والآخر إله الشر ويعرف بـ«ست - أحياناً تيمى ساتان - وكلاهما كان مقدسا»، وكذلك الهنود كان لديهم أكثر من إله من ضمنها إله الشر المعروف بـ«شو».

وفى بابل وأشور تذكر الأساطير أن هناك آلهة النور وآلهة الشر وكانا فى صراع دائم، وهناك طوائف عدة تعيد الشيطان منها الشامانية والمانوية تؤمنان بقوة الشيطان وتعبدانه ومازال لهما بعض الأتباع فى أواسط آسيا يقدمون له الضحايا والقرابين.

لقد اصطدم الإيمان بجهنم لدى مسيحيى القرون الوسطى بمقاومة مستمرة فى الأوساط الملحدة وخاصة عند الغنوصيين وأتباعهم فى أوربا والتى اعتمدت على الفكر الإغريقى والعبادات السرية فى القرون المسيحية الأولى ويرتكز المفهوم الغنوصى على ازدواجية الروح - الجسد، والخير - الشر، يحكم الفئتين إلهان متعادلا القوى.

حيث يعتقدون أن إله الخير خلق العالم الروحانى وإله الشر العالم المادى الذى تعيش فيه النفس أسيرة، من هنا فالجحيم هو الحياة الحاضرة، وواقع النفس أن تكون سجينة فى هذا العالم، أن تكون مقيدة بجسد مع تطلعها إلى التقمص.

ويتحد هذا المفهوم فى النهاية بمفهوم لوكريس الوجودى، وهذا العالم هو مكان تحرك عبثى خاضع لشرائع طبيعية جائرة إذ إن كل لحظة من الزمن تدمر سابقتها فى مسيرة حتمية نحو الموت.

ويصف المانويون، المتفرعون فى القرن الثالث من الحركة الغنوصية، هذا العالم الجهنمى بعالم الظلمات، تحكمه قوى شريرة تثير قلقاً جهنميا.

حيث تقول إحدى ترانيمهم إلى إله الروح:

«أنقذنى من أغوار هذا العدو

من الهاويات المظلمة حيث كل شىء فناء

لا شىء سوى العذاب، سوى الجراح القاتلة

حيث لا مغيث يرجى ولا صديق!

أبداً وألف أبداً، ليس فيه من خلاص

كل شىء غارق فى الظلمات

السجون تملأ المكان ولا سبيل إلى الهرب

ويضرب كل قادم إليها حتى يثخن بالجراح

مقفر بسبب الجفاف، محروق بالهواء الحار

اخضرار فيه على الإطلاق

من ينقذنى منه ومن كل ما هو جارح

من ينجينى من القلق الجهنمى؟».

والخلاص عند الغنوصيين يكمن فى معرفة الحقيقة التى توحى لكل إنسان بطبيعته السامية، إن كل عنصر مادى حسب تعاليم مانى يسجن إلى الأبد فى كرة مع الأرواح التى لم تكن قد ظهرت ويرى ويعتقد الغنوصيون فى جنوب فرنسا أن مصير الأشرار هو الفناء وبالتالى فهم يعتقدون بعدم وجود جهنم أصلاً.

إنها عقائد الشيطان.

■■■

تطور فكرة جهنم والجحيم في المسيحية حديثاً

7

- مفهوم جهنم فى المسيحية من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر فى أوروبا.
- مفهوم جهنم فى العصر الحديث.
- ذكر أصحاب النار فى القرآن.

تطور مفهوم جهنم فى المسيحية فى القرن السابع عشر حتى التاسع عشر:

شهدت المسيحية فى عصورها المتعاقبة فى أوروبا تطورات وخاصة فى فترات الإصلاح الكنسى التى انتهت بفصل سلطة الكنيسة عن الدولة.

واهتمت المحاولات الإصلاحية التى نادى بها الإصلاحيون بداية الأمر بتنظيم شؤون الكنيسة الكاثوليكية ثم تجديد معتقدها بظهور المذهب البروتستانتى، فكان المجمع المسكونى التاسع عشر المعروف بالتريدنتينى خلال الفترة من ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣م والذى عقد فى مدينة ترانتو الإيطالية.

وكان الإصلاح التديدنتينى، الذى دخل حيز التنفيذ فى الثلث الأول من القرن السابع عشر، ثورة ثقافية حقيقية أكسبت الكنيسة وجهًا جديداً حاسماً إلى حد ما وذلك إلى حين عصفت الخلافات من جديد على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر.

وكان الإصلاح إعادة نظر فى الثقافة الغربية برمتها بعد فوضى العصر الوسيط والنهضة، فأعيد تحديد المعتقدات بدقة فجمدت، وترسخ النظام الكنسى فى توليف شامل مستجيباً لضرورات المرحلة الواقعة ما بين ١٦٠٠ و ١٦٥٠م.

وحدث منذ نهاية القرن السابع عشر تباعد فى التفكير راح يتزايد مع التحول الثقافى الباعث على رفض المعتقدات التقليدية مثل الجحيم وجهنم وغيرهما من المعتقدات.

وكان لمفهوم الجحيم صورة كاملة عن هذا التباعد، وتكامل الإيمان بالجحيم، الذى نظم بعناية وبروح تقليدية فوضى التجاوزات التى حدثت فى القرن الرابع عشر وامتدت إلى السادس عشر، تكامل العقيدة الشاملة بالتناغم مع حضارة القرن العظيم (القرن السابع عشر فى فرنسا) فى إطار وجهة نظر نخبوية محدودة تحتفظ بالسماء لعدد قليل من المختارين.

وازداد التزمت فى القرن التاسع عشر، عصر المعارك الذى تصلبت خلاله المواقف، فمنذ السنوات ١٦٨٠ ـ ١٧٢٠م عادت فكرة الجحيم موضع شك ونقاش وخاصة بمبدئها الأساسى أى الخلود.

وبرهن فلاسفة القرن الثامن عشر والمسيحيون المتحررون (الليبراليون) فى القرن التاسع عشر التضاد القائم بين محبة الله والعذاب اللانهائى، فيما صمدت الكنيسة فى موقفها. وشيئاً فشيئاً تراجع الخوف فى أذهان المؤمنين من جهنم العالم الآخر حتى أصبح فى القرن العشرين إيمانًا بجهنم أرضية وبشرية بحتة.

أى أنكر المؤمنون بالمسيحية فكرة جهنم الأخروية والخلود فيها أيضاً، وآمنوا أن العذاب فى الأرض فقط.

ودمجت جهنم فى صلب عملية إعادة التنظيم الإيمانى والراعى للإصلاح الكاثوليكى كجهاز أساسى فى مخطط الخلاص، وكان دورها راعويّاً وأخرويّاً فى الوقت نفسه.

وبعث هذا الدور الخوف الخلاصى فى نفوس المسيحيين لإبعادهم عن الخطيئة وتقديم حل نهائى لعامة الملحدين والجاحدين والوثنيين والمتمردين الذين يرفضون الصفح الإلهى فقط أما من يعترف بخطيئته قبل موته فقد نجا ودخل النعيم الأخروى.

وأمام هذه الهرطقة من الإصلاحين ظهرت التعاليم والمفاهيم الجديدة بشكل واضح فى أذهان المؤمنين بصيغ دقيقة وحاسمة، وتخصص تعاليم بورج مثلاً فى طبعة ١٧٣٦م أكثر من عشر صفحات للدينونة ولجهنم، والمقطع الأساسى منها:

س ـ ما هى جهنم؟

ج ـ إنها المكان الذى يُرْسَل إليه من يموت فى حال الخطيئة المميتة.

س ـ كم يلزم من الخطايا للسقوط فيها؟

ج ـ خطيئة واحدة لم يندم عليها مرتكبها ندامة حقيقية تكفى ليخسر نفسه إلى الأبد.

س ـ كم يكابد الخاطئ من عذاب جهنم؟

ج ـ يلخص عذابه بعذاب الحواس، بعذاب جهنم وبعذاب الأبدية.

س ـ ما الذى يجب ملاحظته، استناداً إلى الكتاب المقدس، بخصوص هذا العذاب؟

ج: ١ ـ المكان، الذى هو سجن رهيب، هو زنزانة مرعبة محفورة فى قلب الأرض.

٢ ـ السلاسل التى تكبل أرجل الهالكين وأيديهم وتنتزع منهم كل أمل بالهرب والدفاع عن النفس.

٣ ـ الجماعة، جماعة الهالكين وهى عبارة عن جميع الخطأة على هذه الأرض وكل اللصوص وشر من وجد من الناس، زنادقة، مجدفون، قتلة، سحرة إلخ.. المتباغضون، المتلاعنون، المتحاقدون.

٤ ـ سيد هذا الكون البائس هو لوسيفور أى الشيطان وزبانيته، أى هذه الأرواح الساخطة الشريرة، المسعورة، القبيحة المنظر، الكريهة، الماكرة، الطاغية التى تعبئ حقداً مريراً قاتلاً على الجنس البشرى.

٥ ـ تألم جميع الحواس وجميع القوى، هناك تغشى العيون ظلمات كثيفة لا ترى فيها نوراً على الإطلاق: هناك الدموع والنحيب وصريف الأسنان والبكاء والعويل والحسرات والشهيق والزفير، هناك نتن لا يطاق تتنفسه هذه التيوس الجهنمية فى بؤرة هذا العالم، فى هذا المكان الكونى تزاد عليه رائحة الكبريت المنبعثة من الجحيم.

هناك تبتلى الآذان بالصياح، بالتذمر باللعنات، بالشتائم، بالتجاديف، هناك جوع مسعور وظمأ لاهب يقضان مضاجع هؤلاء المساكين، ودودهم يقرض قلوبهم باستمرار.

ولكن ماذا نقول فى هذا المستنقع الملتهب بالنار والكبريت الذى يغوص فيه المدانون ويحترقون إلى الأبد؟ كان ذاك نموذجاً من جهنم».

وهكذا أصبحت جهنم جزءاً هاماً فى الخطاب الدينى المسيحى.

واتخذ الوعاظ من جهنم جزءاً مكملاً لمواعظهم النظامية فى الكنيسة من خلال

نماذج توفرها كتب مخصصة مثل «مكتبة الواعظ» لصاحبها فنسان هوردى، فى بداية القرن الثامن عشر الذى يخصص ١٠٣ صفحات لمادة «جهنم» ويشير المؤلف فيها إلى الوسائل التى يمكن بواسطتها إثارة العذاب، ويطلب أن يشار دائماً إلى أهمية الصفة الحتمية لجهنم، كنتيجة لا مفر منها لحب الله وعدله، إن جهنم هى «معقولة إلى آخر الحدود».

ويعرض فنسان هودرى أيضاً تصميماً نموذجيّاً ومثالاً للأبحاث الكلاسيكية بثلاثة أقسام فى ثلاثة، صنعت منه المواعظ الدومينيكية مئات النماذج:

- مدخل: ها أنا محدثكم عن شىء رهيب.

- **القسم الأول: عذاب الجحيم**

١ - يزيده أهمية الخير المفقود.

٢ - يضخمه عنف الرغبة فى الانضمام إلى الله.

٣ - يعظم من هوله التأمل فى عبثية الأشياء التى فقدت من أجلها هذه الخيرات.

- **القسم الثانى: آلام الحواس المتمحورة حول النار الفائقة الطبيعية**

١ - تأثير هذه النار فى النفس والجسد.

٢ - توجد فيها كل العذابات الممكنة.

٣ - تسبب ألماً عظيماً بسبب انتشارها الشامل.

- **القسم الثالث: أبدية هذين النوعين من العذابات**

١ - إنها أبدية عادلة ومنصفة.

٢ - التفكير بهذه الأبدية يجعل الألم لا يطاق.

٣ - غريب عمى الناس الذين يصرون على ارتكاب المعاصى.

وتظهر إحصاءات مستندة إلى مئة مؤلف من مجموعة المبشرين المسيحيين التى نشرها الأب مينيه (Minge) فى القرن التاسع عشر، واستناداً إلى جان

دولومو (Delumeau)، أن نسبة القسم الذى يتحدث عن «التأثيم والتألم» يتراوح ما بين ٦١، ٨٤٪ من مؤلفات المبشرين.

ويبذل هؤلاء قصارى جهدهم ليثيروا الاهتمام بآلام الهالكين التى لا تغتفر(١).

ومن هذه المواعظ التى تخوف من عذاب جهنم تلك الموعظة لكاهن يسوعى يدعى بيار كوتون (١٥٦٤ ـ ١٦٢٦) ألقاها سنة ١٦١٦ فى موضوع «جهنم وعذاباتها»، فبعد أحاديث لا تنتهى عن الدينونة وطريقة إخراجها، يحشر الهالكون «التيوس النتنة الدنسة» ذات الأجسام «الخسيسة النتنة المشوهة المخيفة المرعبة»، إلى مملكة الشيطان على عمق ١٧٦٠ فرسخاً تحت الأرض.

وهذا وصف المكان:

١ ـ جهنم هى سجن أبدى مكتظ بالنار والعذاب المرعب الذى لا حصر له، لمعاقبة الذين ماتوا فى حال الخطيئة المميتة عقاباً أبديا.

٢ ـ جهنم هى مكان تحت الأرض مظلم قاتم فى وسط العالم حيث لا يدخل البتة لا نور الشمس ولا ضوء القمر ولا النجوم وحيث النار، بالرغم من أنها محرقة، لا تعطى نوراً.

٣ ـ جهنم هى معى (مصران) ضيق جداً يلتف حول سرَّة الأرض حيث لا يتوفر لجثث الهالكين مقدار قبر يلحدون فيه، وهم مكدسون بعضهم فوق بعض كما نرى القرميد فى قمائن الجير (أتون لصنع الكلس) الواحدة تلاصق الأخرى.

٤ ـ جهنم هى، بحسب القديس يوحنا، بحيرة من نار وكبريت، والحرارة المرتفعة المعدة للتعذيب لا أمل فى تبريدها، من هنا صريف الأسنان الذى يتحدث عنه الكتاب.

٥ ـ جهنم مكان حاشد بلك أنواع القاذورات التى تسيل من مجارير المنازل وقاذورات القرى ومراحيض السفن.

٦ ـ جهنم هى مدفن للجثث يقذف فيها الملائكة إفرازات الأجسام البشرية

(١) انظر تاريخ جهنم ـ جورج بنوا.

منذ أول مجرم وقاتل لأخيه حتى المسيح الدجال وأتباعه.

٧ ـ جهنم هى غار نتن يتصبب فيه عرق أجسام الهالكين الأحياء. ومن جثثهم الخبيثة يسح عرق متعفن لا يطاق.

٨ ـ جهنم هى كوخ غضب قفص مجانين ومجمع حمقى.

٩ ـ جهنم حفرة مقفلة من جميع الجهات بأقفال وقضبان حديد وغلالات أبدية وفوقها خاتم غضب الله.

١٠ ـ قال ترتليانوس متذمراً من الذين يريدون أن يكون كل ما يقال عن جهنم أخباراً مجازية: إن جهنم نار خفية تحت أرضية معدة للاقتصاص... ومن هؤلاء التعيس كلفان، وما يقوله حول ما جاء فى الفصل الثلاثين من نبوءة إشعيا حيث ورد ذكر التوفت[١] (المحرقة).

١١ ـ جهنم حالة دائمة يحرم فيها أعداء الله من الخيرات التى كانوا يتوقون إليها ويكابدون الآلام التى كانوا يخافونها.

جهنم هى ركام من العذاب عظيم حتى إن كل الآلام الأخرى التى تسببها العقارب ومنصات التنكيل ودواليب التعذيب والصوارى المحماة والمشاوى وثيران الفولاذ وحجارة الرحى والسلخ وخلع الأعضاء والخازوق وخوذات النار ونخس المخارز تضم إليها جميع أنواع المغص والتشنجات وحالات الضيق وتقلص الأعصاب وأمراض أخرى مهما كانت عظيمة وحارقة وحساسة فهى ليست بالنسبة إلى عذاب جهنم سوى وقع الندى».

ثم يعدد الواعظ أنواع التعذيب، ويعرض الأب كوتون على مدى صفحات وصفحات كل الأهوال التى استطاع أن يجمعها، وليس هناك سوى أجسام «مخزوقة»، ممزقة، مسحوقة، مغلية على النار، مشوية، مسجونة فى علب محماة، وأثداء وأعضاء

(١) (Tophet) وقد ورد تفسيرها فى الكتاب المقدس، الطبعة الأورشليمية بأنها قد تعنى محرقة وهى فى مكان ما من وادى ابن هنوم حيث كان يضحى بالأولاد قرباناً للإله مولك (Molek) ـ وقد جاء النص: لأن توفت معدة من الأمس مهيأة للملك عميقة واسعة ملؤها نار وحطب كثير ونسمة الرب كسيل من كبريت تتضرمها (م ـ ٣٠: ٣٣).

تناسلية مقطوعة ومثقبة: ويذكر فى عدة صفحات إضافية طرق عمل النار مؤكدا أن ذلك كله ليس رمزياً عكس ما يعتقده هذا «الملحد التعيس» كلفان.

وأخيراً، وبعد أن يذهل السامع بهذا العرض للَّحم والدم والنار يرهق السامع بالأعداد التى يوحى تراكمها الأخرق بالأبدية: «هناك تمضى العشرات من السنين والعشرونات والمئات والألوف وعشرات الألوف والملايين ومئات الملايين وملايين الملايين ومليارات المليارات والعذاب يتكرر ولا يتغير»(١).

جهنم الأرستقراطية

أما فى قصور الملوك، حيث تدعو الحاجة أيضاً، إلى التحدث عن جهنم، يقدم الوعاظ للنبلاء نسخة عنها ملطفة.

ويطمئن «بوردالو»، فى عظة عن جهنم النبلاء وعلية القوم بأن الشعب البدائى بحاجة إلى هذه الصورة السوقية، لكن جهنم الأرستقراطية المعدة للأشراف هى أكثر تأنقاً، لكل طبقة من الناس جهنمها ويقول: «تعرض هذه الحقيقة على الشعوب تحت أشكال حسية: مستنقعات من نار، هاويات ملتهبة، أشباح مفزعة، صريف أسنان، أما أنتم يا أعزائى المستمعين، وإن كنتم من هذا العالم ومن لحم ودم، فأنتم بمعنى آخر روحانيون، أنتم عقلاء هذا العالم وتطبق عليكم هذه الحقيقة ببساطتها الإيمانية، بحيث إنكم تعطون عنها فهما دقيقاً كافياً لكى يهديكم إلى التقوى.

أما ميشال هولان، فى «الوجه الخفى للزمن» و «تطورات العالم الآخر» يبرهن بكل وضوح، المعنى الدقيق العميق لهذه المواعظ التى تهدف إلى إعطاء صورة نقية عن العذاب، عذاب داخلى وخارجى معاً، مكون محيطاً ضاغطاً، لا مجال للراحة، مع وعى مستمر لأبدية هذا الوضع ويقول إن جهنم المسيحية هى أكمل نظام شمولى للعذاب تصوره عقل بشرى وإنها عالم مقفل من الشر المطلق وهى نقيض منطقى لدين المحبة المطلقة.

---

(١) المصدر السابق.

وتقدم البروتستانتية، فى القرن الثامن عشر، نموذجاً مماثلاً فى خطب الأنغليكانيين والطهريين من أمثال ج. دون (J. Donne)، ر. باكستر، إ. كالامى، ت. غوديون، و. بركنز.

والمعمدانى جون بونيان تلح عليه رؤيا الجحيم الذى يعرض عذاباته سنة ١٦٥٨م فى كتابه «بعض مشاهد من جهنم» الذى طبع خمساً وثلاثين مرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يؤلف جون ملتون سنة ١٦٦٧م ملحمته الجهنمية الرمزية الضخمة «الفردوس المفقود».

وهكذا اتسم القرنان السابع عشر والثامن عشر بوجود نوعين من جهنم الأولى هى للطبقة الدنيا، لعامة الشعب وجهنم أخرى للنبلاء.

وجاءت مجموعة ن. جيرار التى ألفها فى القرن الثامن عشر وعنوانها «المواعظ الموجزة أو التوجيهات الشائعة الموجهة خاصة إلى الشعوب الريفية» لتعطى فكرة جيدة معتمدة على جميع سجلات آثار النار، مصورة الهالكين كأتانين (جمع أتون) حية: «يتحول لسانهم قضيباً من حديد أحمر كالجمر. وشفاههم صفائح حارقة من نحاس، وسقوف حلوقهم أتانين مشتعلة. وأسنانهم صفائح من حديد كاوٍ، ورئاتهم منافخ للنار، وبطونهم ومِعدَهُم بواتق تُذَوَّب فيها أقسى المعادن».

وفى العصر نفسه ظهر كتيِّب شعبى ذو عنوان لافت «فكر فيها جيِّداً» أو تأملات حول النهايات الأربع الأخيرة يضيف إلى النار الأفاعى والتنانين، ويجهد فى البرهنة على أن الحواس الخمس معنية جميعاً بالعذاب: «بعد يوم الدينونة يكون لكل من الحواس الخمس عذابها الخاص.

فحاسة اللمس تحس بقوة باللهب المفترس، وتستعرض حاسة النظر أشياء مخيفة مثل التنانين والأشباح المرعبة، وحاسة الذوق تعانى المرارات الدائمة، وحاسة الشم تشم النتن الرهيب والأذان تسم الشتائم والصراخ وزمجرة الهالكين وقهقهات الأبالسة الساخرة من المسيحيين الذين توفرت لهم فرص ووسائل عديدة لتخليص نفوسهم فلم يفعلوا».

هذه الصور التى ينقلها الوعاظ فى سكان الريف يجعلهم يرتعدون خوفاً منها ومن أكبر الوعاظ فى هذا المجال الأب جوليان مونوار، حيث ألقى ٣٧٥ عظة فى بعثة فى مقاطعة بريتانيا السفلى ما بين عام ١٦٤٢م وعام ١٦٨٢م مستخدماً أكثر الأساليب التربوية ثورية مثل لوحات مصورة تمثل الطريق الفسيح، السهل الذى يوصل إلى جهنم.

وكان الترهيب حجته الرئيسية كما يروى هو بنفسه على إثر إحدى البعثات إلى أويسون: «نتكلم عن عذابات الجحيم والخطايا التى تبلغ بالناس إلى هناك». وكان السكان ينتحبون قائلين: «واحسرتاه! لقد عشنا حتى الآن كالبهائم ثم يا الله الكلى الصلاح أى غفران بالجميل ندين به إلى هؤلاء الذين أنقذونا من هذه الحالة البائسة»(١).

وكذلك كان الواعظ «فنسان دى بول» فى مواعظه فى «مجموعة مواعظ فى بعثات ريفية» وفى موعظته «عذابات جهنم الجسدية» يبدو ذاك المكان وكأنه قائم فى مركز الأرض، قاذورة كبريت وقار تتراكم فيها كل أقذار الكرة الأرضية.

وبالرغم من الظلام المطبق نرى «البشاعة المرعبة فى أجسام الهالكين» و«دواليب العذاب والحمم والخلاقين تغلى والتنانين والأفاعى» وطعامهم هناك «الضفادع والأفاعى واللحوم المهترئة النتنة».

ولا مجال لأية رحمة أو شفقة، وعلى مثال الغنى الشرير الذى يتوسل من أجل نقطة ماء منذ ألف وستمائة سنة فيجيبه الله: «تذكر أنك نلت خيراتك فى حياتك، ويجب أن تعاقب الآن على شراهتك جوعاً وعطشاً يحملانك على الصراخ والبكاء والعويل البائس وصريف الأسنان دون أن تحظى من الله بشفقة»(٢).

وهكذا كان القرنان السابع عشر والثامن عشر تشاؤماً أدخل غالبية الناس فى جهنم دون رحمة أو شفقة أو أمل فى الاستغفار وفى الغفران.

■■■

(١)، (٢) المصدر السابق.

الصراع بين العلمانية والكنيسة فى أوربا حول مفهوم جهنم

لقد شهد القرن التاسع عشر الصراعات الاجتماعية والسياسية، مما زاد من تشدد الكنيسة فى موقفها ووجهت صواعق نقمتها وغضبها على خصومها بتهديدهم بالذهاب للجحيم مثل تلاميذ الفلاسفة وأحرار المفكرين والملحدين والليبراليين والاشتراكيين والثوريين وأنصار العلمانية والعصاة من الناس.

وقاد هذه الحركة رجال الدين الذين نشأوا فى عزلة عن العالم فى أديرة متقشفة متزمتة يظهرون تشدداً لا هوادة فيه فى إدارة الرعايا أخلاقيا وحدث الصراع بين هؤلاء ورجال الدين من كهنة المستقبل وقد طالبهم بيار ـ دنيس بوابيه مدير اكليريكية سان سوليس معالجة «هول دينونة الله»، دون خوف من المبالغات، لأنه لا مجال للمبالغة عندما يتحدث الإنسان عن موضوع لا تستطيع مخيلة الإنسان ولا عقله أن يبلغاه أبداً».

إنكم لا شك ستكونون أنتم أنفسكم هالكين، لأنه قلما يكون الكاهن على مستوى مسؤولياته الخطيرة، وإن العزوف عن دعوتكم سيكون بلا جدوى: فتدانون لأنكم رفضتم دعوة الله وقال لهم:

وكانت تعاليم المدارس الإكليريكية تنمى لدى بعض النفوس الهشة وسواساً مرضيا بجهنم، من هؤلاء خادم رعية أرس، جان ـ مارى فيانى، كان الوسواس يعذبه طيلة أيام حياته، فيرى التهديد بالدينونة فى كل مكان، فى الأفكار الدنسة، فى الشرود أثناء القداس، فى عمل يقوم به يوم الأحد. ورسخ فى عقيدتهم أنه لا أمل بالخلاص للمليارات من الوثنيين الذين لم يتعرفوا إلى الإنجيل وإن الله ينتشى بالانتقام، وسيكون يوم الدينونة رهيباً وأنه يطرح السواد الأعظم من البشرية فى النار الخالدة بواسطة محاكمة مرعبة ولكنها فى منتهى العدل.

واستمر الصراع بين رجال الدين واعدائهم خارج الكنيسة واستغل رجال الدين جهنم للدفاع عن النظام الاجتماعى.

وفى سنة ١٨٥٠ م صرح الأب كوسيت، رئيس بعثة المبشرين المرسلين إلى تولوز، أن الثورة الفرنسية هى نتيجة ضعف الإيمان بجهنم: «لقد أزيلت جهنم من رمز وطننا فرنسا. وها هى الحرية الإنسانية، دون حكومة ولا من ينوب عنها، ترتمى فى هاويات لا تزال تحتفظ منها بالندوب، وجهنم التى أنكرتها، من أجل أن يزداد اطمئنانها، تغلغلت فى كيانها».

ويقول الأب كوسيت: «ألغوا الإيمان بالعقاب الأبدى يصبح العالم بابلاً».

وقال رجال الكنيسة إن جهنم خير ضامن للاستقرار الاجتماعى ولهذا خلقها الله ففى كتابات كلود لاكودر، كاهن رعية بايو (Bayeux) (١٧٥٥ ـ ١٨٣٦): «إن فى الطبيعة البشرية من الفساد ما يجعل الإنسان شريراً حتماً إذا لم يكن ثمة ما يخافه.

وانبرى الواعظ الدومينيكانى الشهير جان مونسابريه الذى كان يلقى المواعظ أثناء الصيام فى كنيسة نوتردام فى باريس من سنة ١٨٧١م إلى سنة ١٨٩٠م حول أبدية العذاب: إن الفائدة الاجتماعية بالنسبة إليه أساسية، وإن مثل الابن المبذر الذى سامحه أبوه لا يعنى له شيئاً البتة، فلو لم تكن جهنم موجودة لما كان الله والإنسان سوى ممثلين لملهاة بائسة تنتهى دائماً بوجود أب طيب القلب لا يعدم وسيلة لاحتضان ابن تافه خسيس ينقل إليه إرثه، إنها «سجن العالم الآخر»، فلولاها لكنا نرى «نيرون» منتشياً بالسعادة على قلب القديس فنسان دو بول».

وأضاف أنه لو لم تكن جهنم موجودة، فمن أى شىء يكون موت المسيح قد أنقذنا؟ إذا يجب أن نشهر سلاح التخويف من الجحيم، ألا نخاف من الترهيب، وخاصة ألا ندع مجالاً للمشاعر وقال: «لا شفقة، من فضلكم، لا تحنن صبيانيا، لا دموع! لا تمنحوا المغضوب عليهم عزاء السخرية منكم، لأن الواحد منهم، عندئذ، يتهم نفسه، يدين نفسه، يلعن نفسه».

ففى سنة ١٩٠١م، وفى ذروة الصراعات حول العلمانية أجابت مجلة «صديق

الأكليروس» كاهناً كان يتساءل ما إذا كانت الأحاديث عن جهنم مبالغاً فيها شيئاً ما، قائلة: «يجب أن نتحاشى تصوير جهنم ملطفة إلى حد يستطيع المؤمنون معه اعتبارها مصيراً يمكن تحمله، فبدلاً من أن نحاول إضعاف الاعتقاد بجهنم بإيجاد تسهيلات مستحيلة، لنجهدن فى أن نلقى فى روع الناس الخوف المنقذ من العذابات الهائلة التى تنتظر الخطأة غير النادمين على خطاياهم! وهى أفضل طريقة لجعلهم يتفادونها».

وفى شرقى أوروبا، فى ريف بولونيا، كان الإكليروس الأكبر يرهب القرويين بالطريقة نفسها كما يشهد على ذلك فنسنتى فيتوس (١٨٧٤ ـ ١٩٤٣) فى مذكراته، فيكتب: «إن هذه المبالغة من شأنها أن تصل ببعض الناس الشديدى الحساسية إلى حالة مرضية، لأن الجحيم الذى ينتظر الخطأة جميعاً والذى يصور بهذا الرعب، هو حرى بأن يسبب صدمة قوية».

وقد صدر فى هذه الفترة كتب كثيرة تتحدث عن جهنم والجحيم الأخروى، وقد نوقشت فيها بالتفاصيل جميع شروط الغفران وعذاب من سيدخل الجحيم ومن هم أولئك.

وفى عام ١٨٩٧م كتب اللاهوتى الألمانى هنريتش فى كتابه «اللاهوت الأدبى» أن لا مجال لإدانة الوثنيين.

وفى عام ١٨٩٨م يصرح اليسوعى كاستلاين فى كتابه «التشدد وعدد المختارين وعقيدة الخلاص» أن الهالكين هم لا شك قلة.

وفى السنة التالية رفض ف. ك. غودتس هذا الرأى فى كتابه الضخم الذى ألفه باللاتينية «قلة عدد الناجين» والذى برهن فيه ٧٣ من آباء الكنيسة و٧٤ لاهوتياً و٢٨ شارحاً للكتاب المقدس، أن عدد الهالكين أكثر من عدد الناجين.

وفى عام عام ١٩١٣م يقابل «معجم اللاهوت المسيحى» بين مصير الملحدين ومصير المجانين فيقول: «هناك درجات مختلفة من البله» تخفف المسؤولية عن الأعمال.

ويكتب اللاهوتى بالميس أن «حالة الغباء» التى يعيش فيها العدد الأكبر من المتوحشين يمكنها أن تنقذهم من الدينونة لأنهم أشد خبلاً من أن يعرفوا الإله الحقيقى ـ وفى عام ١٩٢٤ يدين أ. ميشال هذا التسامح فى كتابه «النهايات الأخيرة» ويعتبره تسامحاً مجرماً.

وهكذا دار النقاش العظيم والجدال بين اللاهوتيين حول جهنم وأهلها.

منذ منتصف القرن السابع عشر تعرضت بعض النقاط الأساسية من عقيدة الجحيم إلى هجمات صادرة عن أوساط مختلفة ومتحررة مثل التيارات البروتستانتية وبعض العناصر اليهودية.

وفى عام ١٦٥٤م نشر كتاب للطبيب والفيلسوف الألمانى سونر بعد وفاته عن «برهان لاهوتى وفلسفى عن هذه القضية وهى أن العذابات الأبدية التى يكابدها الخطأة لا تؤكد عدالة الله بل ظلمه» (نستغفر الله من قوله).

وبعد ثلاث سنوات وبطريقة ساخرة يستغل سيرانو دو برجراك، فى كتابه «التاريخ الهزلى لدلو القمر وإمبراطورياته» الخطأ الجسيم الذى تمثل بمحاكمة غاليليو عام ١٦٣٣م فيضع على لسان أحد اليسوعيين تفسيراً طريفاً لحركة الأرض فيقول: «أتصور أن الأرض تدور، ليس للأسباب التى ادعاها كوبرنيك، ولكن لأن نار الجحيم، كما يعلمنا الكتاب المقدس، كونها محصورة فى مركز الأرض، يحاول الهالكون التهرب من حرارة لهيبها فيتسلقون بعناء ليبتعدوا نحو قبة الجحيم، وهكذا يجعلون الأرض تدور مثل كلب يدير دولاباً عندما يركض محصوراً فى داخله»(١).

وجهنم بالنسبة إلى الملحدين فى كل العصور، هو مناسبة ممتازة للسخرية من الأديان ومنهم جان دومينو عام ١٦٧٠م الذى قال: أليس كل ذلك سوى أكاذيب أو أحاديث فى الهواء أو أضغاث أحلام.

وخلال الفترة من ١٦٨٠ إلى ١٧٢٠م كثرت التهجمات من داخل الكنيسة، والكتاب الذين مهدوا لعُبَّاد الله وحدهم يستخدمون الشعور والعقل النقدى لينكروا أبدية العذاب بشكل خاص. وفى سنة ١٦٩٥م يكتب شوليو: «ليس إلهى إلهاً

(١) انظر تاريخ جهنم ـ جورج بنوا.

قاسياً»، إنه لا يرتكب هذه الفظاعات.

وقد أيد هذا الرأى البارون دولا هونتان ١٧٠٣م.

وعادت فكرة أوريجينوس بخصوص الخلاص الشامل، إلى الظهور مجدداً مع «الإنجيل السرمدى لإصلاح كل المخلوقات بشكل عام». وهو كتاب ظهر سنة ١٦٩٩م.

و«سر الإصلاح الشامل» لمؤلفه جان ـ غليون بيترسون الذى ظهر فى ثلاثة أجزاء ما بين سنة ١٧٠٠ وسنة ١٧١٠م.

وفى سنة ١٦٩٧ يوقع بوسويه، نواى، رئيس أساقفة باريس، ولوتيلييه، رئيس أساقفة ريمس، بياناً يدينون فيه رأى الكردينال سفوندرات الذى كان يخص الأولاد الذين ماتوا بلا عماد ببعض الرحمة.

وكان أسباب الهجوم على جهنم بوصفها عذاب الله فى الآخرة للعصاة والكفرة، إن مفهوم الجحيم بحد ذاته لا يتفق إطلاقاً مع رحمة الله، والتذرع بأن للإنسان له الحرية فى أن يؤمن خلاصه، فالله كان يعلم أن الكثيريرن يسيئون استخدام هذه الحرية ويحكمون على أنفسهم بالهلاك ومن المستحيل أن يكون قد ترك الأمور تجرى هكذا وأنه حتى جحيم محدود المدى لا يمكن القبول به وقالوا أنه لا تستطيعون أن تبلغوا أقصى صلاح الله ما لم تتذوقوا عذاب جهنم حتى آخر دقيقة.

أما بخصوص الفائدة الاجتماعية للتهديد بجهنم فيكفى أن نستنتج أن نسبة الفاسقين لدى المسيحيين تضاهى نسبتهم لدى الديانات الأخرى ولدى الملحدين.

وكان هذا النوع من الجدال متعة لفلاسفة القرن الثامن عشر بدءاً بفولتير الذى جعل من الجحيم فى «المعجم الفلسفى» اختراعاً معدّاً لتمويه ثغرات العدالة الإنسانية.

والفلاسفة جميعاً متفقون تقريباً ضد الجحيم.

ويحمل مونتسكيو خاصة على سمة الأبدية فى مقال يعود تاريخيه إلى سنة ١٧١٧م بعنوان «ضد الإدانة الأبدية للوثنيين».

ويرى مارمونتيل، أن جهنم هى الأوزار التى يحملنا إياها، على هذه الأرض،

القادة السياسيون.

ويقول ديديرو «لقد طلب إلى اللاهوتيين، منذ أمد طويل، أن يوفقوا بين معتقد العذاب الأبدى ورحمة الله المتناهية، وهم لا يزالون على موقفهم».

إن هذا الإيمان مستحيل بالنسبة إلى دولباخ (D'Holbach). وكان كاهن سافوا دو روسو أكثر دقة إذ يقول:

يجب الاقتصاص من الأشرار حتماً ولكن القصاص يبدأ فى هذه الحياة مع الآلام التى يسببها الخبث لدى فاعلية، ولاشك أنه يستمر بعد الموت ولكن مؤقتاً وبشكل تأنيب ضمير فقط.

وراحت فكرة الخلاص الشامل تنتشر بحياء حتى بين الإكليروس.

ففى عام ١٧١٦م يكتب بيار كوبيه، الكاهن القانونى فى أبرشية سانت (Saintes): السماء مفتوحة لكل الناس أو دراسة لاهوتية بواسطتها نبرهن بقوة، ودون أن نُسىء إلى الممارسات الدينية، مستعينين بالكتاب المقدس وبالعقل، إن الناس جميعاً ناجون» ولم ينشر الكتاب إلا سنة ١٧٤٣ بالإنكليزية وسنة ١٧٦٨ بالفرنسية.

ويكتب لويس سنة ١٧٨٢ فى كتاب «السماء مفتوحة للكون كله»: «ليست جهنم سوى رواية رعب ورجس بإمكانها أن تعيد الكوكب الذى ينيرنا إلى الوراء»(١).

كان الجحيم، فى القرن التاسع عشر هو الموضوع المفضل لدى الشعراء والفلاسفة الملاحدة، وكذلك فى القرن العشرين استخدمته الوجودية وأصبح تعبيراً عن الضيق الأساسى لدى الكائن البشرى.

إن الفكرة القديمة، التى بموجبها تعتبر جهنم الوضع البشرى بكل بساطة والتى لقيت الدعم منذ ألفى سنة من قبل لوكريس ثم تبنتها دورياً التيارات الدينية المنشقة، انتهى بها الأمر إلى أن تفرض نفسها. لم تعد جهنم تحت الأرض بل فوق الأرض وفى قلب الإنسان، هذه فكرة ليست بعيدة عن علم اللاهوت إلى الحد الذى نعتقد.

وفى حدود عام ١٦٨٠م برزت أول الشكوك فى موضوع فعالية الترهيب من

(١) المصدر السابق.

الجحيم على لسان الوعاظ الذين صُدموا لعدم الحصول على نتيجة من خطبهم الدينية، وكان التناغم بينهم تاما، لم يفهم الأب فرومونتيير لماذا، وبالرغم من كل الجهوذ المبذولة لترهيب المؤمنين، لم يرتعدوا من الخوف.

ويعجب الراهب الكرملى سيمون فيقول: «تهدد، ولا أحد يرعوى أو يتوب». ويعبر الأب دولا كولومبير عن دهشته قائلاً: «جهنم موجودة والمسيحيون يعرفون ذلك. وجهنم مليئة بالمسيحيين!»

ويصرح الأب لوريو موجهاً كلامه إلى مستمعيه: إن موقفكم «يجعلنى أعاف رسالتى».

وتصبح الظاهرة أشد بروزاً فى القرن الثامن عشر. فقد أصبح الأب كومباسيريس يائساً: لم يعد المسيحيون يشعرون بالخوف: فعندما يهتمون بالدين «فمن أجل أن يروا الحقائق المعزية وكيلا يروا إلاَّ إلهاً رحيماً».

وعكف المؤرخون المعاصرون، فيليب أريس وبيار شانو وجان دولومو وفرنسوا لوبرون وميشال فوفيل وكثيرون آخرون، على دراسة هذه الظاهرة ولكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق. يقول فيليب أرييس: «لم يكن لمجتمع أن يقاوم هذا النداء العاطفى إلى الخوف، هذا التهديد الرؤيوى لو كان قد قبلهما وتمثلهما».

أما فرنسوا لوبرون فيفكر، خلاف ذلك فيقول: «إن هذا الحديث الرهيب حضر بطريقة علمية، ثم استمر لمدة ثلاثة قرون فى إطار أن يبلغ هدفه وهو: البقاء فى الطريق الصحيح بالتخويف من العقاب».

فى القرن العشرين أصبح فقدان الإيمان بجهنم واضحاً جليّاً، نجد صدى ذلك فى الصحافة الإكليريكية وخاصة فى مجلة «صديق الإكليروس» التى نشرت رسائل لكهنة يعتريهم قلق عظيم بخصوص مسائل رعاياهم.

وفى سنة ١٩٠٦ كتب أحدهم: «إنه لأمر غريب، لَكَمْ تَنَكَّر للجحيم مسيحيون ومسيحيات لا يفوتهم حضور القداس ولا صلاة العصر ويقومون بواجباتهم الدينية هير قيام، وهم يقولون: «يتحدث الكهنة عن جهنم أبدية للتخويف والبقاء فى

الصراط المستقيم ولكن دون أن يؤمنوا هم بها، لأنه من المستحيل أن توجد جهنم كما يصورونها لنا.

وقالوا: إن الله سيكون فى هذه الحال أباً قاسياً، وعندئذ يسأل الكاهن لاهوتيى المجلة عن الموقف الذى عليه أن يتبناه، ألا يمكن تغيير منهج الحديث عن جهنم والبحث عن تسويات؟

وهذا ما يقدمه أحد زملائه الذى يستنتج أن كثيرين من الوعاظ يتخذون قراراً بعدم التعرض لهذا الموضوع الشائك، ويذكر بعض أحاديث رعاياه الذين يظهر أنه عاجز عن إجابتهم، ومن أقوالهم: «أى أب، مهما كان قاسياً، شاذّاً، يحرق ابنه حيا، يحرقه على نار خفيفة، ويبقى هادئ الأعصاب أمام آلامه؟».

ويتساءل آخر ما إذا لم يكن عذاب جهنم انعكاساً لحالة العدالة البشرية فى النظام القديم وما إذا كانت النار ما ورائية.

ويطرح آخرون كل المسائل الكلاسيكية الكبرى: «ما ظنك فى الرأى القائل إن الوقت يأتى ببعض التخفيف لعذاب الهالكين؟».

ويتساءل آخر: «ما هى نسبة عدد الناجين إلى عدد الهالكين فى مجموعة الجنس البشرى؟، وكيف نوفق ما بين وجود هذا العدد الضخم من المنبوذين مع وجود رحمة الله وإرادته فى منح الجميع وسيلة صنع خلاصهم؟ وكيف تؤثر النار على النفوس؟

كل هذه الأسئلة طرحت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأمام هذا السيل من الأسئلة يقف اللاهوتيون صامدين.

ومجلة «صديق الإكليروس» التى صدمها الأمر رفضت الاتهام بأنها تريد استخدام الخوف للاحتفاظ بالمؤمنين تحت سيطرتها وترسل مروجيه إلى جهنم وأن هذا الاعتراض خاطئ حتماً وإهانة خطيرة توجه إلى رجال دين.

إنه نميمة بشعة تستحق العقاب أمام الله وحتى أمام العدالة الإنسانية، أما بالنسبة إلى سائر الأمور فتعتبرها المجلة ثمرة حساسية عصرية زائفة، وأنه إذا

كانت جهنم غير موجودة فلا يظنن أن الإنسان بحاجة إلى أن يرهق نفسه كثيراً من أجل تفاديها.

بل يجب إذاً ترسيخها، وتجتر المجلة كل الحجج القديمة لمصلحة العقاب الأبدى، ومن ضمنها الحجج القديمة، لأن ما يهمها هو النتيجة.

هكذا فالقول إن جهنم مبررة لأن خطأ ارتكب ضد كائن سرمدى ليس صحيحاً، لأنه آنذاك تكون كل خطيئة ولو عرضية تستحق العذاب الأبدى.

لا تستخدم هذه الحجة إلا مع «العقول القليلة الذكاء»: ورب عقول أقل ذكاء من أن تدرك ضعف هذا البرهان فتتأثر به، فيقضى هذا البرهان على الصعوبة التى تحول دون اقتناعها بأبدية العذاب، فتكون النتيجة الحاصلة جيدة».

وبالمقابل، إنه لدليل رعونة اقتراح هذا الجواب على عقول نيرة قادرة على أن تفهم أنه عديم القيمة».

كل شىء يدعم وجود الجحيم مبرر حتى إن مجلة «صديق الإكليروس» لم تتردد سنة ١٩٠٣م فى أن تضعه فى مركز الأرض مستندة بذلك إلى وجود البراكين، ولم تستطع المعارك الأخيرة أن تبنى سدا فى وجه موجة الاحتجاجات.

والحقيقة، أن الغالبية الساحقة من المسيحيين وحتى قسم من الملحدين الذى تنكروا حديثاً للدين المسيحى، ظلوا يحتفظون بشىء من الخشية والحذر والخوف ساعة دنو انتقالهم إلى العالم الآخر.

وتشير التحقيقات الاجتماعية إلى أن هذا الخوف ظل يتزايد نسبيا.

وفى مقاطعة بريتانيا السفلى، فى منطقة تميزت، إلى حد بعيد، بالبعثات الدينية الداخلية، لاحظ إيف لامبير أنه منذ عام ١٩٠٠م كان الناس يخافون حقا جهنم دون إفراط، مع وجود بعض الاستفتاءات وذلك لأنهم يفكرون فى القيام بما هو ضرورى لتحاشيها؟»(١).

ويذكر فى «أحاديثه» عام ١٩٢١م هذا التطور قائلاً: «إن الخوف من جهنم

(١) المصدر السابق.

مرض اختفى من بلداننا كما اختفى البرص. كنت أخاف كثيراً من الشيطان وأنا صغير لأنى كنت أحمل على محمل الجد الأفكار المبتذلة فى بلاغة الإكليروس.

ولكن عندما شعرت أن لا والداى ولا أصدقاؤهما ولا حتى الكهنة أنفسهم يخافون من جهنم، تحررت منها حالا، أما الحياة الأخرى فيجب ألا نستعجل القول أن لم يعد أحد يؤمن بها، ولكن يبدو لى إجمالاً أن هذا الرجاء قد تطهر من الخوف. إن الفكرة الأقوى اليوم لدى الكاثوليك المخلصين هى أن أفضل انفعالاتنا لا يلجمها الموت. وذلك أن لنا أسبابنا لنرجو وجوداً آخر ينقذ فيه كل ما كان خيراً ويُنسى كل ما كان شرا»(١).

ويقول جورج بنوا فى كتابه تاريخ جهنم:

واستمر التطور على مدى القرن العشرين وشهدنا انهياراً حقيقيا للإيمان بالجحيم ابتداء من السبعينات (١٩٧٠).

وفى مقاطعة بريتانيا السفلى أصبحت ملاحظات إيف لومبير المتشككة التى دونها فى بداية العصر أحاديث تهكمية متحررة من الوهم.

بل تحمل فى طياتها الاتهام مثل «كيف استطاعوا أن يقنعونا بمثل هذا؟»، كانت عقولنا محشوة بهذا الجحيم، بالمطهر وبكل هذه الأمور ولكنهم الآن لا يتحدثون عنها. يجب أن تكون قد تلاشت»، «جهنم، آه، لا أعرف إذا كانت لا تزال موجودة».

والأرقام تؤكد أن الإيمان بالجحيم كان الأكثر تراجعاً بين جميع المعتقدات الدينية التقليدية فى أوربا فقد تبين، استناداً إلى تحقيق أجراه فريق دراسة أنظمة القيم الأوروبية سنة ١٩٨١، أن ٧٥٪ من الأوروبيين يؤمنون بالله و٤٠٪ يؤمنون بالجنة و٢٥٪ يؤمنون بالشيطان و٢٣٪ يؤمنون بجهنم. لا تزال هذه الأرقام مرتفعة نسبياً. لقد تبدل المعدل من ٢٧٪ فى إنكلترا إلى ١٤٪ فى ألمانيا.

هكذا، ففى المسيحية القديمة، وبعد خمسة عشر قرناً من التبشير بجهنم أقل من ربع الشعب يحتفظ ببعض الإيمان بجهنم وهو أمر لا يستحق الذكر بالنسبة

---

(١) المصدر السابق.

إلى جهنم الكلاسيكية(١).

وآخر تدخل بابوى من النوع التقليدى كان تدخل الباب بيوس الثانى عشر الذى أكد فى ٢٣ آذار/مارس سنة ١٩٤٩: «أن التبشير بالحقائق الإيمانية الأولى وبالنهايات الأخيرة ليس فقط لم يفقد شيئاً من فرصه فى أيامنا ولكنه أصبح حتى ضروريا وملحا أكثر من أى يوم مضى، حتى الإنذار بالجحيم. لاشك أنه يجب معالجة هذا الموضوع بكرامة وتعقل.

ولكن بالنسبة إلى جوهر هذه الحقيقة، فعلى الكنيسة تجاه الله والناس واجب الإخبار عنه وتعليمه بدون أى تلطيف، وكما أوحى به المسيح: وليس من حالة زمنية بإمكانها أن تخفف من حتمية هذا الواجب».

ومنذ ذلك الحين لم يصدر شىء، أو تقريباً لا شىء، بل تلميح مختصر من المجمع الفاتيكانى الثانى دون أى ذكر لكلمة «جهنم»، ونداء خجول للبابا بولس السادس سنة ١٩٧١م. تلميحات نادرة وغامضة فى هذه الوثيقة أو تلك حول الآخرويات.

والكردينال راتسينغر الذى يأسف سنة ١٩٨٩م «للاختصار الجذرى» الذى طرأ على هذا الموضوع فى الأحاديث الكنسية، لا يخصص هو للجحيم سوى أربع صفحات من صفحات كتابه المئتين والسبعين وعنوانه «الموت وما وراءه».

ويصرح المعجم اللاهوتى عام ١٩٨٨م بخجل: «تعبر جهنم، على أى حال، عن نطاق الشر الذى يضعه الإنسان والذين لا يستطيع الله أن يحوله إلى خير ولكن يضطر إلى الاقتصاص منه اقتصاصاً أبديا».

وجاء فى كتاب «الإيمان» سنة ١٩٧٦م للاهوتى ت. راى - ميرميه: «يستطيع الإنسان أن يمتنع عن أن يحب» وهذه بالضبط الإمكانية التى تعلنها فكرة الجحيم».

والتعريف الذى أعطاه كارل راهنر يقول: «إن عقيدة جهنم تعنى هذا: إن حياة الإنسان مهددة باحتمال سقوط أبدى حقيقى، تهديداً يستمر فى واقع أنه يستطيع التصرف بكل حرية بمصيره ويمكنه بالتالى الابتعاد عن الله».

---

(١) المصدر السابق.

إن موقف الكنيسة الرسمى تتضمنه «ملاحظة دائرة تعليم الإيمان حول الحياة الأبدية والعالم الآخر» التى صادق عليها البابا يوحنا بولس الثانى سنة ١٩٧٩م، وتعلن «الملاحظة» أن الكنيسة «تؤمن بأن العقاب ينتظر دائماً، الخاطئ الذى سيحرم من رؤية الله ونتيجة هذا العقاب على كيانه كله».

ويحاول اللاهوتيون إعادة صياغة المعتقد القديم، ولكنهم غارقون فى حيرة حقيقية فلا يعثرون على الكلمات المناسبة، ويعترف معجم اللاهوت المسيحى عام ١٩٧٧م بقوله: «عندما لا نعرف شيئاً يستحيل علينا ألا نقول شيئاً، لا نعرف إلا شيئاً واحداً وهو أنه: إذا لم نحارب الخطيئة بضراوة تكتمل جهنم فينا وبواسطتنا».

ومنذ القرن التاسع عشر انبرى الشعراء الفلاسفة الملحدون لإعادة تحديد جهنم وكان لهذه الجهنمات الجديدة التى كانت أرضية بحتة، نتائج ما ورائية استطاعت أن تتمم أفكار اللاهوتيين.

وباختصار فإن هؤلاء الفلاسفة والشعراء والملاحدة فى أوروبا وغيرها قد أنكروا جهنم كما أنكروا البعث والنشور وجعلوا جهنم على الأرض عذاباً نفسيا وهذا ما قاله الشاعر بودلير فى «أزهار الشر» وهو يصف غرقه وهو مدرك فيقول:

انحدرى انحدرى، أيتها الضحايا البائسه

انحدرى فى طريق جهنم الخالده

ويستنتج فرلين فى قصيدته «فصل فى الجحيم»، «وكان الشقاء هو إلهى».

ويقول رانبو الذى يصل إلى حد استنكار جهنم المسيحية: «أنا أومن بالجحيم، إذاً أنا فيه، إنه إعدام للحقيقة، إننى عبد معموديتى. يا والدىَّ، لقد صنعتما شقائى وشقاءكما. يا للبرىء المسكين! لا تستطيع جهنم مهاجمة الوثنيين، أهذه بعد حياة! وفيما بعد ستكون متع الدينونة أبعد غوراً، إثم واحد وسرعان ما أغوص فى العدم، بموجب الشريعة الإنسانية. يجب أن يكون لى جهنم للغضب، جهنم للكبرياء،

(١)، (٢) المصدر السابق.

جهنم للكسل، جوقة جهنمات. إنى أموت من العياء، إنه القبر، أنا صائر إلى الديدان، إلى رعب الرعب! أيها الشيطان المهرج، أتريد أن تقضى على بسحرك، إنى ألتمس، إنى ألتمس طعنة من مذراتك، جذوة من نار».

ويقوم لوتر يامون برحلة لعينة إلى جهنم وكانت محاولة يائسة لطرد الشياطين من جهنم الأرضية والقضاء على مخاوف الطفولة.

ويستمر الشعراء فى السير على خُطَى الرُّؤَى الرهبانية وجهنم المسيحية الشعبية.

ويحل الفلاسفة محل اللاهوتيين الخاثرى القوى. شوبنهور (١٧٨٨ - ١٨٦٠) هو نقيض لايبنتز، المتشائم الكامل. إن عالمنا شر العوالم الممكنة، ونتيجة إرادة فاسدة ليس هو بالنسبة إليه سوى عالم الألم: «الألم هو الصورة التى بها تتراءى الحياة».

ويقول صاحب كتاب تاريخ جهنم جورج بنوا:

منذ بدايات العالم وجهنم تتقدم، إنها تتطور، والإنسان نفسه هو الذى يطورها وهو لا يفتأ يتقن وسائل التعذيب والتدمير الذاتى.

وإليك ما يقوله ليوباردى (١٧٩٨ - ١٨٣٧): طبيعة الإنسان هى تعاسة حتمية فى تطور مستمر. والطبيعة هى آلة جهنمية معدة للتنكيل بنا جسديا ومعنويا بتسليطها علينا الأمراض والشيخوخة، وحتى الحب، صفوة التعذيب: «والطبيعة هى التى تدفع الإنسان إلى الحب كى تمزقه فيما بعد بالفراق والموت: «من أجل أن تعذبهم بأداة من سعادة؟»».

وكير كيغارد (١٨١٣ - ١٨٥٥) من جهته يكشف عن الجحيم فى برهان مضن ذى حدين هو فى أساس الوجود البشرى: الإنفتاح على الآخرين فى الموت من أجل الذات، أو الانغلاق على الذات فى أنانية مشوهة.

ويريد نيتشه أن يتجاوز جميع هذه الجهنمات الوجودية بوسيلة يائسة، يتقبلها بحماسة ويقتنع أنها تتفق ورغبته فيقول: «هكذا كنت أريدها، هكذا أريدها الآن وهكذا سأريدها دائماً!». وبهذه الطريقة يلجأ إلى الحل الرواقى، وهو أن نحب قدرنا لكى نتوهم أننا أسياده، أن نصبح من نوع الإنسان الأسمى مقتنعين أن الله

قد مات وأن علينا أن نأخذ مكانه (نستغفر الله من قوله)، وننتصر على الشر المعنوى مجتازين حدود الخير والشر.

وفى روسيا يطارد تولستوى ودوستويفسكى جهنم المختبئة فى البِنَى الاجتماعية وفى قلب الإنسان، جهنم الفقراء وجهنم الوعى الفردى المسجون بين وخز الضمير والضيق فى رواية «المهووسون» (Les possedes) لدوستويفسكى.

واستحق القرن العشرون، فى نظر الكثيرين، لقباً لا يُحْسَد عليه كثيراً، ألا وهو لقب «قرن الجهنمات» وذلك بسبب حربيه العالميتين، بالإبادات الجماعية، بقنبلته الذرية. بأسلحته الكيميائية، بجماهير العالم الثالث الجائعة المحرومة من المعاملة الإنسانية، ببطالته، بتلوثه، بأنظمته (التوتاليتارية)، بديمقراطياته الفاسدة، بانفجاره السكانى، بمعتقلاته، بمخيمات النفى، بمخدراته، فأى قرن يستطيع أن ينازعه هذا الوسام الشيطانى.

والحقيقة أنه بالإمكان التواصل إلى القيام بعمل أفضل، وقد يأخذ ذلك القرن الحادى والعشرون على عاتقه، ولكن الواقع يتجاوز أحياناً المخيلة عند رهبان القرون الماضية: فبالنسبة إلى موريس كلافيل يصر العالم المعاصر على إثارة صور جهنم التقليدية.

■■■

8

جهنم فى الإسلام

١ ـ وجـوب الإيمان بجهنم وعـذابهـا وأنهـا مقـرٌّ للعصاة والكافرين.

٢ ـ وقود النار وشدة ظلامها وسعتها وبعد قعرها.

٣ ـ شدة حرارة النار وزمهريرها.

٤ ـ أودية وجبال جهنم.

٥ ـ طعام وشراب أهل النار.

٦ ـ سعة النار.

٧ ـ أبواب النار ودركاتها.

٨ ـ فراش أهل النار ولباسهم.

٩ ـ صور من عذاب أهل النار.

١٠ ـ تفاوت عذاب أهل النار وأهون أهلها عذاباً.

١١ ـ وصف خزنة جهنم وعددهم وعملهم.

١٢ ـ كلام النار وأهلها.

١ ـ وجوب الإيمان بجهنم وعذابها وإنها مقرٌّ للعصاة والكافرين

جهنم أو النار أو الجحيم فى القرآن والسنة النبوية من عالم الغيب الواجب الإيمان به وجاءت آيات القرآن الكريم الكثيرة التى بلغت نحو ١٤٥ مرة كلمة النار ومشتقاتها وكلمة جهنم ٧٧ مرة غير كلمة الجحيم.

وشملت هذه الآيات الكثيرة وصف النار وأهلها وعذابهم وخلود بعضهم فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠).

وكذلك جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة موضحة وشارحة لما فى جهنم من عذاب ووصفاً لها كأنك تراه رأى العين.

قال ﷺ: «يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١).

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال:

«يقال لليهود والنصارى: ماذا تبغون؟

فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا فيشار إليهم.

ألا تردون؟

فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون فى النار.

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

وقال أيضاً: «إن على الله عهداً لمن شرب المسكرات ليسقينه من طينة الخبال،

قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟

قال: عَرَق أهل أو عصارة أهل النار(1).

وقال ابن الجوزى رحمه الله فى وصف النار: دار قد خُص أهلها بالبعاد وحرموا لذة المنَى والإسعاد، بدلت وضاءة وجوههم بالسواد، وضربوا بمقامع أقود من الأطواد، عليها ملائكة غلاظ شداد، لو رأيتهم فى الحميم يسرحون، وعلى الزمهرير يطرحون فحزنهم دائم فما يفرحون، مقامهم محتوم فما يبرحون أبداً.

والنار من الغيب الواجب ـ كما قلنا ـ الإيمان به لقوله تعالى:

﴿الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: 1 ـ 3).

وقد أمرنا الله عز وجل باتقاء النار بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ⑬① وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: 131 ـ 132).

ولقد أدرك السلف الصالح من هذه الأمة حقيقة النار وجهنم فقال مالك بن دينار رحمه الله:

ـ لو وجدت أعواناً لناديت فى منار البصرة بالليل: النار.. النار.

وقال أيضاً رحمه الله: لو وجدت أعواناً لفرقتهم فى مدار الدنيا لينادوا: يا أيها الناس النار.. النار.

وقال الصحابى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ـ أكثروا ذكر النار، أكثروا ذكر النار. والنار هى دار الشقاء وشر البرية لقوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود: 106).**

---

(1) رواه مسلم فى صحيحه.

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦).

وعن عدى بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «اتقوا النار». وأشاح.

ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد، فبكلمة طيبة»(١).

والمسلم يؤمن بأن خازن النار من الملائكة عليهم السلام واسمه «مالك» عليه السلام وقد ذكره الحق جل وعلا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧).

وكان أول كلام الرسول ﷺ حين بُعث وأرسله الله للناس وأمره بدعوة أهله المقربين أولاً ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

فدعا ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: يا بنى كعب بن لُؤَى أنقذوا انفسكم من النار، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار.

فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً(٢).

تلك هى أول تحذيرات النبى ﷺ لقومه وعشيرته ثم لعامة الناس أجمعين.

وجاء قوله تعالى مؤيداً لهذا الإنذار النبوى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ (الليل: ١٤).

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ

(١) رواه البخارى فى صحيحه.	(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٣١ ـ ٣٦).

قال قتادة رحمه الله: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ يعنى النار.

وقال النعمان بن البشير قال: قال رسول الله ﷺ: «أنذرتكم النار».

قال النعمان: حتى لو كان رجل فى أقصى السوق لسمعه وسمع أهل السوق صوته وهو على المنبر(١).

ولهذا قال مالك بن دينار رحمه الله كما ذكرنا لو وجدت أعواناً لناديت فى منار البصرة بالليل: النارَ.. النارَ.

وكان تحذير النبى ﷺ للناس المسلم منهم والكافر من النار قد جاء عن علم وإدراك ورؤية أيضاً.

فقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقام قياماً طويلاً نحواً من قراءة سورة البقرة، ثم ركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع فقام قياماً طويلاً، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم رفع فقام قياماً طويلاً، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد.

ثم انصرف وقد تجلت الشمس، فقال ـ ﷺ ـ «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله».

قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك، ثم رأيناك كعكعت.

---

(١) رواه أحمد فى المسند.

قال - ﷺ - «إنى رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار، فلم أر منظراً كاليوم أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء».

قالوا بم يا رسول الله قال «بكفرهن».

قيل يكفرن بالله قال «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط»(١).

وعن أسماء بنت أبى بكر أن النبى - ﷺ - صلى صلاة الكسوف، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع، ثم سجد فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد فأطال السجود، ثم قام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع فسجد فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد فأطال السجود ثم انصرف فقال «قد دنت منى الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطافٍ من قطافها، ودنت منى النار حتى قلت أى ربِّ وأنا معهم فإذا امرأة - حسبت أنه قال - تخدشها هرة قلت ما شأن هذه قالوا حبستها حتى ماتت جوعاً، لا أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل».

قال نافع حسبت أنه قال «من خشيش أو خشاش الأرض»(٢).

وعن عامر، قال: كسفت الشمس ضحوة، حتى اشتدت ظلمتها، فقام المغيرة بن شعبة فصلى بالناس، فقام قدر ما يقرأ سورة من المثانى، ثم ركع مثل ذلك، ثم رفع رأسه، ثم ركع مثل ذلك، ثم رفع رأسه، فقام مثل ذلك، ثم ركع الثانية مثل ذلك، ثم إن الشمس تجلت، فسجد، ثم قام قدر ما يقرأ سورة، ثم ركع وسجد، ثم انصرف، فصعد المنبر، فقال: إن الشمس كسفت يوم توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ، فقال: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، وإنما هما آيتان من آيات الله، عز وجل، فإذا انكسفت واحد منهما فافزعوا إلى الصلاة، ثم نزل فحدث، أن رسول الله ﷺ كان فى الصلاة، فجعل ينفخ بين يديه، ثم إنه مد يده كأنه يتناول شيئاً، فلما انصرف، قال إن النار أدنيت منى حتى نفخت حرها عن وجهى، فرأيت

(١) متفق عليه - ومعنى تكعكعت أى تأخرت للوراء.

(٢) رواه ابن حبان والخشاش هوام الأرض وحشراتها.

فيها صاحب المحجن، والذى بَحَّر البحيرة، وصاحبة حمير صاحبة الهرة(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فقام على المنبر، فذكر الساعة، فذكر أن فيها أموراً عظاماً ثم قال « من أحد أن يسأل عن شىء فليسأل، فلا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ما دمت فى مقامى هذا».

فأكثر الناس فى البكاء، وأكثر أن يقول «سلونى».

فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال من أبى قال «أبوك حذافة».

ثم أكثر أن يقول «سلونى».

فبرك عمر على ركبتيه فقال رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً.

فسكت ثم قال «عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط فلم أر كالخير والشر»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ، يصلى حتى لم يكد أن يركع، ثم ركع حتى لم يكد أن يرفع رأسه، ثم رفع رأسه، فجعل يتضرع، ويبكى، ويقول: رب ألم تعدنى أن لا تعذبهم، وأنا فيهم، ألم تعدنى أن لا تعذبهم ونحن نستغفرك.

فلما صلى رسول الله ﷺ انجلت الشمس، فقام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، فإذا انكسفا، فافزعوا إلى ذكر الله.

ثم قال: لقد عرضت على الجنة حتى لو شئت لتعاطيت قطفا من قطوفها، وعرضت على النار، حتى جعلت أتقيها حتى خشيت أن تغشاكم، فجعلت أقول: ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم، رب ألم تعدنى أن لا تعذبهم وهم يستغفرونك، قال: فرأيت فيها الحميرية السوداء صاحبة الهرة كانت حبستها، فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، فرأيتها كلما أدبرت نهشت فى النار،

(١) رواه أحمد فى مسنده.

(٢) متفق عليه.

ورأيت فيها صاحب بَدَنَتَىْ رسول الله ﷺ، أخا دعدع، يُدفع فى النار بقضيبين ذى شعبتين، ورأيت صاحب المِحْجَن، فرأيته فى النار على محجنه متوكئا(١).

اوعن ابن عمر قال: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله ﷺ فيقصونها على رسول الله ﷺ فيقول فيها رسول الله ما شاء الله، وأنا غلام حديث السن وبتى المسجد قبل أن أَنْكَح (أتزوج)، فقلت فى نفسى لو كان فيك خيراً لرأيت مثل ما يرى هؤلاء.

فلما اضطجعت ليلة قلت اللهم إن كنت تعلم فى خيراً فأرنى رؤيا.

فبيما أنا كذلك إذ جاءنى ملكان فى يد كل واحد منهما مقمعة من حديد، يقبلان بى إلى جهنم، وأنا بينهما أدعو الله اللهم أعوذ بك من جهنم، ثم أرانى لقينى ملك فى يده مقمعة من حديد فقال لن تُراع، نعم الرجل أنت لو تكثر الصلاة. فانطلقوا بى حتى وقفوا بى على شفير جهنم فإذا هى مطوية كطى البئر، له قرون كقرون البئر، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد، وأرى فيها رجالاً معلقين بالسلاسل، رءوسهم أسفلهم، عرفت فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بى عن ذات اليمين فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ إن عبد الله رجل صالح. قال نافع لم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة(٢).

وبعد أن يموت العباد تعرض عليهم فى البرزخ مقاعدهم فى الجنة إن كانوا مؤمنين.

ثم تأتى أسئلة أخرى عن جهنم، وماذا فى جهنم أو النار من عذاب يرعب كل مؤمن وما الذى يجعلها كذلك وما هو وقودها الذى يجعل نارها أشد حرارة من نار الدنيا بكثير؟ وما سعة تلك النار وماذا يوجد بداخلها؟

كل هذه الأسئلة أجاب عنها الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وفصلها النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة لأن ذلك كله من عالم الغيب الواجب الإيمان به ومصدره الكتاب والسنة النبوية.

---

(١) رواه ابن حبان.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه.

وقود النار.. الناس والحجارة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤).

والمراد بالناس هم الكفرة، وأما الحجارة التى تكون وقودا للنار فالله أعلم بحقيقتها، وقد ذهب بعض السلف إلى أن هذه الحجارة من كبريت فعن عبدالله فى قوله «وقودها الناس والحجارة «قال: هى حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين وعن ابن مسعود فى قوله: «وقودها الناس والحجارة» قال: حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء.

وعن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ رضى الله عنهم: «اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة» قال: حجارة من كبريت أسود فى النار.

قال القرطبى فى تفسيره هى حجارة الكبريت الأسود وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة انواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدة الالتصاق بالأبدان، قوة حرها إذا حميت.

وقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تُعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الآية (الانبياء: ٩٨) قال القرطبى، وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ماذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك

ثم إن اخذ النار فى هذه الحجارة مشاهد، وهذا الجص يكون احجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك.

وكذلك سائر الاحجار تفجرها النار وتحرقها، وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التى وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء: ٧٩) وهكذا رجح القرطبى ان المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمى ويشتد لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، وقد يوجد الله من أنواع الحجارة ما يفوق ما فى الكبريت من خصائص، ومما توقد به النار الآلهة التى كانت تعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٩ ـ ١٠٠).

أى: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره «حصب جهنم » أى: وقودها وحطبها «أنتم لها واردون» وأصنامكم.

والحكمة فى دخول الأصنام النار، وهى جماد، لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلهذا قال: «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (النحل: ٣٩) وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

«لهم فيها زفير» من شدة العذاب «وهم فيها لا يسمعون» صم بكم عمى؛ أو لا يسمعون من الاصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام أو من عبدها، وهو راض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون فى قوله: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى».

٢ ـ شدة ظلام النار

ومع شدة النار فإن النار تكون سوداء مظلمة وهذا يزيد من العذاب لمن دخلها، فالنار الناتجة عن احتراق الحجارة ومن فيها عن ابن مسعود فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (المرسلات: ٣٢). أما إنى لست أقول كالشجر، ولكن كالحصون والمدائن.

وعن سلمان، قال: النار سوداء مظلمة، لا يضىء جمرها، ولا يطفأ لهبها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: ٢٢)(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة»(٢).

٣ ـ شدة حرارة النار وشدة زمهريرها

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (الواقعة: ٤١ ـ ٤٤).

وأصحاب الشمال الذين يعطون كتبهم بشمائلهم وهم أصحاب النار، فإنهم يكونون فى حر شديد ينفذ من المسام، ويشربون من ماء متناهٍ فى الحرارة، ويكون الظل الذى يستظلون به من دخان حار أسود، وهذا الدخان الأسود ليس بطيب الهواء، ولا ببارده، ولا بحسنه ولا كريمه فهو عذاب فى عذاب لا يطاق.

وقد ذكرت الآيات ما يتبرد به الناس فى الدنيا من الحر وهو ثلاثة: الماء والهواء والظل وأن هذه الأشياء لا تغنى عن أهل النار شيئاً، فهواء جهنم: السموم وهو الريح الحارة الشديدة الحر، وماؤها الحميم الذى قد اشتد حره، وظلها اليحموم وهو قطع دخانها، فكلها تكون فى النار عذابا غير وظيفتها فى الدنيا.

(١) البعث والنشور للبيهيقى.

(٢) رواه الترمذى فى سننه.

وذكر سبحانه هول النار فى آيات أخرى، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ٨ - ١١).

أى أن من رجحت سيئاته على حسناته فثقلت كفة أعماله السيئة، وخفت كفة أعماله الصالحة، فإنه يأولى إلى هاوية سحيقة فى جهنم يذهب إليها بقوة كما يذهب الطفل إلى أمه.

إنها نار ملتهبة شديدة الحر، يهوى فيها الكافر الظالم ليبقى فيها خالداً، وجزاء له على كفره بالله ما قدم من سيئات وأما الظل هو ظل دخان النار، فالظل عادة ما يستفيد منه الإنسان فى الدنيا ويستريح تحته، من حرارة الشمس أما ظل جهنم فهو من أدوات عذابها لمن فيها.

وجاء ذكره أيضاً فى آيات أخرى من القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٠ - ٣٣).

أنه ظل دخان نار جهنم المتشعب إلى ثلاث شعب: شعبة من يمينهم، وشعبة عن شمالهم، وشعبة من فوق رؤوسهم، أى إن الدخان محيط بهم من كل جانب، أحاط بهم سرادقها، وهذا الظل ليس بظليل، أى إنه لا يعطى ظلا يقى من حر ذلك اليوم، ولا يدفع عنهم حر لهب جهنم، الذى هم مقيمون فيه.

ونار جهنم، التى فيها هذا الظل من الدخان، يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة، كأنه القصر عظماً وارتفاعاً، وكأنه الجمال الصفر لوناً وكثرة.

وقال ابن عباس إن معنى «جمالة صفر» هو حبال السفن الغليظة.

فالآية تقسم هذا الدخان إلى ثلاثة أقسام، وأخبر الحق سبحانه عن قوة النار ومدى تأثيرها فى المعذبين فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٦ - ٢٩).

إنها تأكل كل شىء، وتدمر كل شىء، لا تبقى ولا تذر، تحرق الجلود وتصل إلى

العظام وتصهر ما فى البطون، وتطلع على الأفئدة.

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم».

قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله.

قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»(١).

وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم(٢).

وهذه النار مستمرة لا تنطفئ بل تزاد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ **(الإسراء: ٩٧).**

وهكذا لا يجد الكفار طعم الراحة، ولا يخفف عنهم العذاب مهما طال العذاب، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ **(البقرة: ٨٦).**

وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

(البقرة: ١٦٢).

فالنار تسعر كل يوم كما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمى كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شىء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتى فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرآء عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له ما أنت قال «أنا نبى».

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

(٢) رواه أحمد في المسند.

فقلت وما نبى؟.

قال: «أرسلنى الله».

فقلت وبأى شىء أرسلك.

قال «أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شىء». وفيه أخبرنى عن الصلاة قال: «صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع فإنها تطلع حين تطلع بين قرنى شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فإن حينئذ تسجر جهنم فإذا أقبل الفىء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلى العصر ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرنى شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار»(١).

وعن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: إذا كان الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم. وذكر: أن النار اشتكت إلى ربها، فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء، ونفس فى الصيف(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١).

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: لو كان فى هذا المسجد مائة أو يزيدون، وفيه رجل من النار، فتنفس، فأصاب نفسه، لاحترق المسجد ومن فيه»(٣).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله - ﷺ - قال «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها

قال فرجع إليه قال فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها.

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) رواه أبى يعلى الموصلى فى مسنده.

فأمر بها فحفت بالمكاره فقال ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها.

قال فرجع إليها فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد.

قال اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها.

فإذا هى يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحفت بالشهوات فقال ارجع إليها.

فرجع إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»(١).

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبى - ﷺ - قال: «يجاء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٢).

وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «اشتكت النار إلى ربها، فقالت رب أكل بعضى بعضاً، فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»(٣).

وعن ابن مسعود قال: الزمهرير: لون من العذاب.

وعن عكرمة قال: هو البرد الشديد.

وعن ابن عباس قال: يستغيث أهل النار من الحر، فيغاثون بريح باردة، يصدع العظام بردها، فيسألون الحر وقول ابن عباس يوافق قول ابن مسعود.

قال تعالى: ﴿لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ: ٢٤ - ٢٥).

ولا يذوق المجرمون فى جهنم برداً يبرد حر السعير، ولا شراباً يرويهم من العطش. ولا يذوقون فى النار إلا الحميم وهو الماء المتناهى فى الحرارة أما الغساق فهو القيح والصديد المنتن والعرق الذى يسيل من أجساد أهل النار.

---

(١) رواه الترمذى فى سننه.

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٣) متفق عليه. (٤) رواه الترمذى.

٤ ـ أودية وجبال جهنم:

أما داخل جهنم فهناك أودية وجبال ليست للنزهة وإنما للعذاب الشديد.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، أن النبى ﷺ، قال: الويل وادٍ فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل فى النار فيتصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوى وهو كذلك»(١).

وقال أيضاً: «الصعود جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ويهوى فيه كذلك منه أبداً»(٢).

وكما للجبال أسماء فالأودية لها أسماء أيضاً، كما قال ﷺ: «ويل وادٍ فى جهنم يهوى به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها»(٣).

وعن مدى عمق قعر جهنم قال ﷺ:

«لو أن حجراً يقذف به فى جهنم هوى سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها»(٤).

ومن أودية جهنم وادى الحُزْن وجاء ذكره فى قوله ﷺ: « أعوذ بالله من جُبِّ الحزن، أو وادى الحزن».

قيل: يا رسول الله، وما جب الحزن، أو وادى الحزن؟

قال: «وادٍ فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة، أعاذنا الله منها، أعده الله للمرائين»(٥).

٥ ـ سعة النار:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠).

دلت هذه الآية على عظم وسعة النار وانها تكفى لمن كتب عليه دخولها وزيادة،

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه.

(٢) رواه الترمذى.

(٣، ٤) رواه ابن حيان فى صحيحه.

(٥) رواه البيهقى فى البعث والنشور.

الذين يدخلون النار أعداد لا تحصى، ومع كثرة عددهم فإن خلق الواحد فيهم يضخم حتى يكون ضرسه فى النار مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام، ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التى وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين على عظم خلقهم، ويبقى فيها متسع لغيرهم.

عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال قال النبى - ﷺ - «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم.

قال الله تبارك وتعالى للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادى. ولكل واحدة منهما ملؤها.

فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول قط قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله - عز وجل - من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقاً»(١).

وقال أيضاً: «يلقى من يلقى فى النار وتقول هل من مزيد. حتى يضع قدمه فتقول قط قط»(٢).

وعن بُعد قعر جهنم وعمقها أنه إذا ألقى من أعلاها حجر هوى فيها واستمر يسقط زمناً طويلاً يزيد عن سبعين خريفاً والخريف يقصد به الفصل من السنة أو السنة كلها.

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة - أى صوتا شديدا - فقال النبى ﷺ: أتدرون ما هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا حجر رُمى به فى النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها»(٣).

إنها أهوال يشيب لها الولدان نعوذ بالله منها.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

٦ـ أبواب النار ودركاتها:

كما أن للجنة أبوابا يدخل منها أهلها فإن للنار أبوابا أيضاً وعددها سبعة أبواب يدخل أهلها منها، ولكل باب من الأتباع قدر معلوم متميز عن غيره.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٣ ـ ٤٤).

وجهنم هى مكان اللقاء والاجتماع (موعدهم) لجميع من اتبعوا إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد.

وقد قدر الله لكل باب من هذه الأبواب السبعة نصيباً معيناً من أتباع إبليس يدخلون منه إلى جهنم بحسب أعمالهم.

وعندما يرد الكفار النار تفتح أبوابها، ثم يدخلونها مع الخلود فيها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٧١ ـ ٧٢).

فإذا دخلوها أغلقت الأبواب فلا تفتح لهم كي يخرجوا، فلا مطمع لهم فى الخروج منها بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ (البلد: ١٩ ـ ٢٠).

قال ابن عباس: (مؤصدة) مغلقة الأبواب، وقال مجاهد أصد الباب بلغة قريش أى أغلقه.

وأخبر النبى ﷺ أن أبواب النار تفتح وتغلق قبل يوم القيامة، فعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين». رواه البخارى فى صحيحه.

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين». رواه مسلم فى صحيحه.

وقال أيضاً: «إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين، ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنان فلم يغلق منها باب، ونادى منادٍ يا باغىَ الخير أقبل، ويا باغى الشر أقصر، ولله عتقاء من النار»(١).

وعن ابن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ قال «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد ـ ﷺ ـ».

ويفهم من هذا الحديث أن كل باب من هذه الأبواب لعمل من الأعمال السيئة، كما أن كل باب من أبواب الجنة الثمانية لعملٍ من الأعمال الصالحة.

وقيل أن الأبواب: الأطباق، طبق فوق طبق. فعن على كرم الله وجهه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، يمتلئ الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم تمتلئ كلها.

وعن ابن جريج، قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قال: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية(٢).

أما الدركات فهى مقابل الدرجات فى الجنة مع الفارق فالأبواب معروفة وهى تشريف أما الدركات فهى إهانة وتعذيب وتطلق الدرك على كل ما تسافل وكلما ذهبت النار سفلاً كلما علا حرها واشتد لهيبها وعذابها.

فالدرك السابع هو الأشد عذاباً وفيه المنافقون.

ولكل واحد من أهل النار مكان ودرج حسب سيئاته وأعماله السيئة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٢).

فدرجات الجنة تذهب عُلُوّاً كلما زاد العمل الصالح ارتفع صاحبه إلى أعلى، والنار كلما زاد رصيد العبد العاصى والكافر من عمله السيئ وكفره وعصيانه كلما نزل إلى أسفل فى النار.

(١) انظر تفسير الطبرى.

(٢) رواه الحاكم فى مستدركه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء: ١٤٥).

٧ـ تفاوت عذاب أهل النار وأهون أهلها عذاباً:

لما كانت النار دركات بعضها أشد عذاباً وهولاً من بعض كان أهلها متفاوتون فى العذاب، ففى الحديث الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ قال فى أهل النار: «إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته» وفى رواية «إلى عنقه».

وقد حدثنا الرسول ـ ﷺ ـ عن أخف أهل النار عذاباً، ففى صحيح البخارى عن النعمان بن بشير: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل فى القمقم».

وفى رواية النعمان بن بشير عن مسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلى منهما دماغه، كما يغلى المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً».

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ـ ﷺ ـ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا ينتعل نعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه»(١).

وقد جاءت النصوص القرآنية مصدقة لتفاوت أصحاب النار فى العذاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء: ١٤٥).

وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦).

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل: ٨٨).

قال القرطبى رحمه الله: «هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط، ليس

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولاشك أن الكفار فى عذاب جهنم متفاوتون كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد فى الأرض وكفر، مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين.

وقال ابن رجب: «واعلم أن تفاوت أهل النار فى العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التى أدخلوا بها النار» ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك، وساق قول ابن عباس: «ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد فى الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك» ثم قال ابن رجب: «وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين فى النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أهل الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخرى له أو بما شاء الله من الأسباب كما ثبت فى العلم الحديث».

■■■

٨ ـ صور من عذاب أهل النار

أولا ـ إنضاج الجلود:

إن نار الجبار تحرق جلود أهل النار، والجلد موضع الإحساس بألم الاحتراق كما أثبته علماء الطب الحديث، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التى احترقت، لتحترق من جديد، وهكذا دواليك، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦).

ثانيا ـ الصهر:

من ألوان العذاب صب الحميم فوق رؤوسهم، والحميم هو ذلك الماء الذى انتهى حره، فلشدة حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (الحج: ١٩ ـ ٢٠).

عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعود كما كان»(١).

ثالثا ـ اللفح:

أكرم ما فى الإنسان وجهه، ولذلك نهانا الرسول ـ ﷺ ـ عن ضرب الوجه، ومن إهانة الله لأهل النار أنه يحشرون فى يوم القيامة على وجوههم عمياً وصما وبكماً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء: ٩٧)، ويلقون فى النار على وجوههم ﴿وَمَن جَاءَ

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح.

بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٠).

وتلفح النار وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٩).

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٤).

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم: ٥٠).

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: ٢٤).

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ (الأحزاب: ٦٦) نعوذ بالله من عذاب أهل النار.

رابعا ـ السحب:

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار فى النار على وجوههم ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر: ٤٧ ـ ٤٨)، ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (غافر: ٧٠ ـ ٧٢).

قال قتادة: يسحبون مرة فى النار وفى الحميم مرة.

خامساً ـ تسويد الوجوه:

يُسوِّد الله فى الدار الآخرة وجوه أهل النار ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦).

وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة الليل فى وجوههم ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ

وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: ٢٧).

سادسا ـ إحاطة النار بالكفار:

أهل النار هم الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم، فلم تبق لهم حسنة، كما قال تعالى فى الرد على اليهود الذين قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، **﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (البقرة: ٨١).

ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافراً مشركا.

يقول صديق حسن خان: «المراد بالسيئة هنا الجنس، ولابد أن يكون سببها محيطاً بها من جميع جوانبه، فلا تبقى له حسنة، وسدت عليها مسالك النجاة والخلود فى النار هو للكفار والمشركين، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة فى هذه الآية بالكفر والشرك، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج فى قولهم بخلود العاصى من المؤمنين إن لم يتب من ذنبه فى النار لما ثبت فى السنة متواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار».

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، فإن الجزاء من جنس العمل، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما قال تعالى: **﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾** (الأعراف: ٤١).

والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية، وهى التى تغشاهم من فوقهم، والمراد أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: **﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (العنكبوت: ٥٥).

وقال جل فى علاه: **﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾** (الزمر: ١٦).

وقد صرح بالإحاطة فى موضع آخر: **﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** (التوبة: ٤٩).
وقد فسر بعض السلف المهاد بالفرش، والغواش باللحف.

وتأتى الإحاطة من ناحية أخرى، ذلك أن للنار سوراً يحيط بالكفار، فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

وسرادق النار سورها وحائطها الذى يحيط بها.

سابعا ـ اطلاع النار على الأفئدة:

إن أهل النار يضخم خَلْقُهم فى النار شيئاً عظيماً، ومع ذلك فإن النار تدخل فى أجسادهم حتى تصل إلى أعمق شىء فيهم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٦ ـ ٢٩).

قال بعض السلف فى قوله: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾، قال: «تأكل العظم واللحم والمخ ولا تتركه على ذلك».

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة: ٤ ـ ٧).

قال محمد بن كعب القرظى: «تأكله النار إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده أنشئ خَلقه». وعن ثابت البنانى أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «تحرقهم النار إلى الأفئدة وهم أحياء، لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكى».

ثامنا ـ اندلاق الأمعاء فى النار:

فى الصحيحين عن أسامة بن زيد عن النبى ـ ﷺ ـ قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى فى النار، فتندلق أقتابه فى النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أى فلان، ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟

قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

ومن الذين يجرون أمعاءهم فى النار عَمْرو بن لُحَىٍّ، وهو أول من غير دين العرب، وقد رآه الرسول ـ ﷺ ـ يجر قصبه (أمعاءه) فى النار.

عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار، وكان أول من سيب السوائب»(١).

تاسعا - قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم:

لقد أعد الله لأهل النار فى النار سلاسل وأغلالاً وقيوداً ومطارق **﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾** (الإنسان: ٤).

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل: ١٢ - ١٣)، والأغلال توضع فى الأعناق **﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (سبأ: ٣٣)، **﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾** (غافر: ٧١)، والأنكال: القيود، سميت أنكالاً لأن الله يعذبهم وينكل بهم بها.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً﴾ (المزمل: ١٢)، والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التى يقيد بها المجرمون كما يقيد المجرمون فى الدنيا.

وقال أيضاً: **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾** (الحاقة: ٣٠ - ٣٢).

وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد، وهى المطارق التى تهوى على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم، **﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾** (الحج: ٢١ - ٢٢).

عاشرا - عذاب الكفار مع معبوداتهم فى النار:

كان الكفار والمشركون يعظمون الآلهة التى يعبدونها من دون الله، ويدافعون عنها، ويبذلون فى سبيل ذلك النفس والمال، وفى يوم القيامة يدخل الحق تلك الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله النار إهانة لعابديها وإذلالاً لهم، ليعلموا أنهم كانوا ضالين، يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن**

---

(١) متفق عليه.

دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩).

يقول ابن رجب: «لما عبد الكفارُ الآلهةَ من دون الله، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه، عوقبوا بأن جعلت معهم فى النار إهانة لهم وإذلالاً، ونكاية لهم وإبلاغاً فى حسرتهم وندامتهم، فإن الإنسان إذا قرن فى العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد فى ألمه وحسرته».

ومن أجل ذلك يقذف فى يوم القيامة بالشمس والقمر فى النار، ليكونا مما توقد به النار، تبكيتاً للظالمين الذين كانوا يعبدونها من دون الله، ففى الحديث: «الشمس والقمر مكوران فى النار».

يقول القرطبى: «وإنما يجمعان فى جهنم، لأنهما قد عُبِدَا من دون الله لا تكون النار عذاباً لهم، لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكافرين وحسرتهم، هكذا قال بعض أهل العلم».

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩).

حادى عشر ـ حسرتهم وندمهم ودعاؤهم:

عندما يرى الكفار النار يندمون أشد الندم، ولات ساعة مندم ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤)، وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذى يؤهله للخلود فى النار، فإنه يدعو بالثبور والهلاك ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (الانشقاق: ١٠ ـ ١٢).

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون فى النار، ويَصْلُون حرها ﴿وَإِذَا

أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ١٣ ـ ١٤).

وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر: ٣٧)، وهم يعترفون فى ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠).

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١١).

ولكن طلبهم يُرفض بشدة، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨).

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذى لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٢ ـ ١٤).

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كى يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (غافر: ٤٩ ـ ٥٠).

عند ذلك يَسألون الشفاعة كى يهلكهم ربهم ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧).

إنه الرفض لكل ما يطلبون، لا خروج من النار ولا تخفيف من عذابها، ولا إهلاك بفناء، بل هو العذاب الأبدى السرمدى الدائم، ويقال لهم آن ذاك: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: ١٦).

هناك يشتد نحيبهم، وتفيض دموعهم، ويطول بكاؤهم ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: ٨٢)، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون دماً، وتؤثر دموعهم فى وجوههم كما يؤثر السيل فى الصخر.

عن عبد الله بن قيس أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن أهل النار ليبكون، حتى لو أجريت السفن فى دموعهم، لجرت وإنهم ليبكون الدم - يعنى - مكان الدمع»(١).

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب.

قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٦ - ٦٨).

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم، ونعوذ بالله من حالهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود: ١٠٦)، قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً. وقيل: الزفير: ترديد النفس فى الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الأضلاع، والشهيق النفس الطويل الممتد، أو رد النفس إلى الصدر، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه.

وقال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ويخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس.

تلك بعض الصور باختصار عن عذاب أهل النار وتنوعه.

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه.

النساء أكثر أهل النار

ثبت عن النبى ﷺ أن النساء هن أكثر أهل النار فعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال: (اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء)(١).

أما سبب ذلك فقد سُئل عنه النبى ﷺ وبين الجواب:

فعن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله ﷺ: (أريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء)

قالوا: بم يا رسول الله؟

قال: (بكفرهن) قيل: يكفرن بالله.

قال: (يكفرالعشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط)(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: (يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار) فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم) قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان دينها)(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكئاً على بلال فأمر بتقوى

---

(١)، (٢)، (٣) رواه البخارى فى صحيحه.

الله وحث على طاعته ووعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: (تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم) فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: (لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير) قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين فى ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن[1].

٩ـ طعام وشراب أهل النار:

لاشك أن أهل النار مع شدة حرارتها وارتفاعها بعشرون بالجوع والعطش فيطلبون الطعام والشراب، فيصب عليهم الشراب ويطعمون طعام النار، فما هو طعامهم وشرابهم؟

قال تعالى: **﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ (الغاشية: ٦ ـ ٧).**

والضريع: نوع من الشوك لا تأكلع الدواب لخبثه. وهو نبات كالشوك مر منتن، لا يشبع من جوع، ولا يسمن لا خير فيه، ولا فائدة منه، فهو لا يسمن، ولا يعنى، ولا يشبع من جوع.

فالضريع إذن اسم لطعام أهل النار وهناك أيضاً الغسلين وهناك طعام ذو غصة وأيضاً شجرة الزقوم وسيأتى الحديث عن كل هذه الأطعمة.

قال تعالى: **﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧).**

قال ابن عباس: الغسلين: الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم.

لا يجد العاصى يوم القيامة قريباً ودوداً، ولا صديقاً حميماً مخلصاً، ينقذه من عذاب الله تعالى، فكل واحد منشغل فى ذلك اليوم بنفسه. ولا يجد له طعاماً

---

(١) ولا يخفى على ذى عقل أن سبب وجودهن فى النار هو السبب الذى ذكره الرسول ﷺ من كفر النعمة مع العلم أن هناك نساء فواضل الواحدة منهن تساوى العشرات من بعض الرجال وناهيك بالسيدات فاطمة وخديجة وعائشة وباقى زوجات الرسول ﷺ والنساء الصحابيات رضى الله عنهن فيانساء المؤمنين تشبهن بمن تكن معهن ولا تكن مع نساء الجحيم.

فى النار إلا ما يسيل من جلود أهل النار من الدم والصديد.

والصديد شىء طعام لا يأكله إلا أهل الذنوب والخطايا ليذوقوا وبال خطاياهم التى استطعموها فى الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ **(المزمل: ١٢ ـ ١٣).**

وهو طعام آخر للكافرين المعاندين، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: شوك يأخذ بالحلق، لا يدخل ولا يخرج.

بالإضافة إلى عذاب لهؤلاء الكفرة المكذبين وهى قيود ثقيلة توضع فى أرجلهم كما يفعل بالمجرمين، إذلالاً لهم، ولهم نار مستعرة يصلونها.

ثم يأتى الطعام الأكبر لأهل النار من شجرة زرعت فى أصل الجحيم، إنها شجرة الزقوم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ **(الواقعة: ٥١ ـ ٥٢).**

الضالون عن طريق الهدى المكذبون بكتب الله ورسله وآياته، وبالبعث والحساب، سيأكلون من شجر الزقوم الذى ينبت فى أصل الجحيم، وكأن طلعه رؤوس الشياطين، وأهل النار يأكلون الزقوم على كراهية مذاقه لأنهم لا يجدون غيره وغير الضريع شيئاً يأكلونه.

وقد وصف الله تعالى شجرة الزقوم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ **(الصافات: ٦٤ ـ ٦٦).**

وقد جاء ذكر شجرة الزقوم فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم.

والعرب كانت تعتقد أن الشياطين قبيحة المنظر، فأراد الله تعالى تقبيح شجرة الزقوم، وتكريه السامعين بها، وإن هؤلاء الكفار الظالمين، لا يجدون فى النار طعاماً غير الزقوم الكريه الطعم، والمنظر، والريح، فيضطرون إلى الأكل منه ليملؤوا

بطونهم الجائعة.

وهذا الطعام الذى يأكله أهل النار لا يفيدهم، فلا يجدون له لذة، ولا تنتفع به أجسادهم، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (الدخان: ٤٣ ـ ٥٠).

ويقول الله تعالى إن ثمر الزقوم يكون كعكر الزيت الأسود، وهو يغلى فى بطون آكليه بفعل حرارة الجحيم.

كما يغلى الماء الشديد الحرارة الذى بلغ النهاية فى الغليان.

ويقال للزبانية من خزنة جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فادفعوه بغلظة وعنفٍ إلى وسط نار جهنم لينال جزاءه على كفره وآثامه، بعد أن تدخلوه وسط الجحيم، وصبوا فوق رأسه من الماء الشديد الحرارة زيادة فى العذاب الحميم ـ الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة.

وبعد إدخاله إلى سواء الجحيم، وصب الحميم فوق رأسه، يقال له على سبيل التقريع والاستهزاء به: ذق هذا العذاب المذل المهين اليوم، فإنك كنت فى الدنيا تزعم أنك العزيز فى قومك، الكريم فى حسبك.

إنه عذاب مادى وعذاب نفسى فى آن واحد.

عن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، والذى نفس محمد بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى الأرض لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟ هذا حديث أخرجه الإمام أبو يعقوب الحنظلى فى تفسير قوله: خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(١).

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه.

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه، قال: يلقى على أهل النار الجوع، حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، قال: فيستغيثون بالضريع، لا يسمن، ولا يغنى من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص بالشراب، فيستغيثون فيغاثون بماء من حميم فى كلاليب من حديد، فإذا أدنوه إلى وجوههم شوى وجوههم فإذا أدخلوه بطونهم قطع ما فى بطونهم، قال: فينادون: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٩).

قال: فيجابون: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (غافر: ٥٠).

قال: فيقولون: نادوا مالكاً، فينادون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (الزخرف: ٧٧)، قال: فأجابهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧).

قال: فيقولون: ادعوا ربكم، فلا شىء أرحم بكم من ربكم، قال: فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٧).

قال: فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)، قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، ويأخذون فى الويل، والشهيق، والثبور(١).

إنه آخر كلمات لأهل النار فلا يتكلمون بعدها.

أما شراب أهل النار فهو مثل طعامهم وجاء ذكره فى القرآن الكريم بأنواع أربعة هى الحميم والغساق والصديد والمهل وفى السنة النبوية جاء ذكره بطينة الخبال.

أ - الحميم: وهو الماء الحار، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد ﷺ: ١٥).

والحميم: هو الماء الحار المغلى بنار جهنم، يذاب بهذا الحميم ما فى بطونهم،

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه.

وتسيل به أمعاؤهم، وتتناثر جلودهم، كما فى قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: ١٩ ـ ٢٢).

ب ـ الغساق: قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (ص: ٥٧).

قال ابن عباس: الغساق ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه. وقال: الزمهرير البارد الذى يحرق الجلد.

وقال مجاهد: غساق، لا يستطيعون أن يذوقوه من شدة برده.

ج ـ الصديد: وهو ما يسيل من لحم الكافر، وجلده، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم: ١٦ ـ ١٧).

أى يسقى من ماء صديد شديد النتانة والكثافة فيتجرعه ولا يكاد يبتلعه من شدة نتانته وكثافته.

وقال مجاهد: (ماء صديد) يعنى: القيح والدم.

يشربه الكافر قسراً وقهراً، جرعة بعد جرعة، ولا يجاد يبتلعه لسوء طعمه، ونتن رائحته، وحرارته، فإذا شربه قطع أمعاءه، ويأتيه العذاب بأنواعه، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه.

ولكنه لا يموت ليخلد فى النار والعذاب، وله بعد هذه الحالة عذاب آخر شديد غليظ أدهى من الذى قبله وأَمَرُّ.

وعن جابر أن رجلا قدم من جيشان ـ وجيشان من اليمن ـ فسأل النبى - ﷺ - عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال النبى - ﷺ - «أو

مسكر هو». قال نعم.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ «كل مسكر حرام إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال». قالوا يا رسول الله وما طينة الخبال.

قال: عَرَقُ أهل النار أو عصارة أهل النار(١).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: من شرب الخمر فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار.

٤ ـ المهل: قال تعال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

وسُئل ابن عباس عن قوله تعالى ﴿كَالْمُهْلِ﴾ فقال: غليظ كدردى الزيت، وعنه قال: أسود كمهل الزيت.

وقال الضحاك: أذاب ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فضة من بيت المال، ثم أرسل إلى أهل المسجد فقال: من أحب أن ينظر إلى المهل فلينظر إلى هذا(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (الدخان: ٤٥)، قال: كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه، ولو أن دلواً من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن بأهل الدنيا(٣).

(١) انظر تفسير الطبرى.

(٢) رواه ابن حبان. (٣) رواه الحاكم فى المستدرك.

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه»(١).

وعن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال «إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، وتلا قول الله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (الحج: ١٩)، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمزق قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»(٣).

وعن أبى أمامة، عن النبى ﷺ فى قوله عز وجل: ويسقى من ماء صديد يتجرعه، قال: يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره، يقول الله: وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم، ويقول الله عز وجل: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب﴾(٤).

١٠ ـ فرش أهل النار ولباسهم:

كما أن لهم طعاماً وشراباً ومسكناً فإن لهم فرشاً ولباساً يوافق عذابهم فى النار كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤١).

---

(١) رواه أحمد فى المسند.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك.

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك.

فالفراش من نار والغطاء كذلك.

وقال تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ (الزمر: ١٦).

إنهم يكونون فيها، ومن فوقهم طبقات متراكمة من النار بعضها فوق بعض، وكأنها الظلل، ومن تحتهم طبقات مثلها، فتغمرهم النار من كل جانب.

وأخبر الحق سبحانه وتعالى أنه يفصل لأهل النار حلل من النار، قال تعالى:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (الحج: ١٩).

فأما الكافرون فإنهم قد أعدت لهم نيران تحيط بهم وكأنها مقطعات من الثياب قدت على قدر أجسادهم، ويصب الماء الشديد الحرارة فوق رؤوسهم فيشوى وجوههم وأجسادهم، ويذيب أمعاءهم.

عن سمرة بن جندب أن النبى - ﷺ - قال:

منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»(١).

الحجزة: معقد الإزار والسراويل.

قال رسول الله - ﷺ - «من وطئ على إزاره خيلاء وطئ فى نار جهنم»(٢).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال:

«إن أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبه ويسحبها وهو يقول يا ثبوراه وذريته خلفه وهم يقولون يا ثبورهم حتى يقف على النار ويقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم فيقال ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

(٢) رواه أحمد فى المسند.

(الفرقان: ١٤)»(١).

الثبور: الهلاك.

وقد وصف الله تعالى سرابيل أهل النار فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠).

قال ابن عباس ـ فى قوله تعالى (قطران) ـ:

هو النحاس المذاب. وقال الحسن: قطران الإبل، يعنى: ما يطلى به الجمل الأجرب، فيكون المعنى أنَّ (ملابسهم) من قطران تُطلى به جلودهم حتى يعود هذا الطلاء كالسرابيل، وخُصَّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه، مع نتن رائحته ووحشة لونه(٢).

وعن أبى مالك الأشعرى أن النبى ـ ﷺ ـ قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»(٣).

١١ ـ وصف أهل النار:

أهل النار هم العصاة والكفار وهؤلاء منهم الخالدون فيها ومنهم من سيخرج منها أصحاب المعاصى والكبائر من الموحدين، وجاء وصف أهل النار فى أحاديث نبوية صحيحة منها: قوله ﷺ: «ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»(٤).

والمنكب مجتمع رأس الكتف والعضد.

وقال أيضاً: ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحدٍ وفخذه مثل البيضاء ومقعده

(١) رواه أحمد فى المسند.

(٢) انظر تفسير الشوكانى فتح القدير.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

(٤) متفق عليه.

من النار مسيرة ثلاث مثل الربذة(١).

وعن جلده قال ﷺ: ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحُدٍ وغلظ جلده مسيرة ثلاثٍ(٢).

وقال: - إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا وإن ضرسه مثل أحدٍ وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة(٣).

وقال: «أهل النار مكبلون بأصفاد النار، معلقون بشجر فى النار، منكسون، الحميم من أسفلهم فى بطونهم، ويخرج من أفواههم وعيونهم، وإن جلودهم لتقطر بصهارة الحميم، خالدين فيها، لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب عظيم. ولو أن رجلا أخرج من أهل النار إلى الدنيا، لمات أهل الدنيا من وحشة منظره ونتن ريحه» ثم بكى عبد الله بن عمرو بكاءً شديداً(٤).

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فى قوله تعالى: يوم ندعو كل أناسٍ بإمامهم، قال: يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً، قال: ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، قال: فينطلق إلى أصحابه، قال: فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا به وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم، فيقول: أبشروا، إن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً، على صورة آدم فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، اللهم لا تأتنا به، قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخره، قال: فيقول أبعدكم الله، فإن لكل منكم مثل هذا(٥).

---

(١) رواه الترمذى فى سننه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى صفة النار.

(٥) رواه ابن حبان والحاكم.

وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «مقعد الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام وكل ضرسٍ مثل أحدٍ وفخذه مثل ورقان وجلده سوى لحمه وعظامه أربعون ذراعاً(١).

وعن مجاهد، قال: قال لى ابن عباس: أتدرى ما سعة جهنم؟

قلت: لا.

قال: أجل والله ما تدرى أن بين شحمة أذن أحدهم، وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً أودية القيح والدم، قلت له: أنهارٌ؟

قال: لا، بل أودية، ثم قال: أتدرى ما سعة جهنم؟

قلت: لا.

قال: أجل والله ما تدرى، حدثتنى عائشة ﵂، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه.

قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم(٢).

١٢ ـ وصف خزنة جهنم وعددهم وعملهم:

خزنة جهنم أو النار هم الملائكة المكلفون بها بتعذيب أهلها ورئيسهم هو «مالك» ﵇ وجاء وصفهم فى قوله تعالى: ـ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

فخزنة جهنم من الملائكة يلون أمرها، وتعذيب أهلها، غلاظٌ على أهل النار، شداد عليهم إذا استرحموهم، لأن الله عز وجل خلقهم من غضبه وحبب إليهم تعذيب خلقه.

(١) رواه أحمد فى المسند.

(٢) رواه الحاكم.

والمراد: غلاظ القلوب، شداد الأبدان، وقيل: الغلاظ: ضخام الأجسام، والشداد: الأقوياء، وليس فى قلوبهم رحمة، إنما خُلقوا للعذاب وهم فى طاعة الله لا يعصونه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٧ ـ ١٨) قال أبو هريرة: الزبانية: الملائكة، وقال عطاء: هم الملائكة الغلاظ الشداد.

وخرج ابن أبى حاتم ـ بإسناده ـ عن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (الحاقة: ٣٠) ابتدره سبعون ألف ملك، وإن الملك منهم ليقول هكذا ـ يعنى: يفتح يديه ـ فيلقى سبعين ألفاً فى النار.

وكبير خزنة جهنم ورئيسهم هو مالك[1]، كما فى قول الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧).

وحينما يشتد العذاب بالمجرمين الظالمين يضجون فى النار، وينادون: يا مالك (وهو خازن النار) ادع لنا ربك يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه من العذاب الأليم. فيرد عليهم مالك قائلاً لهم: إنكم ماكثون فى النار أبداً، ولا مجال ولا سبيل إلى خروجكم منها.

وقد رآه ﷺ فى المنام، فعن سمرة بن جندب قال كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال «من رأى منكم الليلة رؤيا». قال فإن رأى أحد قصها، فيقول ما شاء الله، فسألنا يوماً، فقال «هل رأى أحد منكم رؤيا».

قلنا لا.

قال: «لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى، فأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كَلُّوبٌ من حديد.

قال بعض أصحابنا عن موسى إنه ـ يدخل ذلك الكلوب فى شدقه، حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله.

---

(١) اقرأ كتابنا «مالك خازن النار»، الناشر دار الكتاب العربى.

قلت: ما هذا.

قالا انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.

قلت من هذا قالا انطلق.

فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، تتوقد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ.

فقلت: من هذا.

قالا انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم على وسط النهر رجل بين يديه حجارة.

فأقبل الرجل الذى فى النهر.

فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه، فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه (فمه) بحجر، فيرجع كما كان.

فقلت ما هذا.

قالا انطلق.

فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفى أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بى فى الشجرة، وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب، ونساء وصبيان.

ثم أخرجانى منها فصعدا بى الشجرة فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

قلت طوفتمانى الليلة، فأخبرانى عما رأيت.

قالا: نعم، أما الذى رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه

حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة.

والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة.

والذى رأيته فى الثقب فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر آكلو الربا. والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم - عليه السلام - والصبيان حوله فأولاد الناس، والذى يوقد النار مالك خازن النار.

والدار الأولى التى دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسى فإذا فوقى مثل السحاب.

قالا: ذاك منزلك. قلت دعانى أدخل منزلى. قالا إنه بقى لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك»(١).

وجاء فى عدد خزنة جهنم قوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٦ - ٣١).

وجاء فى تفسير الآيات أنه لما أنزل الله تعالى قوله **﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾**، قال أبو جهل مستهزئاً: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً على هؤلاء الساخرين من المشركين، فقال تعالى: إنه لم يجعل حرس النار إلا ملائكة، ومن يطيق مغالبة ملائكة الله تعالى؟ وما جعل عددهم (تسعة عشر)، إلا ليقول الكافرون ما قالوا، ليتضاعف غضب الله ونقمته عليهم،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه - تدهده: أى تدحرج، ويشدخ أى يكسر، والشدق: جانب الفم.

فقد استقلوا العدد، وقالوا كيف يتولى مثل هذا العدد القليل تعذيب خلق الله فى نار جهنم؟

وقد بين الله تعالى العدد لرسوله ليحصل اليقين لليهود والنصارى بأن محمداً صادقٌ فى نبوته، وأن القرآن الذى أنزله الله عليه موافق لما جاء فى كتبهم، وليزداد المؤمنون إيماناً، حينما يرون تسليم أهل الكتاب، وتصديقهم لما جاء فى القرآن، فلا يبقى فى أنفسهم شكٌّ من أنَّ القرآن منزل من عند الله.

وقد فتن الكفار بهذا العدد، فقد ظنوا أنه يمكن التغلب على هذا العدد القليل، وغاب عنهم أن الواحد من هؤلاء يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعا، ولذلك عقب الحق على ما سبق بقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قال ابن رجب: والمشهور بين السلف والخلف أن الفتنة إنما جاءت من حيث ذكر عدد الملائكة الذين اغتر الكفار بقلته وظنوا أنهم يمكنهم مدافعتهم وممانعتهم عنه ولم يعلموا أن كل واحد من الملائكة لا يمكن البشر كلهم مقاومته، ولهذا قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر: ٣١)(١).

١٣ ـ كلام النار وكلام أهلها:

النار كائن خلقه الله وله حديث وكلام فقد قال تعالى عن النار وكلامها حين ترى أهل النار: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان: ١٢).

ذلك حين تكون النار يوم القيامة وقد أتت بها الملائكة إلى أرض المحشر، فحين تكون على مرأى وقرب من الظالمين والعاصين والكافرين تصدر صوتاً يشبه

(١) انظر كتاب التخويف من النار لابن رجب.

صوت المغيظ المحنق لشدة توقدها يشبه هذ الصوت صوت الزفير العالى الذى يخرج من فم الإنسان المحزون المتغيظ.

عن ابن عباس قال: ان العبد ليجر إلى النار، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يتبقى أحد إلا خاف.

وكذلك يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنا تسمعان ولسان ينطق يتكلم كلاماً فصيحاً: «إنى وُكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين.

وهذا ما نص عليه الحديث الشريف الذى رواه الترمذى فى سننه عن رسولنا ﷺ.

«يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول إنى وُكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»(١).

وجاء أيضاً حديث النار فى الدنيا لربها فيما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - «اشتكت النار إلى ربها، فقالت رب أكل بعضى بعضاً، فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف، فأشد ما تجدون فى الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

وقال أيضاً: - «قالت النار رب أكل بعضى بعضاً فأذن لى أتنفس. فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نفس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم»(٢).

وعن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»(٣).

قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح: قوله (من فيح جهنم) أى من سعة انتشارها وتنفسها، ومنه مكان أفيح أى متسع، وهذا كناية عن شدة استعارها،

(١) رواه الترمذى فى سننه وقال: حديث حسن غريب صحيح ومثله فى مسند أبى يعلى الموصلى.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه وكذلك ابن حبان.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه.

وظاهره أن مثار وهج الحر فى الأرض من فيح جهنم حقيقة وقيل هو من مجاز التشبيه، أى كأنه نار جهنم فى الحر، والأول أولى(١).

وقال النووى: «قال القاضى: اختلف العلماء فى معناه، فقال بعضهم: هو على ظاهره، واشتكت حقيقة، وشدة الحر من وهجها وفيحها وجعل الله تعالى فيها إدراكاً وتمييزاً بحيث تكلمت بهذا.

ومذهب أهل السنة، أن النار مخلوقة، قال: وقيل: ليس هو على ظاهره، بل هو على وجه التشبيه والاستعارة والتقريب، وتقديره: أن شدة الحر يشبه نار جهنم فاحذروه واجتنبوا حروره. قال: والأول أظهر(٢).

ولا مانع من حمله على حقيقته فوجب الحكم بأنه على ظاهره والله أعلم.

واعلم أن الإبراد إنما يشرع فى الظهر ولا يشرع فى العصر - أى الصلاة - عند أحد من العلماء إلا أشهب المالكى، ولا يشرع فى صلاة الجمعة عند الجمهور وقال بعض الفقهاء يشرع فيها والله أعلم.

أما عن حديث وكلام أهل النار وحوارهم مع خزنة النار وخازن النار مالك عليه السلام، فقد جاء ذكر ذلك فى سورة الأعراف فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ

---

(١) انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى.

(٢) انظر شرح النووى لصحيح مسلم.

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤ ـ ٥٠).

عن ابن عباس فى تفسيره للآيات قال: ينادى الرجل أخاه إنى قد احترقت فأفض علىَّ من الماء.

فيقال: أجبه.

فيقول: إن الله حرمه على الكافرين.

قال تعالى فى سورة الصافات:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠ ـ ٦١).

قال الشعبى: يشرف قوم فى الجنة على قوم فى النار فيقولون ما لكم فى النار وإنما كنا نعمل بما كنتم تعملون فيقولون: إنا كنا نعلمكم ولا نعمل به(١).

قال ابن رجب فى قوله: «فاطلع فرآه فى سواء الجحيم».

أى فى وسطها رأى جماجم تغلى، فقال: فلان والله لولا أن الله عز وجل عرفه إياه لما عرفه لقد تغير حبره وسبره، فعند ذلك يقول: إن كدت لتردين(٢).

وقال تعالى: **﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ**

(١) أخرجه أحمد فى المسند.

(٢) انظر التخويف من النار.

يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين: ٣٤ ـ ٣٦).

ويندم أصحاب النار والسعير بعد ما عاينوا الجحيم على ما فعلوه فى الدنيا وهم يرجون من ربهم أن يعيدهم إليها لعلهم يعملون صالحاً.

قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧).

وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٨ ـ ١١).

ومع هذا التضرع والرجاء والتوبة بعد فوات الأوان تأتى الإجابة والرد من الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١٠).

وقد نادى أصحاب السعير مالكا عليه السلام أن يقضى عليهم ربهم بالموت حتى يستريحوا من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧).

ومن نداءات أهل النار التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨).

ثم يأتى لوم أهل النار للشيطان وهم فى النار معاً وكأنهم يطلبون منه إنقاذهم أو الانتقام منه والتبرأ منه قال تعالى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

لقد نادوه ليشفع لهم كما يشفع المؤمنون للمؤمنين فقال لهم: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

ثم توجه أصحاب النار إلى أصحاب الجنة يطلبون منهم الماء والغذاء كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٥٠).

قال الحسن البصرى ينادى الرجل ولده وتنادى المرأة ابنتها أعطونا ماءً أو طعاما، يردون أن الله حرمهما على الكافرين.

ويأتى الجواب من أهل الجنة صريحاً بأن هذا الطلب مرفوض لتحريم الله هذا الرزق على الكافرين.

ثم يتوجهون لنداء الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (غافر: ٤٩ ـ ٥٠).

حتى هذه المحاولة لا تأتى بنتيجة إيجابية.

ثم يتوجهون إلى خازن النار مالك ﷺ كى يشفع لهم عذابهم ولكن لا جدوى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ

إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤ ـ ٧٧).

ويخبرنا الحق جل وعلا أسباب عدم الاستجابة لأهل النار واعترافهم بما فعلوه فى الدنيا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٥ ـ ١٠٧).

وهكذا انتهى بهم الحال إلى الخلود فى الجحيم بعد هذه النداءات الكثيرة منهم.

١٤ ـ أبدية النار وخلودها وخلود أهلها فيها:

النار مخلوقة خلقها الله قديما باقية، وقد اطلع عليها النبى ﷺ ووصفها كما وصف الجنة وقد ذكرت فى ذلك أحاديث صحيحة مثل حديث صلاة كسوف الشمس المتفق عليه فى الصحيحين وجاء فيه: «... قالوا: يا رسول الله ورأيناك تناولت شيئاً فى مقامك، ثم رأيناك تكعكعت.

فقال: إنى رأيت الجنة وتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء.

قيل: بم، يا رسول الله.

قال: بكفرهن.

قيل: أيكفرن بالله؟

قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت خيراً قط.

وقال أيضاً: وايم الذى نفسى بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً.

قالوا: وما رأيت يا رسول الله.

قال: رأيت الجنة والنار[1].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

وقال أيضاً: إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار(١).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٣١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (النجم: ١٣ ـ ١٥).

وجاء فى الحديث الصحيح قوله ﷺ: لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها.

فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بالجنةفحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها.

قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها.

قال: فنظر إليها، فإذا هى يركب بعضها بعضاً.

ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها.

فأمر بها فحفت بالشهوات.

ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها.

فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجوَ منها أحد إلا دخلها(٢).

ورغم هذا فإن هناك من يرى أن النار والجنة لم تخلقا بعد وأنه لو كانتا مخلوقتين الآن لوجب الاضطرار لفنائهما يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

والرد على هؤلاء ما ذكر أهل العلم وذكرناه من أحاديث صحيحة وأيات من القرآن الكريم كما ذكرنا.

ويأتى أيضاً مسألة أخرى تخص الجحيم وهى أبدية النار أو فناؤها.

فهناك من يرى أن النار هى عذاب الله الأخروى لها فترة معينة يعلمها الله ثم تفنى بعد ذلك، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ: ٢٣ ـ ٢٥).

وفسروا أحقاباً أى مدة زمنية لا يعلمها إلا الله، وهذا القول يقابله ما ذكر اليهود أنهم لن يخلدوا فى النار، قال تعالى بمن قولهم والرد عليه: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٠-٨١).

ومن الطوائف التى قالت بفناء النار الجهمية ورد عليهم الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه الرد على الزنادقة، وهم يقولون بفناء الجنة.

والخوارج والمعتزلة من الطوائف التى تكفر المسلم الذى يرتكب الكبائر وأنه خالد فى النار مع الكافرين إن لم يتب، وهم يخالفون أهل السنة والجماعة.

ويرى بعض المعتزلة أن حياة أهل النار تفنى حتى يصيروا جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم وهو قول أبى الهزيل العلاف.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ: ٢٣ ـ ٢٥)، فالمراد كما قال القرطبى رحمه الله (أى ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب، وهى لا تنقطع، فكلما مضى حقب جاء حقب، والحقب بضمتين: الدهر، والأحقاب: الدهور، والحقبة، بالكسر: السنة،

والجمع حقب... والحقب بالضم والسكون: ثمانون سنة، وقيل أكثر من ذلك، والجمع: أحقاب. والمعنى فى الآية: لابثين فيها أحقاب الآخرة التى لا نهاية لها، فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه، إذ فى الكلام ذكر الآخرة، وهو كما يقال: أيام الآخرة، أى أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب ونحوه. وذكر الأحقاب لأن الحقب كان أبعد شىء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها، وهى كناية عن التأبيد، أى يمكثون فيها أبدا. وقيل وهذا الخلود فى حق المشركين، ويمكن حمل الآية على العصاة الذى يخرجون من النار بعد أحقاب.

وهذا الخلود فى حق المشركين، ويمكن حمل الآية على العصاة الذى يخرجون من النار بعد أحقاب.

وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب، ولهذا قال﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**﴾ (النبأ: ٢٣، ٢٤، ٢٥).

وأما قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ (هود: ١٠٦ ـ ١٠٧)، فقد ذكر القرطبى رحمه الله فى تفسيرها أحد عشر قولا كلها تدل على خلود الكفار فى النار وتأبيدهم فيها، ومن هذه الأقوال: (أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله (فأما الذين شقوا) عاما فى الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من (خالدين)، وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون»(١).

ومنها: (أن «إلا» بمعنى «سوى» كما تقول فى الكلام: ما معى رجل إلا زيد، ولى عليك إلا درهم إلا الألف التى لى عليك. فالمعنى: ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود) وقد تركنا ذكر بقية الأوجه اختصارا فراجعها فإنه نافعة جدا.

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

وبهذا يعلم أن ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع من خلود النار وبعض أهلها، لم يعارضه نص صحيح صريح من كتاب الله ولا من سنة رسوله، ولا من آثار الصحابة والتابعين.

وبهذا يتم الجواب عن قولك: أم أن عذابهم يستمر لأحقاب الله يعلمها، إن كان كذلك فما مصيرهم بعد ذلك؟ ولم يرد ذكر لذلك فى القرآن أو السنة؟

فيقال: بل ورد ما ذكرنا لك من النصوص، وغيرها مما لم نذكره، ما يقرر معتقد أهل السنة فى هذه المسألة، وكون النصوص لم تذكر شيئاً عن مصيرهم بعد الأحقاب، يدل على ما ذكرنا من أنها أحقاب لا تتناهى، ولا تنقطع.

وليس فيما ذكر تعارض مع عدل الله ورحمته، بل هذا هو مقتضى عدله وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٦ ـ ٣٧).

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم: ٣٤ ـ ٣٥).

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١ ـ ٢٢).

وقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: ٤).

ومن تدبر هذه الآيات المباركات أيقن أن الله حكيم عليم رحيم لا يظلم الناس مثقال ذرة، وما ربك بظلام للعبيد وهو سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

وسئل ابن تيمية رحمه الله عن حديث أنس بن مالك عن النبى انه قال (سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء النار وسكانها واللوح والقلم والكرسى والعرش).

فهل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب: هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبى وإنما هو من كلام بعض العلماء وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها كما فى ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأهلها وبقاء غير ذلك مما لا يتسع هذه الورقة لذكره وقد استدل طوائف من أهل الكلام والمتفلسفة على امتناع فناء جميع المخلوقات بأدلة عقلية والله أعلم(١).

وفى تعليق الألبانى على شرح العقيدة الطحاوية قول الألبانى لم يثبت القول بفناء النار عن أحد من السلف وإنما هى آثار واهية لا تقوم بها حجة وبعض أحاديث موضوعه.

وأما ما نسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله فقد نفى عنهما هذا الاعتقاد غير واحد من أهل العلم:

قال ابن قاسم معلقاً على قول شيخ الإسلام فى بيان تلبيس الجهمية ١/١٥٧:

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية.

(وإن بقاء الجنة والنار بقاء مطلق) قال ابن قاسم: وهذا مع ما يأتى يكذب ما افتراه أعداؤه من القول بفناء النار.

وقال عبد العزيز الراجحى فى كتابه قدوم كتائب الجهاد إن ما نسبه هذا الضال لشيخ الإسلام باطل وكذب وزور بل شيخ الإسلام يقول بخلافه ص ٨٤ وقال ص ٨٥ إن العمدة فى هذا ما ذكره شيخ الإسلام فى كتبه أما ما نسبه أعداؤه إليه فلا حجة فيه وان صح عنه فالحق من قوليه ما وافق الدليل وهو القول بعدم فناء النار.

وقال إن نسبة هذا القول للعلامة ابن القيم باطل أيضاً بل هو يقول بخلافه.

وقال كما أن شيخ الإسلام لم يصرح بذلك فى شىء من كتبه بل صرح بخلافه وهذا القول الذى نسبه إليه أعداؤه من أهل البدع أو بعض من تساهل من أهل السنة ونسبه إليه بناءً على قول أعدائه وهو قول باطل كما سبق والله تعالى أعلم.

وقد نفى هذا القول عن ابن تيمية وابن القيم أيضاً خليل السبيعى فى مقدمة إيقاف الفريقين على خلود أهل الدارين للكرمى وقد قدم له الشيخ ابن جبرين وقال فى تقديمه لهذا الكتاب (فقد تبين من هذه النقول ان من عزى إلى الشيخين رحمهما الله تعالى القول بفناء النار وانقطاع العذاب فقد تخرص وتكلم فيهما بغير علم فإن مؤلفاتهما متوفرة بأيدى الناس وهى فى متناول الأيدى وقد اشتملت على أنواع من علوم العقيدة ومن ذلك التصريح بدوام النعيم والعذاب فى الآخرة دون الإشارة إلى فناء النار والميل إليه... الخ) بل ألف فى هذا الموضوع على بن على بن جابر كتاباً مستقلاً وقد ذكر براءتهما صاحب كتاب الاستنفار لمحق القول بفناء النار.

وقوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾** (هود: ١٠٦ ـ ١٠٨).

قال الشيخ ابن باز رحمه الله الآيتان ليستا منسوختين بل هما محكمتان،

وقوله جل وعلا: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ اختلف أهل العلم فى بيان معنى ذلك، مع إجماعهم بأن نعيم أهل الجنة دائم لا ينقضى ولا يزول ولا يخرجون منها، ولهذا قال بعده سبحانه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ لإزالة ما قد يتوهم بعض الناس أن هناك خروجا، فهم خالدون فيها أبدا، وأن هذا العطاء غير مجذوذ أى غير مقطوع، ولهذا فى الآيات الأخرى يبين هذا المعنى فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ (الحجر: ٤٥ - ٤٦) فبين سبحانه أنهم آمنون - أى آمنون من الموت وآمنون من الخروج وآمنون من الأمراض والأحزان وكل كدر.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٧ - ٤٨) فبين سبحانه أنهم فيها دائمون لا يخرجون وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الدخان: ٥١ - ٥٧) فأخبر سبحانه أن أهل الجنة فى مقام أمين لا يعترضهم خوف ولا زوال نعمة وأنهم آمنون أيضاً، فلا خطر عليهم من موت ولا مرض ولا خروج منها ولا حزن ولا غير ذلك من المكدرات، وأنهم لا يموتون أبدا، ومعنى ذلك أن أهل الجنة يخلدون فيها أبد الآباد.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قال بعض أهل العلم معناه: مدة بقائهم بالقبور وإن كان المؤمن فى روضة من رياضها ونعيم من نعيمها، لكن ذلك ليس هو الجنة، ولكن هو شىء من الجنة، فيفتح على المؤمن فى قبره باب إلى الجنة يأتيه من ريحها وطيبها ونعيمها، ثم ينقل بعد ذلك إلى الجنة فوق السموات فى أعلى شىء.

وقال بعضهم معنى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أى مدة مقامهم فى موقف القيامة للحساب والجزاء بعد خروجهم من القبور ومدة مقامهم فى الموقف ومرورهم على الصراط كل هذه الأوقات هم فيها ليسوا فى الجنة لكن ينقلون منها إلى الجنة

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعنى إلا وقت مقامهم فى القبور، وإلا وقت مقامهم فى الموقف وإلا وقت مرورهم على الصراط فهم فى هذه الحالة ليسوا فى الجنة ولكنهم منقولون إليها، وسائرون إليها، وبهذا يعلم أن الأمر واضح ليس فيه شبهة ولا شك ولا ريب فالحمد لله.

فأهل الجنة ينعمون فيها وهم خالدون أبد الآباد. لا موت ولا مرض، ولا خروج، ولا كدر، ولا حزن، ولا للنساء حيض، ولا نفاس، ولا شيء من الأذى أبدا، بل فى نعيم دائم وخير دائم.

وهكذا بعض أهل النار مخلدون فيها أبد الآباد ولا يخرجون منها ولا تخرب أيضاً هى بل تبقى وهم باقون فيها وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قيل مدة مقامهم فى المقابر، أو مدة مقامهم فى الموقف كما تقدم فى أهل الجنة، وهم بعد ذلك يساقون إلى النار ويخلدون فيها أبد الآباد نسأل الله العافية.

وكما قال عز وجل فى سورة البقرة: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧) وقال عز وجل فى سورة المائدة فى حق الكفرة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٧).

وقال بعض السلف إن النار لها أمد ولها نهاية بعدما يمضى عليها آلاف السنين والأحقاب الكثيرة وأنهم يموتون أو يخرجون منها وهذا القول ليس بشيء عند جمهور أهل السنة والجماعة بل هو باطل ترده الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة كما تقدم وقد استقر قول أهل السنة والجماعة أنها باقية أبد الآباد وأنهم لا يخرجون منها وأنها لا تخرب أيضا، بل هذ باقية أبد الآباد فى ظاهر القرآن الكريم وظاهر السنة الثابتة عن النبى ﷺ.

ومن الأدلة على ذلك مع ما تقدم قوله سبحانه فى شأن النار: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ (الإسراء: ٩٧) وقوله سبحانه فى سورة النبأ يخاطب أهل النار: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾ (النبأ: ٣٠) نسأل الله السلامة والعافية منها ومن حال أهلها(١).

---

(١) انظر مجموعة فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز.

وبقاء أهل النار فى النار معذبين لا نهاية له، فهو بقاء إلى الأبد، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة منها:

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ (النساء: ١٦٩).

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الجن: ٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧).

وفى سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥).

ولو ذكر الله عز وجل التأبيد فى موضع واحد لكفى، فكيف وقد ذكر كثيرا من آيات القرآن ومن ذهب إلى عدم خلود العذاب فى النار قالوا إن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أى: ما دامت موجودة، أى أن النار طالما موجودة فالعذاب موجود وحين تفنى النار ينتهى عذاب أهلها.

وهذا الفهم لا يعقل ولا يصح لكلمة خالدين لأن الخلود يلزم أن تكون هى مؤبدة أنهم خالدون فيها فهم كائنون فيها، وإذا كان الإنسان خالداً مؤبداً تخليده، لزم أن يكون مكان الخلود مؤبداً، لأنه لو فنى مكان الخلود ما صح تأبيد الخلود، والآية واضحة جداً. والتعليلات المخالفة للنص مردودة على صاحبها، وهذا الخلاف الذى ذكر عن فئة قليلة من أهل العلم خلاف مخالف للنص الصريح الذى يجب على كل مؤمن أن يعتقده، ومن خالفه لشبهة قامت عنده فيعذر عند الله، لكن من تأمل نصوص الكتاب والسنة عرف أن القول بتأبيدها هو الحق الذى لا يحق العدول عنه والله أعلم.

ومن الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أن النار لا تفنى، وعلى تخليد

الكافرين فى النار، وأنهم لا يخرجون منها، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (الجاثية: ٣٥).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦).

وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (الإسراء: ٩٧ ـ ٩٨).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ١٠).

وقال: ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٣).

وقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤ ـ ٧٨).

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٥). إلى أن قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٠).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٦ ـ ٣٧).

وقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (النبأ: ٢١) إلى أن قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ (النبأ: ٣٠).

إلى غير ذلك من الآيات التى يدل كل منها على تخليد الكفار فى النار وعدم خروجهم منها وعدم فنائها، فإذا اجتمعت كانت دلالتها على ذلك أقوى وأبعد عن التأويل(١).

١٥ ـ إبليس وجهنم وخطبته فيها:

إبليس أبو الجن مثله مثل بقية جنسه من الجن مخلوق من نار السموم كما قال الله عز وجل فى القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: ١٥).

ويثور سؤال قديم هل يدخل الجن النار وهم قد خلقوا من نار؟

والإجابة بالإيجاب لأن النار التى خلق منها إبليس والجن هى ما من نار أو نار السموم وهى أعلى اللهب وهى تختلف بالطبع عن نار جهنم التى يأكل بعضها بعضاً والتى هى جزء من سبيعن جزءاً من نار الدنيا.

بالإضافة إلى أن الله عز وجل قد أخبرنا بدخول إبليس وعصاة الجن وكفرتهم جهنم؟

وأن إبليس سوف يخطب فى أتباعه فى جهنم.

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن عثيمين.

فهذا مما لاشك فيه، وقد ذكر الله تعالى مصير إبليس فى الآخرة فى عدة آيات، ومنها:

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٢ ـ ١٨).

قال الطبرى فى تفسيره: ـ وهذا قسم من الله جل ثناؤه، أقسم أن من اتبع من بنى آدم عدو الله إبليس وأطاعه: أن يملأ جهنم من جميعهم يعنى: من كفرة بنى آدم أتباع إبليس، ومن إبليس وذريته.

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٣٢ ـ ٤٤).

قال الشنقيطى رحمه الله فى تفسيره «أضواء البيان»: ـ وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبنى آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم فى النار كما قال هنا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ (الحجر: ٤٣ ـ ٤٤).

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٤ ـ ٨٥).

وقال تعالى حاكياً قول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن: ١٤ ـ ١٥).

أما عن كيفية عذاب الجن وإبليس فى النار فقد قيل أن أضاف الشياطين والجان إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار، والمراد به فى حق الإنسان أن أصله الطين، وليس الآدمى طيناً حقيقة، لكنه كان طيناً، كذلك الجان كان ناراً فى الأصل(١).

وإذا كان الإنس خُلقوا من تراب وقليل منه يؤذيهم، وإن دفنوا تحته ماتوا، وإن ضربوا به (الفخار مثلاً) جرحوا أو ماتوا، فكذلك ليس غريباً أن يكون الجن قد خلقوا من النار، ويعذبون بنار جهنم.

والجن خلقهم الله تعالى من نار، ولكنهم ليسوا الآن ناراً، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

١ ـ عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ: (حتى وجدت برد لسانه على يدى، ولولا دعوة أخى سليمان ﵇ لأصبح موثقا حتى يراه الناس)(٢).

٢ ـ عن أبى الدرداء ﵁ قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك، قال: إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان

(١) انظر لقط المرجان فى أحكام الجان.

(٢) رواه النسائى فى السنن الكبرى وصححه الألبانى.

لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة(١).

فمن هذين الحديثين يتبين لنا أن الجن الآن ليسوا ناراً، ويدل على ذلك: ما وجده رسول الله ﷺ من برد لسان الشيطان، كما فى الحديث الأول، وأن الشيطان لو كان باقياً على ناريته ما احتاج أن يأتى بشهاب ليجعله فى وجه النبى ﷺ، ولما استطاع الولدان أن يلعبوا به.

٣ ـ وقوله أيضاً: (إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم)(٢).

ولو كان الشيطان ناراً لاحترق الإنسان، لأن الشيطان داخله، فتبين الفرق بين كون الشيطان ناراً وكونه مخلوقا من نار.

ولو كان الشيطان ناراً وأراد الله أن يعذبه بنار جهنم، فإن الله تعالى على كل شىء قدير، ولا يعجزه شىء سبحانه وتعالى.

ومن الآيات الدالة على دخول الجن النار مع الإنس قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).**

ـ وقوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٢٨).**

ـ وقوله تعالى: **﴿قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨).**

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

(٢) متفق عليه.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤ ـ ٩٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٣ ـ ٤٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (مريم ٦٨).

أما خطبة إبليس فى اتباعه من أهل النار فقد جاء ذكرها فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

والخطيب فى العادة يخطب من أعلى مكان أما إبليس فإنه يخطب فى جهنم من أسفل تحت دركات، وإذا كان الخطيب فوق منبره يقرر ويعظ ويعلم، فإبليس هنا يتنصل ويبكت ويخزى ويخزَى، وإذا كان الخطيب يرفع رأسه ليراه الناس وليكسو ألفاظه معنى الهيبة والقوة، فإن إبليس هنا ينكمش ويتصاغر لأن جموع الطالبين بالحقوق منه هادرة غاضبة صارخة وتطلب التفسير والجواب.

فإبليس فى خطبته هذه قابع فى الدرك الأسفل، بل فى أسفل دركة، خائب حسير، تلفحه النار والعذاب من كل مكان، وملائكة العذاب تضربه من كل جانب، وصراخ وعويل أتباعه تزيده آلاماً فوق ما هو عليه، ورؤيته للفقراء والمساكين الذين كان يستهزئ بهم ويتعالى عليهم وهم ملوك الجنان تأكل قلبه وتشعل ندمه.

فكلام أهل النار هو الصراخ، والصراخ هنا فى النار مطالبه منهم له بإنقاذهم.

روى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال: يقف إبليس خطيباً فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق.

ولا أدرى إلا أن الذى يُطالب من قبل أتباعه أن يصرخهم (ينقذهم) وينفذ وعوده فينكص ويعترف بكذب وعوده، ويقر بعجزه عن عدم نصرتهم، إلا أنه فى الحالة التى وصفت.

وهذه الآية عن خطبة الشيطان قيلت فى كتاب الله تعالى بعدما أخبرنا الله تعالى عن تبرى الأسياد من الأتباع: **﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢).**

والمناسبة بين الآيتين واضحة جلية. فإن سياق الآيتين حديث عن قضية مهمة وهى قضية الخوَل (الحشم) والأتباع، وأنه لا حجة لهم عند الله تعالى بكونهم كانوا مستضعفين فى قوتهم وعقولهم، رضوا لأنفسهم بالتسليم، وتعليق ما هم عليه من الكفر والضلال على مشجب أسيادهم، رافعين عن أنفسهم التهمة، واجدين لها العذر والحجة، وهى حجة تتكرر على مر الأزمان والدهور، يقولها الناس بصيغ متعددة وبألفاظ متباينة لكنها تدور على معنى واحد وهو: **﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧).**

والله تعالى قد قطع هذه الحجة فى الدنيا وقطعها فى الآخرة، أما فى الدنيا فإن الله تعالى قد أهلك أتباع الفراعنة والطواغيت مع أسيادهم، ولم يستثنهم من

الغذاب والهلاك، قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص: ٤٠). ودمر صنيع الآمر والمأمور قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧)، وأما فى الآخرة فكما هو قوله سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى بين أيدينا، وكما فى غيرها من الآيات الكثيرة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه (طريق الهجرتين) مراتب المكلفين، وذكر مرتبة من هذه المراتب هى مرتبة بهائم البشر من المقلدين للكفار والطواغيت، يُرجع إليها لأهميتها.

والآيات فى هذا الباب فيها التحذير من التقليد، ومن عدم استعمال المرء لما وهبه الله تعالى من نعمة العقل والنظر، وفيها الدعوة إلى عدم قبول الاستضعاف، وإن الاستضعاف والذلة هى طريق الكفر والضلال، فتبكيت التقليد، أى تقليد أتباع الكفر لأسيادهم فيها الدعوة لتحرر العقل من أغلاله وتحرر الإرادة من معوقاتها.

وهذا هو الإنسان لا غير علم وإرادة وما جاء الإسلام إلا لتحريرهما من الأغلال والقيود والموانع، وإن تقدم أى أمة من الأمم لا يكون إلا بتصويب العلم وتحرير الإرادة.

وقول الشيطان لأتباعه حين جاءوا إليه فى النار يطلبون أن ينقذهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢) فهى تماثل فى المعنى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

فالله قد وعد، ووعده حق، وهو القادر سبحانه وتعالى أن ينفذ وعده، لا يعجزه شىء إذا أراده، ثم تفكر بهذه الصيغ الرحيمة التى ينادى الله تعالى بها عباده فى هذه الدنيا، إنها كلمات الرحمة، انظر وتفكر فى قوله سبحانه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

إن من وعد الحق أن ينصر الله عباده فنصرهم، وإن من وعد الحق أن يملأ قلوبهم بالرضا والاطمئنان فأرضاهم، وكشف عنهم غمهم، وإن من وعده أن يخفف عنهم سكرات الموت فكان لهم ذلك، وأن يجعل عليهم قبورهم جنة من الجنان فيها روح وريحان فذاقوا من ذلك ألواناً.

أو إن من وعد الحق أن يؤمنهم يوم الفزع الأكبر فأمنهم، وإن من وعد الحق أن يجعل لهم نوراً فى قبورهم ويوم يبعثهم وفوق الصراط فكان لهم النور، وإن من وعد الحق أن يدخلهم الجنان فدخلوها، وإن من وعد الحق وهو أعلى الوعود وأشرفها أن يروا ربهم فتجلى لهم من فوقهم ورأوه كما يرون البدر فى الليلة الصافية وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين.

فماذا فعل الشيطان بوعوده؟ (فأخلفتكم) هكذا ظهر سراب وعوده، تكشف كذبها، وبانت على حقيقتها، لقد تلاشت كلها تحت كلمة الشيطان (فأخلفتكم).. لقد بحثوا عنه فى كل موطن أقسم لهم أن يكون لهم فيه، ونادوا عليه بكل أصواتهم حتى كلت وبحت، لكنه لم يكن هناك، لقد تخلف لقد أقسم لأبوينا آدم وحواء**﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾** **(الأعراف: ٢١)** وكذب فى قسمه.

لقد أوعد أولياءه الفقر إن أنفقوا فكان ما نصحهم به هو الفقر بعينه.

لقد وعد أولياءه فى بدر وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنى جار لكم، فما هى إلا لحظات حتى صدق الله وعده للمؤمنين وأنزل ملائكته تؤيدهم وتثبتهم وتقاتل معهم فما كان من الشيطان إلا أن نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم.. إنى أرى ما لا ترون، إنى أخاف الله والله شديد العقاب.

فأخلفتكم، كلمة لم تبق لهم فى نفوسهم أملاً، وقطعت كل أمانيهم، ولم يبق لهم من رجاء، وإذا كان للشيطان أن يصدق قليلاً فإن صدقة هنا لم يكن سوى تصوير لحقيقة الأمر التى لا دافع لها. ولله الأمر من قبل ومن بعد. ثم بكلمات يسيرة خاطفة، ككل خطبه، قذف البراءة والتبرى فى وجوههم: **﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾** **(إبراهيم: ٢٢)**.

والسلطان ههنا اختلف العلماء فى تفسيره، فأكثرهم على أنه الحجة والدليل، أى لم يكن لى من دليل ولا حجة على ما دعوتكم له من الشرك والكفر والمعصية، بل بمجرد أن رفعت لكم لواء الشهوات حتى أقبلتم إليها دون تفكر بالعواقب، ودون نظر صحيح.

وقال بعض أهل العلم إنما السلطان هو القوة والقهر، أى لم أقهركم على الكفر والشرك إنما أقبلتم إلى ذلك بمحض إرادتكم، ولا يبعد أن المراد بالسلطان هو هذا وهذا، بل كلمة السلطان أشمل من ذلك، فإن الشيطان يريد أن يبرئ نفسه، وأن يحمل الأتباع نتيجة ما أتوا وعملوا، ولكنه استدرك وبين ما كان منه من عمل: ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾.

وهكذا أخفى كل ما يقوم به من تزيين للباطل ونصرة للشر والنفخ والهمز فى قلوب الناس بكلمة واحدة: دعوتكم.

وأقول: أخفى لأن فى كلمته هى تزييف للحقيقة، فإنها كلمة سريعة فلو كان أمام قضاء غير ما هو فيه لما استحق عليها عقاباً، لكنها يوم القيامة تحمل حقيقة المعنى وذلك لتحقق الجزاء، وهى كلمة تبرى: نعم، لكنها كلمة تبكيت وتحقير لأتباعه وعُباده، وهى بلا شك ستملأ قلوبهم حسرة وندامة من الشيطان.

دعاهم، وزين لهم، ووسوس لهم، ووعدهم، وأوحى لهم، ورماهم بسهامه، وقذف فى طريق الحق ألف معوق ومعوق، وصاحب قلوبهم فى السر والعلن.

وكان مما قال لربه يوم لعنه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٦٢).

فقال الله تعالى له: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥).

هذه الأفعال: دفع الناس بالصوت والنداء إلى الكفر والشرك والمعصية، والجلب عليهم بالخيل والرجال والمشاركة فى الأموال والأولاد، والوعود الكاذبة، ثم انظر إلى قوله ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أى لأشدنهم إلى الشر من الحنك وأسوقنهم إليه بكل قوة، وبين قوله: ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾ ترى كيف ما زال الشيطان كاذباً ومراوغاً فى كل موطن.

لقد دعاهم الشيطان فاستجابوا له، وهذه الاستجابة هى الشر كله وهى التى أوقعتهم فى النار، وهكذا يتم التقريع والتبكيت، لقد استجبتم لنداء الشيطان بمجرد أن دعاكم.

وبالتالى ليس لهم عذر عند الله بأنهم اتبعوا الشيطان وصدقوا وعوده، بل سيعاقبون على كل ما فعلوا واقترفوا وبيتوا.

وقد قال الشيطان لهم بصراحة: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ إنها نصف الحقيقة تتكرر، لكن كما قال الله عن الأسياد والأتباع: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أى من العذاب، وذلك بعد قولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾. وهكذا تدرج فى حديثه حتى وصل إلى هذه الحقيقة، لن أستطيع إنقاذكم ولا نجدتكم، كما أنكم لا تستطيعون إنقاذى ولا نجدتى، والعرب تقول للنجدة والمغيث والمعين: الصارخ، والصراخ هو الصياح، لأن طلب الغوث وكذا المغيث لا يخلو منه غالباً، قال أمية بن أبى الصلت:

ولا تجزعوا إنى لكم غير مصرخ — وليس لكم عندى غناءٌ ولا نصر

أى لست لكم بمغيث.

وهكذا لم يجدوا عنده إلا السراب الخادع، والأمانى الكاذبة، والوعود الباطلة.

وقوله سبحانه وتعالى على لسان الشيطان ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ دليل على أن حديث أهل النار هو الصراخ ـ وهم يصطرخون فيها ـ ولا شك أن حالهم يدعو لذلك، نعوذ بالله من عذابه وناره.

والمرء لا يقدم إلا ما يقدر عليه، وههنا لا يقدر الشيطان على إنقاذ نفسه،

فكيف يقدر على إنقاذ غيره، ثم متى استطاع الشيطان أن يقدم لعباده وأتباعه شيئاً، ومتى صدق فى وعد قطعه على نفسه لهم.

ألا ما أشقى من يتبع الشيطان ويثق به ويصدق وعوده. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾. وها هو يرد عبادتهم له فى وجوههم، ويرميها خلقة بالية، فقد كفر بعبادتهم، وتبرأ من إشراكهم إياه مع الله تعالى، فقد كفر بشركهم، وهو اعتراف منه أن تألهه على أتباعه هو تأله باطل، وأن عبادتهم إياه عبادة باطلة، وأن كل طاعة قدموها له رجاء خير منه أو جزاء ذهبت سراباً ولم تك شيئاً.

وهكذا تبين للأتباع من عباده الذى نراهم يملؤون السهل والوادى، ويأخذون عنه شريعتهم، ويدمرون فطرتهم بالانقياد له، ويعرضون عن أمر ربهم وشريعته، وسنة النبى وهديه، تبين لهم: أن وعوده كاذبة، وأن نهاية العلاقة بينهما هى التبرى والقطيعة، وأنه لن ينصرهم فى أى مقام من مقاماتهم التى يحتاجون فيها إلى النصرة والتأييد.

وهكذا يكتشف أهل الضلال الحقيقة بعد فوات الأوان وقد حذرهم الله وقوله الحق، ووعده الحق، وما أخبرنا بهذا إلا رحمة بنا، وإخباراً لما سيقع يقيناً من أجل الاتعاظ قبل فوات الوقت، إن الظالمين لهم عذاب أليم، فليعجل الناس بوصل حبالهم مع الله تعالى، وليقطعوا حبالهم مع الشيطان وجنده، وليسمعوا قوله سبحانه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠ ـ ٦١).

١٦ ـ الشفاعة النبوية وخروج أهل الكبائر من الموحدين من النار:

اتفق العلماء على أن من دخل الجنة يُخلد فيها ولا يخرج منها، أما النار أو جهنم فقد أجمعوا على عدم خلود أهل المعاصى والذنوب فيها إلا فرق من الخوارج والمعتزلة، واتفقوا على خلود أهل الكفر والشرك فى النار وكذلك المنافقين.

والخوارج والمعتزلة وأشباههم من الفرق المخطئة قد استدلوا بخلود أهل الكبائر فى النار مع الكافرين والمنافقين بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ

وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٣).

وقوله أيضاً: **﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾** (النساء: ١٤).

وقالوا إن العصاة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين هم خالدون فى النار رغم أن الآية واضحة فى خلود العصاة لله ورسوله ﷺ وهم الكفرة الذين لم يشهدا شهادة التوحيد ولم يدخلوا فى الإسلام وتعدوا حدود الله ودينه وحاربوه فضلاً عن المنافقين وهم الذين أشهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وهم أشد من الكفار الذى أعلنوا الكفر صراحة.

واتفق جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة إلى خروج عصاة الموحدين من النار بالشفاعة النبوية وأنكر البعض الشفاعة النبوية دون دليل رغم وجود أحاديث صحيحة فى وجوب الشفاعة للعصاة الموحدين وخروجهم من النار بعد دخولها.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل)(١).

والحديث النبوى يشير إلى أن رحمة الله واسعة وفضله عظيم، ويعظم فضله وتتسع رحمته بالخلق فى الآخرة، أضعاف ما هى عليه فى الدنيا، ومن صور هذه الرحمة إذنه لأنبيائه والصالحين من عباده أن يشفعوا فى أناس قصرت بهم أعمالهم أن يدخلوا الجنة، وعظمت ذنوبهم فأدخلتهم النار، فيمن الله عليهم بإذنه أن يشفع فيهم، فيخرجون من النار وقد احترقوا، حتى أصبحوا فحماً، فيلقون بقرب أنهار الجنة، ويؤمر أهل الجنة أن يصبوا عليهم الماء، فتعود لهم الحياة، وينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل، فتخرج غضة طرية، ويخرجون فرحين

(١) رواه مسلم فى صحيحه، ومعنى قوله (لا يحيون) أى حياة ينتفعون بها، وأميتوا إماتة أى فقدوا الإحساس بالألم، ومعنى ضبائر: أى جماعات، وفبثوا أى فرقوا، وحميل السيل أى جانبه.

مستبشرين شاكرين الله على فضله ونعمائه.

ويستدل من الحديث أن للنار أهلا هم الكفار وأن خلود الكفار فى النار خلوداً لا يموتون فيه، وأن دخول بعض عصاة الموحدين النار لذنوب ارتكبوها، وكذلك ثبوت الشفاعة فى عصاة الموحدين ليخرجوا من النار، وأن الشفاعة لا ينالها أحد إلا بإذن الله سبحانه، وأيضاً دخول الخارجين من النار بالشفاعة الجنة وتنعمهم فيها.

فالشفاعة لغة: الوسيلة والطلب. وعرفاً: سؤال الخير للغير. وقيل: إنها مشتقة من الشفع الذى هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

والشفاعة ثابتة للأنبياء والرسل والملائكة والشهداء والصالحين على اختلاف مراتبهم عند الله تعالى، والأدلة على ذلك كثيرة، منها: ما فى مسند الإمام أحمد ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين أو مثل أحد الحيين: ربيعة ومضر.

وهذا القدر من هذا الحديث قال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح بطرقه وشواهده(1).

ومنها: ما ثبت فى سنن أبى داود من أن الشهيد يشفع فى سبعين من أهل بيته.

والشفاعة أنواع ومن أهمها على الإطلاق: شفاعة نبينا ﷺ لأهل الموقف لفصل القضاء، وهى المقام المحمود الذى وعده الله تعالى يوم القيامة.

قال سبحانه: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).**

ومنها: الشفاعة لتخفيف العذاب عن بعض الكفار، وهذه أيضاً خاصة بالنبى ﷺ.

ومنها: الشفاعة فيمن استوجبوا النار بأعمالهم فلم يدخلوها بسبب الشفاعة.

ومنها: الشفاعة فى رفع درجات المشفوع لهم.

فللشفاعة شروط ثلاثة: رضاء الله عن الشافع ورضاه عن المشفوع له وإذن الله للشافع أن يشفع.

قال تعالى: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (النجم: ٢٦).**

---

(١) الحديث صححه الألبانى.

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩).

وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ورحمة الله تعالى تدرك عباده المؤمنين، وتتجلى تلك الرحمة فى إذنه سبحانه لمن شاء من عباده أن يشفعوا فى العصاة ممن يرضى الله عنهم، قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

فالشفاعة فى ذلك اليوم من أعظم الرحمات التى يمتن الله بها على عباده، ولاسيما فى حق العصاة ممن استحقوا دخول النار أو دخلوها، فكم هى فرحتهم وكم هى سعادتهم عندما يحال بينهم وبين دخول النار، أو عندما يخرجون منها بعد دخلوهم فيها.

وأعظم الشفاعات التى تجرى فى ذلك اليوم هى شفاعته ﷺ فى بدء الحساب للفصل بين العباد، ذلك أن الخلق يطول بهم المقام فى ساحة الحساب، وتدنو الشمس من رؤوسهم مقدار ميل، ويبلغ بهم الجهد والعرق مبلغاً عظيماً، فيجتمع رأيهم حينئذ على طلب الشفاعة من الأنبياء، ليشفعوا لهم عند ربهم، فيأتون آدم ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وكلهم يأبى عليهم، ويذكر لنفسه ذنبا إلا عيسى ابن مريم، فلا يذكر لنفسه ذنبا ولكنه يأبى الشفاعة ويحيل الناس على النبى ﷺ فيأتونه، فيقول أنا لها، أنا لها، فيشفع ﷺ إلى ربه ليفصل بين عباده ويريحهم مما هم فيه.

وهذه الشفاعة مما اختص الله بها نبيه ﷺ فى ذلك اليوم وهى المقام المحمود الذى وعده، وهناك شفاعات أخرى يكرم الله بها نبيه، ويخصه بها دون سائر الأنبياء، منها شفاعته ﷺ فى استفتاح باب الجنة، قال ﷺ: (أنا أول شفيع فى الجنة)(١).

ومن أنواع الشفاعة شفاعته ﷺ فى عصاة المؤمنين، وهذه المرتبة من الشفاعة يشركه فيها سائر إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، والملائكة، وصالحى الأمة وشهدائها، وهى تكون فيمن استحق النار ألا يدخلها، ومن دخلها أن يخرج منها.

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

وقد تواترت الأدلة فى إثبات هذا النوع من الشفاعة.

منها ما ثبت فى صحيح البخارى أن المؤمنين الذين اجتازوا الصراط يقفون يجادلون فى إخوانهم الذين دخلوا النار فيقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فيخرجون خلقا كثيرا، منهم من قد أخذته النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه. ثم يقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا.

ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرا، فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط - أى مع إتيانهم بأصل التوحيد وأركانه - قد عادوا حمما، فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل - جانب - السيل.

هذه هى الشفاعة رحمة الله لعباده المؤمنين فى ذلك اليوم العظيم، الذى لم يغضب الله قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ومع شدة غضبه سبحانه إلا أن رحمته سبقت غضبه فمنَّ على عباده بالشفاعة، فيا لها من رحمة ويالها من منة، فينبغى للمسلم أن يحرص على تعاطى الأسباب الموجبة لشفاعة النبى ﷺ، وأعظم تلك الأسباب توحيد الله سبحانه حقاً، فقد قال ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)(١).

ومن الأسباب الموجبة لشفاعته ﷺ، الدعاء له بالمقام المحمود، ففى الحديث

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

عنه ﷺ أنه قال: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة)(١).

ومن أسباب شفاعته ﷺ الصلاة عليه عشرا فى الصباح وعشرا فى المساء، فعن أبى الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من صلى على حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتى يوم القيامة)(٢).

والمسلم يعتقد فى دخول الكافر والمشرك والمنافق النار وخلوده فيها وتحريم الله عليه الجنة.

وأن لا يشك كذلك أن ذلك عام فى جميع المشركين الذين لا يقولون «لا إله إلا الله» والذين يقولونها من المشركين. لأن الله لم يفرق بيهم بل يبين أن المشركين الوثنيين وأهل الكتاب يدخلون النار ويخلدون فيها. ومعلوم أن بعض أهل الكتاب يقولون «لا إله إلا الله» قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾** (البينة: ٦).

وبين كذلك أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار. ومعلوم أنهم كانوا يقولون «لا إله إلا الله» ويصلون ويحجون.

قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾** (النساء: ١٤٥).

وبين كذلك أن المرتدين يدخلون النار، ويخلدون فيها. وقد كان كثير منهم يقولون «لا إله إلا الله» كبنى حنيفة الذين ماتوا على الكفر.

قال الله تعالى: **﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** (البقرة: ٢١٧).

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

(٢) رواه الطبرانى وحسنه الألبانى.

فإذا آمنت بهذه الآية وعرفت أن التلفظ بكلمة التوحيد لا ينجى الكافرين من دخول النار وخلودهم فيها، عندئذٍ تعرف عظم الجريمة التى يرتكبها الذين يقولون من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنة وإن وقع فى الشرك فعبد مع الله غيره.

القرآن دل على أن من مات على الشرك والكفر والنفاق يدخل النار، ويخلد فيها. ولن ينفعه قوله «لا إله إلا الله».

فهل عندك آية واحدة أو خبر واحد صحيح يدل على أن من مات على الشرك والكفر والنفاق ينجو من النار، أو يخرج من النار بفضل قول «لا إله إلا الله».

القرآن دل وكذلك السنة على أن بعض الناس يدخلون النار بسبب ذنوبهم التى هى دون الشرك بالله، ولم يحجزهم إسلامهم وقولهم «لا إله إلا الله» عن دخول النار.

وهناك أصناف من البشر لا تنالهم الشفاعة النبوية غير الكافرين والمشركين والمنافقين وقد ثبت خلودهم فى النار فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٩).

ومعهم المنافقون: قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٨).

رغير هؤلاء يأتى المرتدون الذين آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر لقوله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (آل عمران: ٨٦ ـ ٨٨).

وهناك صنف آخر هم الظالمون والمجرمون، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٥٢). ظلموا أنفسهم بالكفر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل: ٢٨ ـ ٢٩).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤).

ومن الذين لا تنالهم الشفاعة الذى يقتل مؤمناً متعمداً، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣). ويقال إذا ما كان مستحلا ذلك.

وكذلك الذين استحلوا السيئات لا تنالهم الشفاعة وهم خالدون فى النار، لانهم ارتكبوا السيئات والخطايا باعتقادهم أنها حلال لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: ٢٧).

وهم غير الذين ارتكبوا السيئات مع اعتقادهم وإيمانهم بأنها حرام ويرجون غفران الله ورحمته وتوبته عليهم.

وأيضاً من الذين لا تنالهم الشفاعة المكذبون برسل الله وكتبه والمستكبرون والمحاربون لدين الله:

لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن

نَدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (غافر: ٧٠ ـ ٧٦).

وكذلك الذين يستحلون الربا ويتعاملون به ويموتون على ذلك دون توبة، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

نسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة.

ومن الأدلة عن خروج البعض من النار بعد أن يدخلها ويعذب فيها ويكون آخر من يدخل الجنة ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة؟ فيأتيها إليه فيخيل أنها مُلئت.

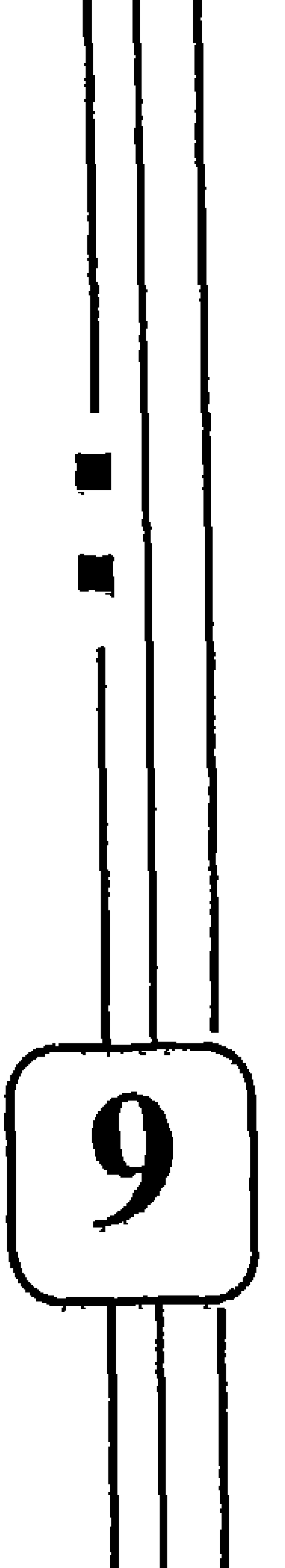
فيرجع فيقول: يا رب وجدتها مُلئت.

فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا.

فيقول: أتسخر بى ـ أو تضحك بى ـ وأنت الملك؟

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة.

ومما جاء فى أقل أهل النار عذاباً ما رواه البخارى فى صحيحه عن النعمان ابن بشير رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع فى أخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه».



كلمة أخيرة

- النجاة من جهنم بالتوحيد والأعمال الصالحة والبعد عن الكبائر.

النجاة من جهنم

جهنم فى كل الأديان هى مستقر للعصاة والكافرين.

وفى الإسلام يكون النجاة منها بالتوحيد الخالص، لأن الشرك والكفر والنفاق أسرع الطرق إلى جهنم والخلود فيها.

وبالتالى فإن التوحيد الخالص هو السبيل الوحيد للنجاة من جهنم وكلمة التوحيد هى النجاة وهى أفضل ما قاله النبيون منذ آدم إلى النبى الخاتم ﷺ وهى شرط لقبول العمل الصالح يوم القيامة.

فالله عز وجل يغفر الذنوب كلها إلا الشرك، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾** **(النساء: ٤٨).**

ومن أشرك بالله عز وجل فقد حرم الله عليه الجنة وكان من أصحاب الجحيم.

والأعمال الصحالة من ذكر الله والصلاة وقراءة القرآن والصدقة والصيام والحج والعمرة وغيرها الكثير هى سفن النجاة من النار.

والنار دركات كما ذكرنا وفى تلك الدركات أنواع من العذاب لا يعلمه إلا الله وأشد الناس عذاباً فى جهنم من تدركهم الساعة وهم أحياء وهم شرار الخلق يوم القيامة لقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ومن لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتهارجون كما تتهارج الحمير»(١).

وقد قال أيضاً: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله.. الله»(٢).

وكذلك المصورون ورجل قتل نبياً أو قتله نبى، لقوله: «إن أشد الناس عذاباً

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده.

يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبى أو مصور يصور التماثيل»[1].

وقوله: «أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»[2].

وكذلك الذين يعذبون الناس فى الدنيا هم أشد الناس عذاباً فى جهنم، لقوله ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشد عذاباً للناس فى الدنيا»[3].

وكذلك الكاسيات العاريات وأعوان الشرطة الظلمة الذين يضربون الناس ويعذبونهم لقوله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»[4].

وكذلك أكل أموال الناس بالباطل لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٢٩ ـ ٣٠).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠).

وكذلك الكذب على النبى ﷺ لقوله ﷺ: «لا تكذبو علىَّ فإنه من كذب علىَّ يلج النار»[5].

وقوله أيضاً: «من تقول علىَّ ما لم أقله فليتبوأ مقعده من النار»[6].

---

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور والقرطبى فى التذكرة والمنذرى فى الترغيب والترهيب.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه وأحمد والبيهقى.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه البخارى فى صحيحه.

والمتكبرون من أشد الناس عذاباً فى النار لأن الكبرياء رداء الله لقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته النار» وفى رواية: «أذقته النار»(١).

وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق عمداً.

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٢٩).

وقوله ﷺ: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار.

قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟

قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه(٢).

وإتيان السحر من السبع الموبقات لقوله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التى حرم الله....»(٣).

والذين يقطعون الطريق على الناس جزاؤهم النار خالدين فيها إلا أن يتوبوا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣٣).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

(٣) متفق عليه.

واليمين الغموس تغمس صاحبها فى النار لقوله ﷺ: «من حلف على يمين صبر، يقطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان(١).

وكذلك الحكم بغير ما أنزل الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

والكبائر غير ذلك كثيرة(٢). ومن تاب توبة نصوحا تاب الله تعالى عليه.

نسأل الله حسن الخاتمة والنجاة من النار وأهوالها والفوز بالجنة ونعيمها إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

القاهرة ٢٠٠٩

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

(٢) اقرأ كتابنا مالك خازن النار، الناشر دار الكتاب العربى، واقرأ الكبائر للذهبى.

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٥ ـ سنن أبى داود .

٦ ـ سنن الدارقطنى.

٧ ـ المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم النيسابورى.

٨ ـ السنن الكبرى والصغرى للنسائى.

٩ ـ مدارك السالكين لابن قيم الجوزية.

١٠ ـ التوحيد ـ محمد بن عبد الوهاب.

١١ ـ التخويف من النار ـ لابن رجب الحنبلى.

١٢ ـ الفقه على المذاهب الأربعة ـ الجزيرى.

١٣ ـ تفسير ابن كثير.

١٤ ـ تفسير القرطبى.

١٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى.

١٦ ـ الترغيب والترهيب ـ للمنذرى.

١٧ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى.

١٨ ـ التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ـ للقرطبى.

١٩ ـ الموطأ ـ للإمام مالك بن أنس.

٢٠ ـ رياض الصالحين ـ للنووى.

٢١ ـ السيرة النبوية لابن هشام.

٢٢ ـ الكبائر للذهبي.

٢٣ ـ الكتاب المقدس.

٢٤ ـ صحيح ابن حبان.

٢٥ ـ في الطبيعة ـ لوكريس.

٢٦ ـ تاريخ جهنم ـ جورج بنوا.

٢٧ ـ المعجم الأوسط للطبرانى.

٢٨ ـ الحياة الأخرى منصور عبد الحكيم.

٢٩ ـ مالك خازن النار ـ منصور عبد الحكيم.

٣٠ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ للألبانى.

٣١ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير.

٣٢ ـ طبقات ابن سعد.

٣٣ ـ تلبيس إبليس ـ لابن الجوزى.

٣٤ ـ تفسير الطبرى.

٣٥ ـ فتح القدير ـ للشوكانى.

٣٦ ـ قصص ريفية ـ فيرجيل.

٣٧ ـ الجمهورية لأفلاطون (جمهورية أفلاطون).

المؤلف فى سطور

- منصور عبد الحكيم

- من مواليد القاهرة عام ١٩٥٥م.

- حاصل على ليسانس فى الحقوق - جامعة عين شمس عام ١٩٧٨ م.

- يعمل بالكتابة والمحاماة.

- له العديد من الكتب تصل لأكثر من ١١٠ كتب ومجلد أثرت المكتبة العربية والإسلامية، وله العديد من اللقاءات على الفضائيات العربية، وترجمت بعض كتبه للإنجليزية، وله العديد من المقالات والأحاديث فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية.

كتب صدرت للمؤلف:

١ - جبريل أمين الوحى الإلهى.

٢ - إسرافيل وأهوال القيامة.

٣ - ملك الموت.

٤ - رضوان حارس الجنة وأهلها ووصفها.

٥ - مالك خازن النار وأهوالها وأحوال أهلها.

٦ - الحياة الأخرى.

٧ - الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.

٨ - السحر والسحرة والمسحورون.

٩ ـ أعمال يحبها الله.

١٠ ـ هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.

١١ ـ طارد الجن.

١٢ ـ مواجهة الجن.

١٣ ـ موائد الشيطان.

١٤ ـ عرش إبليس ومثلث برمودا.

١٥ ـ معجزات الشفاء بالحجامة.

١٦ ـ الأعشاب والجن.

١٧ ـ شهداء الصحابة فى العصر النبوى.

١٨ ـ نساء أهل البيت.

١٩ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

٢٠ ـ بيوت الرسول وبيوت الصحابة حول المسجد النبوى.

٢١ ـ النساء المبشرات بالنار ـ مترجم.

٢٢ ـ النساء المبشرات بالجنة.

٢٣ ـ الموسوعة الثقافية.

٢٤ ـ علاج النساء بالأعشاب.

٢٥ ـ الموسوعة الإسلامية للنساء.

٢٦ ـ بنات الصحابة.

٢٧ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٢٨ ـ الحرب السابعة.

٢٩ ـ المهدى المنتظر.

٣٠ ـ نهاية العالم قريباً.

٣١ ـ هولاكو مارد من الشرق.

٣٢ ـ جنكيز خان إمبراطور الشر.

٣٣ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

٣٤ ـ خالد بن الوليد قاهر الفرس والروم.

٣٥ ـ عمرو بن العاص داهية العرب.

٣٦ ـ الحجاج الثقفى طاغية بنى أمية.

٣٧ ـ السلطان عبد الحميد الثانى آخر السلاطين المحترمين.

٣٨ ـ مصطفى كمال أتاتورك طاغية الأناضول.

٣٩ ـ تيمور لنك إمبراطور على صهوة جواد.

٤٠ ـ القرين العدو الحقيقى للإنسان.

٤١ ـ واقتربت الساعة.

٤٢ ـ سلسلة أحداث آخر الزمان ـ تسعة أجزاء.

٤٣ ـ أسرار قارة أطلانتس والأطباق الطائرة ومثلث برمودا.

٤٤ ـ فرسان مالطا وغزو العراق.

٤٥ ـ أرض العراق أرض الفتن والنبوءات.

٤٦ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٤٧ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة.

٤٨ ـ إيذاء وازدراء الأنبياء.

٤٩ ـ سلسلة حكومة العالم الخفية ـ تسعة أجزاء.

٥٠ ـ الإمبراطورية الأمريكية ـ البداية والنهاية.

٥١ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

٥٢ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى ويمكن زيارة موقع المؤلف على الإنترنت باسمه.

فهرس المحتويات

■ لقد خلق الله الجنة والنار وجعلهما للآخرة ثواباً وعقاباً وتقرأ فى هذا الكتاب ما جاء عن جهنم فى الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى وما جاء عنها فى القرءان الكريم والسنة النبوية المشرفة وما جاء عنها فى الأديان المشهورة فى بقاع الأرض وعند القدماء وهذا ما يميز الكتاب عن غيره من الكتب الأخرى التى تحدثت عن جهنم.

وتقرأ فى هذا الكتاب عن عذاب جهنم وكيف أن عذابها كان غراما ومذلة وخسارة كما في قول الحق جل وعلا فى القرءان الكريم.

وتقرأ أيضا ما جاء عن جهنم عند أهل الكتاب وإن جهنم عند اليهود عذابٌ رمزى وعند النصارى عذاب تحت الأرض فى القبور.

وتقرأ عن علاقة الإنسان بالنار فى الدنيا والحياة الأخرى وعند العرب القدماء .

وتقرأ عن جهنم فى الديانات الوثنية مثل البوذية والديانات اليونانية وعند الجرمان وبلاد ما بين النهرين وعند الشامنيين والهندوس والديانة الفارسية والديانات فى القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية وعند الشعوب الأفريقية.

وتقرأ عن جهنم عند الفلاسفة والشعراء القدماء إنه كتاب مو جهنم أعاذنا الله تعالى منها ، نقدمه لك عزيزى القارئ كما عو بالمواضيع النافعة. ندعوك لقراءته وندعو غيرك للحصول عليه أب الله ويعيذك من النار بفضله.

I.S.B.N. 978-977-376-565-5



